رواية
بول أوستر
صانست
بارك
ترجمها عن الإنكليزية: سامر أبو هواش
المتوسط
Arab_Books

من الرواية:

..«أولئك الغائبون يغادرون جميعاً على عجالة من أمرهم، في حال من الخزي والارتباك، ومن المؤكّد أنهم، أينما انتهى بهم المطاف الآن (إذا كانوا قد وجدوا مكاناً يعيشون فيه، وليسوا يستظلّون خيمة ما في العراء)، فإن مساكنهم الجديدة أضيق مساحة من تلك التي فقدوها. كلّ منزل هو كناية عن قصّة فشل، عنوانها الإفلاس والتّخلّف عن السداد، الدَّيْن وحبس الرَّهْن - وقد أخذ على عاتقه أن يُوثّق الآثار الأخيرة المتبقّية من تلك الحيوات المتلاشية، لكي يُثبتَ أن تلك العائلات المختفية عاشت هنا ذات يوم، وأن أطياف أولئك الذين لن يراهم أو يعرفهم يوماً، ما تزال تلبث في الأشياء المهجورة المتناثرة في تلك المنازل الشاغرة.»..

المتوسط

صانست بارك

Tele: @Arab_Books

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Sunset Park *by* "Paul Auster"
Copyright © Paul Auster (2010)
was first published by Henry Holt and Company 2010, LLC (New York, NY)
Arabic translation copyright © 2017 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: بول أوستر / المترجم: سامر أبو هواش / عنوان الكتاب: صانسيت بارك
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
صورة الغلاف: اشتغال على غلاف عدد ١أبريل ٢٠١٣ لمجلة نيويوركر، الذي صممته الفنانة الإسبانية لوتشي غوتيرّز
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-82-3

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

Tele: @Arab_Books

بول أوستر

صانست بارك

ترجمها عن الإنكليزية: سامر أبو هواش

المتوسط

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

عالم الخسائر والأحلام المتلاشية

يحمل "صانست بارك"، وهو حيٌّ حقيقيّ في بروكلين بولاية نيويورك الأمريكية، إشارة محورية إلى ما يريد بول أوستر قوله في هذه الرواية. فهذا الحيّ يضمّ عالَمَيْن متناقضَيْن كل التناقض، ظاهرياً على الأقلّ، مقبرة غرينوود الذي يرسمها الكاتب كمدينة موازية، تضمّ عبر مساحات شاسعة من الأرض آلاف الذين عاشوا أو مرّوا في المدينة، وبعضهم نجوم سياسة وأدب وعلم وفنّ، وفي الوقت نفسه، تضمّ ذلك البيت المتهالك الذي سيضمّ مجموعة من الشباب الرافض معظمه لما آلت إليه الأمور في الولايات المتّحدة الأمريكية، والباحث عن هويّته الفردية والجماعية في خضمّ التّحوّلات التي تشهدها البلاد، ولاسيما الأزمة الاقتصادية الخانقة التي ألقت بظلالها الثقيلة بداية من العام الذي تبدأ به أحداث الرواية، أي العام ٢٠٠٨.

في خضمّ هذا العالم المتداعي، نرى بطل الرواية مايلز هيلر، الهارب من ماض قاتم محفوف بالموت والهزيمة، وقد شغل وظيفة، لا يمكن أن تزدهر إلا في أزمات ضخمة كتلك الأزمة؛ وظيفة "مدبّر" يقتضي عمله "تنظيف" المنازل التي هجرها أصحابها مُرغَمين، بسبب عدم قدرتهم على سداد قيمة الرهن للمصارف (وهو أحد الأسباب الرئيسة للأزمة الاقتصادية التي سرعان ما طاولت آثارها العالم بأسره)، وفي حين يعمل مايلز على توثيق تلك الهزيمة الجماعية، عبر التقاط صور للأشياء المتروكة

Tele: @Arab_Books

والمُهمَلَة في تلك المنازل، فإن صديقه المقرّب بينغ ناثان، وعلى بُعد مئات الكيلومترات، في نيويورك التي هجرها مايلز قبل سنوات، يدير دكّاناً، يحمل اسماً دالاً بدوره، وربّما متوازياً مع ما يقوم به مايلز في فلوريدا، وهو "مستشفى الأشياء المحطّمة"، حيث يقوم بترميم وإصلاح الأشياء القديمة التي ما عاد معظمها تتمّ صناعته في الوقت الراهن، أما أليس برغستروم، إحدى شخصيات الرواية وساكنة من سكّان المنزل في "صانست بارك" فتعدّ أطروحة عن فيلم "أحلى أيّام عمرنا" الكلاسيكي، والذي يستحضر بدوره مرحلة أخرى من مراحل الأفول والتّحوّل في التاريخ الأمريكي، وهي المرحلة التي أعقبتْ نهاية الحرب العالمية الثانية.

شخصيات "صانست بارك" جميعها تعيش الخسارة والأفول، بشكل من الأشكال، وجميعها تسعى للتصالح مع حاضرها ومع عيوبها ونواقصها وهزائمها وأحلامها الشخصية. وخلال رحلة هذه الشخصيات وتقاطعاتها، وعلى الرغم من انتهاج أوستر منهجاً شديد الواقعية في سرده الروائي، فإن "عالم أوستر"، إن جاز الوصف، يتسرّب ويتشكّل تدريجياً، سواء من خلال هذه القصص الفرعية (المقبرة، صور البيوت المهجورة، الأطروحة، مستشفى الأشياء المحطّمة)، أو من خلال وصفه لمدينة نيويورك، مكانه الروائي الأثير، وإعادة رَسْمها هذه المرّة، من خلال العلاقات الاجتماعية، ومراحل تطوّر المدينة وصولاً إلى حاضرها الراهن. في قلب هذا السَّرْد تلعب "البايسبول" أيضاً دوراً محورياً، عبر استحضار قصص مجموعة من اللاعبين الأسطوريّين الذين ساهموا في تشكيل وعي أجيال من الأمريكيين، وانتهى معظمهم نهايات مأساوية، تشبه النهايات التي عرفها مَنْ عاشوا الحلم الأمريكي مجدّداً على مشارف الألفية الجديدة، وانتهى الأمر بهم بخسارة مُدوّية.

Tele: @Arab_Books

في "صانست بارك" يبتعد بول أوستر عن عوالمه الما بعد حداثية المعتادة، ويلجأ إلى سَرْد مباشر، يخلو من الرحلات الداخلية المتخيّلة والعوالم شبه السريالية التي نراها في معظم أعماله السابقة، ولعلّ السبب الواضح في ذلك هو وطأة الأحداث والتّحوّلات التي شهدتها أمريكا في زمن الرواية (الحقيقي)، مُقدِّماً، كما تقول الناقدة "ملينا واتروس" في صحيفة نيويورك تايمز، سَرْداً لا يترك المجال للتأويل، فالعوالم الداخلية للشخصيات وأفكارها ونوازعها تُقدَّم كاملة، دون ظلال وهوامش، يمكن أن يملأها القارئ، لكنّ اللوحة النهائية التي يجمعها أوستر قطعة قطعة، وصولاً إلى نهاية الرواية، تُقدِّم عالماً بالغ التعقيد والثراء؛ عالم يحاول – من خلال أفول أمريكا القديمة مع الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي تتجلّى كاستعارة لكل ما يريد أوستر قوله – أن يستكشف أعماق مفاهيم مثل الحنين، الخسارة، الحبّ، الموت، الصداقة، الأبوّة، الشيخوخة، وحتّى الكتابة، وهو بالفعل ما يترك أوستر الكاتب بعد أن يطوي الصفحة الأخيرة من الكتاب، ليفكّر مطوّلاً به.

سامر أبو هوّاش

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

مايلز هيلر

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

١

دأب، منذ زهاء عام، على التقاط الصور الفوتوغرافية للأشياء المُهمَلَة. يتولّى يومياً مهمَّتَيْن، على الأقلّ، وأحياناً يصل العدد إلى ستّ أو سبع مهمّات، وفي كل مرّة يدخل فيها وزمرته منزلاً جديداً، يجدون أنفسهم أمام ما لا يُحصى عدده من الأشياء المنبوذة التي خلّفتْها وراءها الأسر الراحلة. أولئك الغائبون يغادرون جميعاً على عجالة من أمرهم، في حال من الخزي والارتباك، ومن المؤكّد أنهم، أينما انتهى بهم المطاف الآن (إذا كانوا قد وجدوا مكاناً يعيشون فيه، وليسوا يستظلّون خيمة ما في العراء)، فإن مساكنهم الجديدة أضيق مساحة من تلك التي فقدوها. كلّ منزل هو كناية عن قصّة فشل، عنوانها الإفلاس والتّخلّف عن السداد، الدَّيْن وحبس الرَّهْن - وقد أخذ على عاتقه أن يُوثّق الآثار الأخيرة المتبقّية من تلك الحيوات المتلاشية، لكي يُثبتَ أن تلك العائلات المختفية عاشت هنا ذات يوم، وأن أطياف أولئك الذين لن يراهم أو يعرفهم يوماً، ما تزال تلبث في الأشياء المهجورة المتناثرة في تلك المنازل الشاغرة.

يُسمّى هذا العمل بـ "التدبير"، وهو واحد من مجموعة رباعية، تعمل لصالح شركة "دانبار رياتي كوربوريشن" التي تُقدِّم خدمات "صيانة المنازل" للمصارف المحلّيّة التي آلت ملكية هذه المنازل إليها. وتمتلئ أرض جنوب فلوريدا المنبسطة الممتدّة بمثل هذه المنازل اليتيمة، ولأنه من مصلحة المصارف أن تُعاود بيعها في أسرع وقت ممكن، فمن

Tele: @Arab_Books

الضروري "تدبير" المنازل التي أُخلِيَتْ، وصيانتها، وتجهيزها بغية عرضها على الشراة المحتمَلين. ففي عالم متداع من الخراب الاقتصادي وضنك العيش القاسي، يُعدّ "التدبير" من الأعمال القليلة المزدهرة في المنطقة. ولا ريب في أنه محظوظ لإيجاده هذه الوظيفة، وإن لم يكن يعرف حتّام سيظلّ في وسعه احتمالها، لكنّ الراتب جيّد، وفي بلاد تشحّ فيها الوظائف يوماً بعد يوم، فلا ريب في أنها وظيفة مقبولة.

في البداية، صدمه مشهد الفوضى والقذارة والهجران، إذ تندر المنازل التي بقيت، بعد هجر مالكيها السابقين لها، على حالها الأولى، فغالباً ما يجد في تلك المنازل المهجورة آثار نوبات العنف والغضب، مصحوبة بالتخريب المتعمّد، من المياه التي تفيض في المغاسل وأحواض الاستحمام، بسبب ترك الصنابير مفتوحة، إلى الجدران المهشّمة بالمطارق، أو تلك التي تغطّيها الكتابات الفاحشة، أو تلك المثقّبة بالأعيرة النارية، ناهيك عن الأنابيب النحاسية المخلوعة، والسجاجيد الملطّخة بالمبيّضات، والبراز الذي يملأ أرضيات غرف المعيشة. وقد يصادف المرء نماذج متطرّفة؛ أفعال متهوّرة نابعة من غضب أولئك الذين جُرِّدوا من ملكيّاتهم، تعبيرات مثيرة للاشمئزاز، إنما مفهومة، عن اليأس. ولكنْ، حتّى لو لم يملأه الشعور بالاشمئزاز حينما يدخل منزلاً ما، فإنه لا يفتح باباً البتّة دون أن تعتريه مشاعر الرهبة. ومن المحتّم أن تكون الرائحة أوّل ما يستقبله حال دخوله، فتنقض العفونة انقضاضاً على منخريه، وتلك الروائح الطاغية التي تمتزج فيها العفونة بالحليب الفاسد وبراز القطط، والمراحيض التي تراكمت فيها القذارات، والطعام الذي تُرك، ليتعفّن في المطابخ، والتي لا يستطيع الهواء المنعش المتدفّق من النوافذ المفتوحة إزالتها، مثلما لا تستطيع عملية الإخلاء الأكثر نظافة وحرصاً حتّى، محو عطن الهزيمة.

Tele: @Arab_Books

ثمّ، هناك دوماً الأشياء؛ تلك الممتلكات المَنسيّة، الأشياء المهجورة. وقد باتت الصور في أرشيفه المتنامي هذا تُعدّ بالآلاف: صور كُتُب، وأحذية، ولوحات زيتية، وآلات بيانو، ومحمّصات خبز كهربائية، ودمى، وأطقم شاي، وجوارب متّسخة، وأجهزة تلفزيونية، وألعاب لوحيّة، وأثواب حفلات، ومضارب تنس، وكنبات، وملابس داخلية حريرية، وبنادق لحشو السليكون، ومسامير إبهامية، وشخوص بلاستيكية، وأنابيب أحمر الشفاه، وبنادق، ومراتب باهتة اللون، وسكاكين، وشوك، وقطع بلاستيكية للبوكر، ومجموعات طوابع، وعصفور كناريّ ميّت في قفص. لا يجد تفسيراً لسرّ اندفاعه لالتقاط هذه الصور. يدرك أنه مسعى بغير طائل، وأنه لن يعود بفائدة تُذكَر على أحد، ومع ذلك، فكلّ مرّة يدخل فيها أحد تلك المنازل، يشعر بأن الأشياء تُناجيه وتخاطبه بأصوات البشر الذين ما عادوا هناك، مناشدة إيّاه إلقاء نظرة أخيرة عليها قبل أن يطويها النسيان. بقية "المدبّرين" يسخرون منه، بسبب هَوَسه هذا، لكنه لا يكترث بأمرهم. فهو يعدّهم تُفهاً، ويحتقرهم جميعاً؛ "فيكتور" فارغ الرأس، رئيس الفريق؛ "باكو" المهذار التأتاء؛ و"فريدي" السمين اللاهث، أولئك هم فرسان الخراب الثلاثة. وبحسب القانون، فإن الممتلكات المعثور عليها جميعها، والتي تفوق قيمتها حدّاً معيّناً، يجب تسليمها إلى المصرف المُلزَم بإعادتها إلى مالكيها، لكنّ زملاءه يأخذون ما طاب لهم دون أن يرفّ لهم جفن، ويعدّونه مغفلاً لإدارته ظهره على هذه المغانم - قناني الويسكي، أجهزة المذياع، مشغّلات الأسطوانات المدمجة، أطقم الرماية، المجلات الجنسية - لكنه لا يبتغي شيئاً سوى التقاط الصور الفوتوغرافية - لا الأشياء، بل صور الأشياء. ومنذ بعض الوقت، صار دأبه أن يكون مقلاً جدّاً في الكلام في أثناء العمل، حتّى صار "باكو" و"فريدي" يناديانه "إل مودو"(*).

---

*) المزاجي

Tele: @Arab_Books

إنه في الثامنة والعشرين من عمره، وبقدر ما يعنيه الأمر، ليس لديه أيّ طموحات. ليس هناك ما يتوق له في المستقبل، على أيّة حال، ولا فكرة واضحة عمّا قد يستتبعه بناء مستقبل مُرض لنفسه. يعرف أنه لن يمكث طويلاً في فلوريدا، وأنه ستحين اللحظة التي سيشعر فيها بالحاجة إلى المضي قُدُماً في طريقه، ولكنْ، حتّى تتحوّل هذه الحاجة إلى دافع يحثّه على الفعل، فإنه راض بعيش اللحظة، وعدم الاكتراث بالمستقبل. وإذا كان قد أنجز شيئاً خلال السنوات السبع ونصف السنة مذ ترك الجامعة، ومضى في طريقه، فإنها هذه المقدرة على العيش في الراهن، على الاكتفاء بالآن، وهنا، وقد لا يكون هذا أعظم إنجاز يفتخر به المرء، إلا أن تحقيق ذلك تطلّبه قدراً كبيراً من الانضباط والسيطرة على النفس؛ ألا تكون لديه خطط، أي ألا تكون لديه أشواق أو آمال، أن يرضى بما قُسم له، أن يقبل بما يجود به العالم عليه من غروب يوم إلى آخر - لكي تعيش على هذا النحو، عليكَ أن تطلب الأقلّ، أقلّ ما تحتاج إليه كبشريّ.

شيئاً فشيئاً، قلّص رغباته، لما كاد يبلغ الآن الحدّ الأدنى. فأقلع عن التدخين والشراب، وما عاد يقصد المطاعم، ولا يمتلك تلفازاً ولا مذياعاً ولا حاسوباً، وتحدوه الرغبة في أن يقايض سيّارته بدرّاجة هوائية، لكنه لا يستطيع التّخلّص من السّيّارة، بسبب المسافات الكبيرة التي يضطرّ إلى قطعها للوصول إلى عمله. والأمر ذاته ينطبق على الهاتف المحمول الذي يضعه في جيبه، مقاوماً رغبة ملحّة في أن يلقي به في القمامة، لكنه من ضرورات العمل أيضاً. أما الكاميرا الرَّقْمية التي يحملها معه، فربمّا شكّلت شذوذاً عن القاعدة، ولكنْ، أخذاً في الحسبان حجم العناء والكآبة في عمله، فإنه يشعر أن هذه الكاميرا تُنقذ حياته. إيجار شقّته منخفض، بما أنها شقّة صغيرة في حيّ رثّ، وعدا عن إنفاق المال على الاحتياجات الأساسية، فإن الترف الوحيد الذي يسمح به لنفسه هو شراء الكُتُب،

Tele: @Arab_Books

ولاسيما الروايات، تلك الأمريكية والبريطانية والأجنبية المترجمة، غير أن الكُتُب، في نهاية المطاف، لا تُعدّ ترفاً، بقدر ما هي ضرورة، والقراءة إدمان، ليس راغباً في الشفاء منه.

لولا الفتاة، لكان على الأرجح بادر إلى الرحيل قبل انتهاء الشهر. فقد وفّر من المال ما يسمح له بالذهاب إلى أيّة وجهة يختارها، ولا ريب في أنه سئم شمس فلوريدا، والتي بعد الكثير من التمحيص في أمرها، بات يظنّ جازماً بأن أعطابها على الروح أكثر من فوائدها. فهو يعتقد أنها شمس ماكيافيلية، منافقة، ونورها لا يضيء الأشياء، بقدر ما يحيطها بغلالة من السديم – وهي تعمي المرء بسطوعها الدائم المبالغ فيه، ولا تني تضرب الرأس بالرطوبة البخاريّة التي تنبثق منها، مزعزعة كيانكَ بانعكاساتها السرابيّة وأمواجها العدمية المتلألئة. ومع أنها شديدة التوهّج والضياء، لكنها لا توفّر أيّة فحوى أو رقّة أو انتاش. ومع ذلك، فتحت هذه الشمس رأى حبيبته للمرّة الأولى، ولأنه لا يستطيع حمل نفسه على هجرها، فإنه يواصل التعايش مع هذه الشمس، ويحاول التصالح معها.

تُدعى بيلار سانشير، وكان التقاها قبل ستّة شهور في حديقة عامّة؛ لقاء بمحض الصدفة ذات أصيل يوم سبت في منتصف مايو؛ أكثر اللقاءات عشوائية بين اللقاءات غير المحتملة. كانت تقتعد العشب، وتقرأ كتاباً، شاءت الصدفة أن يكون الكتاب نفسه الذي كان يقرؤه، بل الطبعة نفسها، رواية "غاتسبي العظيم"، التي كان يقرؤها للمرّة الثالثة منذ تلقّاها هدية من والده في عيد ميلاده السادس عشر. كان مضى على وجوده في الحديقة زهاء عشرين أو ثلاثين دقيقة، وقد انغمس كُلّيّاً في الكتاب الذي شكّل نوعاً من السور بينه وبين العالم المحيط به، حينما سمع رنين ضحكة. التفت، وفي تلك اللمحة الأولى القاتلة، بينما جلست هناك مبتسمة له

Tele: @Arab_Books

مشيرة إلى عنوان كتابها، خمّن أنها أصغر من السادسة عشرة، مجرّد بنت صغيرة، بل طفلة في واقع الأمر، مراهقة يافعة، ترتدي سروالاً قصيراً ضيّقاً، وصندالاً وبلوزة صديرية ضيّقة، وهي الملابس عينها التي ترتديها كل فتاة، تتمتّع بقدر من الجاذبية في أرجاء تلك المناطق الخفيضة الغارقة بشمس فلوريدا. ليست أكثر من طفلة، حدّث نفسه، ومع ذلك، فها هي أمامه بذراعَيها، وساقَيْها الناعمتَيْن العاريَتَيْن، ووجهها المتيقّظ الباسم، وهو الذي نادراً ما يتسم لأحد أو لشيء، نظر إلى عينَيْها الداكنَتَيْن المتوثّبَتَيْن، وبادلها الابتسام.

بعد ستّة أشهر، ما تزال تحت السّنّ القانونية. رخصة القيادة التي تحملها تفيد بأنها في السابعة عشرة، وأنها لن تبلغ الثامنة عشرة قبل مايو، وبالتالي يجدر به التّصرّف بحَذَر معها، متجنّباً بأيّ ثمن كل ما من شأنه أن يثير شكوك المهووسين بالجنس، ذلك أن مكالمة هاتفية واحدة إلى الشرطة من أحد المتطفّلين المستائين يمكن أن تودي به بسهولة في غياهب السجن. كل صباح، ما عدا في عطلة الأسبوع أو العطل الرسمية، يوصلها بسيّارته إلى ثانوية جون أف كينيدي، حيث تدرس عامها الأخير، وتبلي حسناً في دراستها تلك، متطلّعة إلى الجامعة، وإلى مستقبل مهني كممرّضة مرخّصة، لكنه لا يُنزلها أمام المبنى، فتلك مخاطرة زائدة، إذ قد يلمحهما أحد المعلّمين أو الإداريّين في المدرسة في السّيّارة معاً، ويطلق جرس الإنذار، وبالتالي فإنه يوقف السّيّارة قبل ثلاثة أو أربعة أبنية، ويُنزلها هناك. لا يُقبّلها مودّعاً، ولا يلمسها. وهذا الأمر يُحزنها، بما أنها تعدّ نفسها امرأة بالغة، لكنها تتقبّل هذه اللامبالاة المتكلّفة من قِبَله، لأنه قال لها إنه يجدر بها ذلك.

والدا بيلار قُتلا في حادث سيّارة قبل عامَيْن، وحتّى انتقالها إلى شقّته

Tele: @Arab_Books

بعد انتهاء العام الدراسي في يونيو الماضي، كانت تعيش مع شقيقاتها الثلاث الأكبر منها؛ ماريا (٢٢ عاماً) وتريزا (٢٣ عاماً) وأنجيلا (٢٥ عاماً)، في منزل العائلة. ماريا تدرس التجميل في معهد محلي. وتريزا عاملة صندوق في مصرف، أما أنجيلا وهي الأجمل بينهن، فتعمل ساقية في حانة. وأخبرتْه بيلار أنها تضاجع من وقت لآخر الزبائن لقاء المال، وتتردّد قبل أن تضيف أنها تحبّ أنجيلا، بل تحبّ جميع شقيقاتها، لكنها سعيدة بمغادرتها المنزل، فهو مليء بذكريات والديها، إضافة إلى أنها لا تستطيع مَنْع نفسها من النقمة على أنجيلا لفعْلها ما تفعله، فهي تعدّ أنه من الخطيئة أن تقوم امرأة ببَيْع جسدها، ويُريحها أنها ما عادت تتجادل معها. أجل، تقول له، شقّته أبعد ما تكون عن البيت، ومنزل عائلتها أكثر رحابة وراحة، لكنّ شقّته ليس فيها كارلوس جونيور البالغ من العمر ثمانية عشر شهراً، وهذا أيضاً مصدر راحة هائل. فابن تريزا ليس بالطفل السّيّئ أو المختلف عن بقية الأطفال، لكنْ، ماذا بوسع تريزا أن تفعل بوجود زوجها في العراق، واضطرارها إلى العمل ساعات طويلة في المصرف؟ لكنّ هذا لا يمنحها الحقّ بأن تُلقي بأعباء رعاية الطفل على أختها الصغرى بين يوم وآخر في الأسبوع، ومع أنها حاولت التحلّي بروح رياضية بهذا الخصوص، لكنها لم تستطع مَنْع نفسها من كره هذه المهمّة. فهي تحتاج إلى وقت، تنفرد فيه بنفسها وتدرس، لأنها تريد أن تؤسّس مستقبلها، وكيف يمكنها فعل ذلك حين تكون مشغولة بتغيير الحفّاضات؟ لا بأس بالأطفال بالنسبة إلى الآخرين، لكنها لا تريد أن تربطها أيّة صلة بهم. شكراً، تقول، لا، شكراً.

يعجب من روحها المتيقّظة وذكائها. فمنذ اليوم الأوّل حين سمعها في الحديقة تتحدّث عن "غاتسبي العظيم" أُعجب بأنها تقرأ هذا الكتاب من تلقاء نفسها، لا لأن معلّماً ما كلّفها بذلك، ثمّ، مع تواصل الحديث بينهما، تضاعف إعجابه بها حين جادلتْه بأن أهمّ شخصية في الكتاب

Tele: @Arab_Books

ليست شخصية دايزي أو توم أو حتّى غاتسبي نفسه، بل نيك غاراواي. وحين طلب منها أن تُفنّد ذلك، أجابت: لأنه الراوية. إنه الشخصية الوحيدة التي تضع قَدَمَيْها على أرض الواقع، الوحيدة القادرة على أن ترى الأمور من خارج ذاتها. أما بقية الشخصيات، فكلها ضائعة وسطحية، ولولا عطف نيك وتفهُّمه، لما تعاطفنا البتّة مع أيّ منها. الكتاب برمّته يقوم على نيك. ولو كانت شخصية الراوي مجهولة، لما كانت الرواية بنصف هذه القوّة.

الراوي العليم(*). تعرف معنى هذا المصطلح، تماماً كما تفهم معنى مصطلحات مثل تعليق اللا تصديق(**)، والنشوء الأحيائي، والمتواليات اللوغارثمية، وقضية براون ضد مجلس التعليم(***). كيف يعقل، يتساءل، لفتاة يافعة كبيلار سانشيز، التي عمل والدها الكوبيّ الأصل ساعيَ بريد طوال حياته، والغارقة شقيقاتها الثلاث في مستنقع أشغالهنّ اليومية الرتيبة، أن تكون مختلفة إلى هذا الحدّ عنهنّ؟ فبيلار تمتلك حبّاً للمعرفة، ولديها خطط، وتعمل بجدّ، وهو أكثر من سعيد بتشجيعها، وبفعل كل ما يلزم لمساعدتها، لكي تتقدّم في تحصيلها العلمي. منذ تركت منزل أسرتها للعيش معه، بدأ يعلّمها كيفية تسجيل النقاط في اختبار سات، مدقّقاً في واجباتها المدرسية جميعها، وقد علّمها المبادئ الأوّلية لحساب التفاضل (الذي لا توفّره لها مدرستها)، وقرأ لها عشرات الروايات والقصص القصيرة والقصائد. هو الشّابّ الخالي من الطموح، المتسرّب من الجامعة، ومن بهرجة حياته السابقة الموسرة، أخذ على عاتقه أن يجعلها مركز طموحه،

(*) Omniscient narrator الراوي المحيط بتفاصيل القصّة كلها، أو ما يُعرَف باسم الصوت الثالث، أو الراوي الموضوعي غير الذاتي

(**) suspension of disbelief مصطلح نحته صموئيل كوليردج، ويعني قبول القارئ بتعليق الفكر المنطقي والواقعي خلال القراءة، وتقبّل أحداث غير عادية أو غير منطقية

(***) Brown v. Board of Education قضية شهيرة جداً، قضت فيها المحكمة العليا الأمريكية عام ١٩٥٤ بلا دستورية فصل الطلاب السود عن البيض في المدارس.

Tele: @Arab_Books

وأن يشجّعها على المضي قُدُماً قدر ما تشاء. الأولوية هي الجامعة، جامعة جيّدة بمنحة كاملة، وحين تصل إلى تلك المرحلة، فإنه مقتنع بأن بقية الأمور ستكون على ما يرام. في الوقت الراهن، هي تحلم بأن تغدو ممرّضة مرخّصة، لكنّه واثق من أنها ستُغيّر رأيها، بل هو متيقّن من أنها تملك الرغبة الداخلية للالتحاق يوماً بكُلّيّة الطّبّ، لكي تغدو طبيبة.

كانت هي مَن اقترحت فكرة الانتقال للعيش معه. ما كان ليخطر بباله أن يقترح عليها مثل هذه الخطّة الجسورة، لكنّ بيلار كانت مصمّمة على ذلك، يحدوها، في آن معاً، الرغبة في الفرار وأفق أن تنام بجانبه كل ليلة، وبعد أن رَجَتْه بأن يقابل أنجيلا، المعيلة الأساسية للزمرة، وبالتالي صاحبة الكلمة الفصل في القرارات العائلية جميعها، التقى الشقيقة الكبرى، وتمكّن من إقناعها بالأمر. كانت متردّدة في البداية مُدّعية أن بيلار ما تزال يافعة، وتفتقر إلى التجربة، لكي تخطو مثل هذه الخطوة الحاسمة. أجل، هي تعرف أن شقيقتها واقعة في غرامه، لكنها لا توافق على هذا الحبّ، بسبب فارق العمر بينهما، ممّا يعني أنه آجلاً أم عاجلاً سوف يملّ من ألعوبته المراهقة هذه، ويهجرها، ويفطر قلبها. أجابها بأنه قد ينتهي الأمر بالعكس تماماً، وأنه هو مَنْ قد يتعرّض للهجران، والبقاء مع قلب مفطور. بعد ذلك، وضع جانباً كل هذا الكلام على الحبّ والأحاسيس، وأقام دفاعه على محض عملية. بيلار لا تملك عملاً، قال لأنجيلا، وهي تُشكّل عبئاً اقتصادياً على العائلة، وهو قادر على إعالتها، ورفع ذلك العبء عن كاهل شقيقاتها. وفي نهاية المطاف، هو لا يخطفها إلى الصين مثلاً، فمنزلهنّ لا يبعد عن شقّته أكثر من خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام، ويمكنهنّ رؤيتها قدر ما يشأنَ. ولكي يُحكم الصفقة، قدّم لهنّ الهدايا، العديد من الأشياء اللواتي كنّ توّاقات للحصول عليها، ولكنهن لم يكنّ قادرات على شرائها. ووسط صدمة وتهكُّم المهرّجين الثلاثة معه في العمل،

Tele: @Arab_Books

تراجع مؤقّتاً عن موقفه فيما يخصّ ما يجب فعله، وما لا يجب فعله في أصول سقط المتاع، وخلال الأسبوع التالي، اختلس حصرياً تلفازاً جديداً ذا شاشة مُسطّحة، وصانعة قهوة كهربائية من أفضل طرز، ودراجة ثلاثية العجلات حمراء اللون، وستّة وثلاثين فيلماً (بما فيها مجموعة العرّاب)، ومرآة تجميل احترافية، ومجموعة من كؤوس النبيذ الكريستال، التي قدّمها جميعاً لأنجيلا وشقيقاتها تعبيراً عن امتنانه. بكلمات أخرى، بيلار تعيش معه الآن، لأنه رشا العائلة. لقد اشتراها منهنّ.

بلى هي مغرومة به، وبلى - وعلى الرغم من تبكيت الضمير والتردّد الداخلي - فإنه يبادلها هذا الحبّ، مهما بدا هذا الاحتمال بعيداً، بالنسبة إليه. ويجدر القول هنا إنه ليس بالشخص المُولَع على نحو خاصّ بالصغيرات. فحتّى الآن، النسوة في حياته كلهنّ كنّ إلى هذا الحدّ أو ذاك بمثل عمره. وبالتالي فإن بيلار لا تمثّل له تجسيداً مثالياً للأنثى، فهي ليست إلا نفسها، قطعة صغيرة من الحظّ، تعثّر بها ذات أصيل في حديقة عامّة، استثناء لكلّ قاعدة. ولا يمكنه أن يفسّر لنفسه سبب انجذابه لها. صحيح أنه يحبّ ذكاءها، لكنّ هذا في النهاية قليل الشأن، بما أنه أُعجب بذكاء نسوة أخريات من قبل، من دون أن يشعر بالحدّ الأدنى من الانجذاب إليهنّ. وهو يجدها جميلة، لكنها ليست فائقة الجمال، ولا تُحسَب حسناء بأيّ مقاييس موضوعية (على الرغم من أنه يمكن القول إن كل فتاة في السابعة عشرة هي حسناء، لسبب بسيط، وهو أن الشباب كله رائع). لكنه لم يُغرم بها بسبب جسدها، ولا بسبب عقلها. ما السبب إذن؟ ما الذي يُبقيه معها في الوقت الذي ينبئه كلّ شيء بأنه يجدر به تركها؟ ربمّا بسبب الطريقة التي تنظر فيها إليه، قوّة نظراتها، الكثافة الشديدة في عينَيْها حينما تُصغي إليه وهو يتكلّم، إحساسه بأنها حاضرة كُلّيّاً حين يكونان معاً، أنه الشخص الوحيد في الوجود بالنسبة إليها.

Tele: @Arab_Books

أحياناً، حين يُخرج كاميرته، ويريها صوره عن الأشياء المُهمَلَة، تغرورق عيناها بالدموع. يشعر أن ثمّة جانباً عاطفياً رقيقاً فيها، يكاد يكون كوميدياً، ومع ذلك، فإنه يحبّ رقّتها هذه، ذلك الإحساس بأوجاع الآخرين، وأيضاً لأنها تستطيع بين وقت وآخر أن تكون قوية وكثيرة الكلام ومفعمة بالضحك، فإنه لا يستطيع التنبّؤ أيّ جزء منها سوف يظهر في هذه اللحظة أو تلك. قد يكون الأمر متعباً على المدى القصير، ولكنْ، على المدى الطويل يشعر أن هذا كله للأفضل. هو الذي حرم نفسه كثيراً على مرّ سنين طوال، الذي كان شديد التّبلّد عاطفياً في تنسّكه، الذي علّم نفسه لجم أعصابه، والمضي في العالم ببرود عنيد، عاد إلى الحياة بفضل فيضها العاطفي، قابليّتها للاشتعال، غزارة دموعها أمام صورة دبّ دمية مهجور، أو درّاجة هوائية محطّمة، أو إناء زهور ذابلة.

في المرّة الأولى التي ناما فيها معاً، أكّدت له أنها لم تعد عذراء. وصدّق ذلك، ولكنْ، حين جاءت اللحظة الحاسمة، دفعتْه عنها قائلة له إنه لا يجدر به فعْل ذلك. فما أسمتْه "المامي هول" خطٌّ أحمر، محظور تماماً على الذُّكُور. استعمال اللسان والأصابع مقبول، ولكنْ، لا أعضاء ذُكُورية، في أيّ حال من الأحوال. لم يفهم مقصدها، فقد كان يضع الواقي الذَّكَري، كانا مَحميَّيْن، ولم تكن من حاجة للقلق. آه، قالت، ولكنه مخطئ كُلّيّاً في ذلك. تريزا وزوجها كانا يثقان تماماً بالواقي الذَّكَري، وانظر ماذا حدث لهما! لم يكن من شيء يخيف بيلار أكثر من أن تحبل، ولن تخاطر بمستقبلها بالوثوق بأحد هذه الواقيات المطّاطية المشكوك بها. تُفضِّل أن تجزّ معصمها أو أن ترمي نفسها عن جسر على أن تحبل! هل تفهم؟ أجل أفهم، أجاب، وحين سألها، ولكنْ، ما البديل؟ الثقب الغريب، قالت له. شقيقتها أنجيلا أخبرتْها عن الأمر، وعليه الاعتراف بأنه من وجهة نظر طبّيّة وبيولوجية، فإن هذه أكثر طريقة آمنة لمَنْع الحمل في العالم.

Tele: @Arab_Books

منذ ستّة أشهر وهو منصاع لرغبتها، حاصراً كل وُلُوج في ثقبها الغريب، وغير واضع شيء سوى لسانه وأصابعه في "المامي هول". هكذا هي خصوصيات وانحرافات علاقتهما العاطفية، والتي تبقى مع ذلك حياة ثرية، شراكة إيروتيكية رائعة، لا تلوح عليها أيّ علامات على انطفاء وشيك. في نهاية المطاف، فإن هذا التواطؤ الجنسي هو ما ربطه بها سريعاً، وأبقاه صامداً في أرض العَدَم التي يواجهها يومياً بين أطلال البيوت الشاغرة. يفتنه جلدها. وهو أسير فمها المتّقد المفعم شباباً. يشعر بالألفة مع جسدها، وإذا وجد في نفسه الشجاعة لهجرها يوماً ما، فهو متيقّن من أنه سيندم على ذلك ما حيا.

Tele: @Arab_Books

٢

يكاد لا يُخبرها شيئاً عن حياته. حتّى في يوم لقائهما الأوّل في الحديقة، حين سمعتْه يتكلّم، وفهمت أنه آت من مكان آخر، لم يخبرها أن ذلك المكان الآخر هو نيويورك سيتي، وعلى وجه الدقّة حيّ "وست فيلاج" في مانهاتن، لكنه أجاب بغموض قائلاً إن حياته بدأت في الشمال. بعدها بفترة وجيزة حين بدأ يساعدها في دروس "السات"، وعرّفها على الحساب التفاضلي، أدركت بيلار أنه أكثر من مجرّد عامل نظافة جوّال، وأنه، في حقيقة الأمر، حاصل على تعليم عال، ويتمتّع بعقل ألمعيّ، وحبّ كبير للأدب، وأنه واسع المعارف، إلى درجة أن معلّمي الإنجليزية في مدرسة "جون أف كينيدي" الثانوية حيث تتلقّى تعليمها يبدون متطفّلين مقارنة به. أين تلقّى تعليمه؟ سألتْه يوماً. فاكتفى برَفْع كتفَيْه، غير راغب في أن يذكر ثانوية "ستافسانت" المعروفة في نيويورك والسنوات الثلاث التي أمضاها في جامعة براون. وحين ألحّت عليه في السؤال، أطرق أرضاً، وتمتم اسم كُلّيّة حكومية صغيرة في نيو إنجلند. وفي الأسبوع التالي، حين أعطاها رواية من تأليف رينزو ميكالسون، الذي يصادف أنه عرّابه، لاحظت أنها منشورة من قِبَل دار نشر هيلر، وسألتْه إذا كان ثمّة صلة بين اسم عائلته واسم هذه الدار. فأجاب بالنفي، وبأنها محض مصادفة، فهيلر اسم شائع في نهاية المطاف. وهذا دَفْعها إلى أن تسأله السؤال البسيط والمنطقي التالي عن أيّ فرع من عائلة هيلر ينتمي. مَن هما والداه؟ وأين يعيشان؟ كلاهما رحل، أجابها. أتعني أنهما ميّتان؟ أجابها: أخشى ذلك.

Tele: @Arab_Books

مثلي تماماً، قالت، وقد طفقتْ عيناها فجأة بالدمع. صحيح، أجابها، مثلكِ تماماً. سألتْه إذا كان لديه شقيقات أو أشقاء؟

لا، أنا طفل وحيد.

بالكذب عليها على هذا النحو، وفّر على نفسه عبء الاضطرار إلى التّكلّم على أمور، كان يحرص على تجنّبها منذ سنوات. لا يريدها أن تعرف أنه بعد ستّة شهور من ولادته، هجرت أمُّه والدَه وطلّقَتْه، لتتزوّج رجلاً آخر. لم يُردْها أن تعرف أنه لم يرَ والده، موريس هيلر، مؤسّس وناشر هيلر للنشر، ولم يتكلّم إليه منذ الصيف الذي تلا عامه الدراسي الثالث في براون. وأقلّ أهمّيّة من ذلك، لا يريدها أن تعرف شيئاً عن زوجة أبيه، ويلا باركس، التي تزوّجت والده بعد عشرين شهراً من الطلاق، ولا يريدها أن تعرف شيئاً، لا شيء على الإطلاق عن بوبي، ابن زوجة أبيه المتوفى. هذه الأمور لا تعني بيلار، إنها شؤونه الخاصّة، وقبل أن يجد مخرجاً من الليمبو الذي سوّر نفسه به طوال السنوات السبع الماضية، فلن يتشارك هذه الشؤون مع أحد.

حتّى الآن، لا يمكنه التّأكّد ممّا إذا كان تقصّد فعل ذلك أم لا. لا ريب في أنه قام بدَفْع بوبي. إنهما كانا يتشاجران ودفعهُ في لحظة غضب، لكنه ليس متأكّداً ما إذا كانت الدفعة جاءت قبل أو بعد سماعه صوت السّيّارة القادمة، أي أنه لا يعرف إذا كان موت بوبي حادثاً أم أنه كان، سرّاً، يُضمر قَتْلَه. سيرة حياته برمّتها تتوقّف على ما حدث في ذلك اليوم في "بيركشيرز"، وما يزال لا يجد جواباً شافياً، ما يزال لا يملك الجواب حول ما إذا كان قَتَلَ بوبي أم لا.

حدث ذلك في صيف ١٩٩٦، بعد شهر من إهداء والده له رواية

Tele: @Arab_Books

"غاتسبي العظيم" وخمسة كُتُب أخرى بمناسبة عيد ميلاده السادس عشر. كان بوبي في الثامنة عشرة والنصف، وقد تخرّج لتوّه في الثانوية، بصعوبة جمّة، وبمساعدة أكيدة منه، فقد كتب له ثلاثة من أبحاثه الفصلية بسعر مخفّض، بلغ الدولارَيْن على الصفحة الواحدة، أي ٧٦ دولاراً بالإجمال. كان والداهما استأجرا منزلاً في ضواحي جرايت بارينجتون لشهر أغسطس، وكان الولدان في طريقهما لإمضاء عطلة نهاية الأسبوع معهما. كان أصغر من أن يقود السّيّارة، وبوبي يمتلك رخصة، وبالتالي، كانت مسؤولية بوبي أن يفحص الوقود، ويملأ الخزان قبل أن ينطلقا – وهو ما لم يفعله بطبيعة الحال. على بُعد زهاء ١٥ ميلاً من البيت، عبر طريق داخلي جبلي منعرج، نفد الوقود. وربمّا ما كان ليغضب إلى هذا الحدّ، لو أن بوبي أبدى شيئاً من الأسف، لو أن المغفّل اللعين تجشّم عناء الاعتذار، لكن بوبي، وبما يتوافق مع طبيعته، وجد الوضع مسلّياً، وأوّل ردّة فعْل قام بها هي أنه انفجر ضاحكاً.

كانت الهواتف المحمولة مُستخدَمَة حينذاك، لكنهما لم يكونا يحملان واحداً، وهو ما عنى أنه عليهما ترك السّيّارة، وإكمال الطريق سيراً على الأقدام. كان يوماً حارّاً شديد الرطوبة، مع حشود من البعوض، تحوم حول رأسَيْهما، وقد تكدّر مزاجه من بلادة بوبي، ولامبالاته حيال الموقف، ومن الحَرّ والبعوض، ومن الاضطرار إلى السير على ذلك الطريق الضّيّق الزري، ولم يجد نفسه إلا وهو يوبّخ أخاه، شاتماً إيّاه، محاولاً استفزازه للانخراط في شجار معه. ظلّ بوبي يُبعده عنه، رافضاً الردّ على إهاناته. لا تغضب من لا شيء، قال له، فالحياة مليئة بالمفاجآت، وربمّا يحدث لهما شيء مثير للاهتمام، كونهما على هذه الطريق، ربمّا، ربمّا فقط، يعثران على فتاتَيْن جميلتَيْن عند المنعطف التالي؛ فتاتان عاريتان تماماً، يصحبانهما إلى الغابة ويمارسان الحبّ معهما طوال ستّ عشرة ساعة. في ظلّ الظروف

Tele: @Arab_Books

الاعتيادية، كان ليضحك كلّما بدأ بوبي بالتّكلّم على هذه الشاكلة، ويقع كُلّيّاً تحت سِحْر ثرثرته الفارغة، لكنّ شيئاً لم يكن طبيعياً فيما كان يحدث حينذاك، ولم يكن مزاجه مؤاتياً للضحك. كان الأمر برمّته سخيفاً، ورغب في أن يلكم بوبي على وجهه.

كلّما تذكّر ذلك اليوم، يتخيّل كم كانت لتختلف الأمور لو أنه كان يمشي على يمين بوبي بدلاً من يساره. كانت الدفعة لترميه عن الطريق بدلاً من وسطها، وكانت لتنتهي القصّة عند هذا الحدّ، بما أنها لم تبدأ أصلاً، فالمسألة برمّتها كانت لتكون بلا قيمة تُذكَر، مجرّد نوبة غضب وجيزة، وتزول. لكنْ، ها هما، دون سبب خاصّ يقفان في ذلك الترتيب بين يسار ويمين، هو من الداخل، وبوبي من الخارج، ماشياً على كتف الطريق باتّجاه المركبات المقبلة، التي لم يكن ثمّة أيّ منها، لا سيّارة ولا شاحنة ولا درّاجة نارية واحدة طوال عشر دقائق، وبعد أن كان يخطب في أخيه بلا توقّف طوال الدقائق العشر تلك، فإن لامبالاة بوبي الممزوجة بالسخرية تحوّلت إلى مماحكة، ثمّ شجار، وبعد ميلَيْن من مسيرهما، كان الاثنان يصرخان من صميم قلبَيْهما في وجه أحدهما الآخر.

كم مرّة تشاجرا في الماضي؟ مرّات لا تُحصى، أكثر ممّا يمكنه أن يتذكّر، لكنه لم يكن يشعر بأن الأمر غير اعتيادي، بما أن الإخوة يتشاجرون دوماً، ورغم أن بوبي ليس شقيقه ومن لحمه ودمه، فمع ذلك، فقد كان موجوداً طوال فترة نشأته. كان في الثانية من عمره حينما تزوّج والده والدة بوبي، وصار الأربعة يعيشون معاً تحت سقف واحد، وهو ما يجعله بالضرورة زمناً يتجاوز قدرته على التّذكّر، حقبة مُحيت تماماً من رأسه، وبالتالي من المنطقي القول إن بوبي لطالما كان شقيقه، ولو لم يكن كذلك بالمعنى الدقيق للكلمة. كانت هنالك الشجارات والمماحكات المعتادة، ولأنه

Tele: @Arab_Books

أصغر من بوبي بعامَيْن ونصف العام، فالعاقبة تحمّلها جسده معظم الأحيان. يتذكّر بصورة ضبابية والده وهو يتدخّل، لكي يرفع عنه بوبي الزاعق ذات يوم شتوي في مكان ما من البلد، وزوجة أبيه وهي تُوبّخ بوبي للّعب بهذه القسوة، وضربه بوبي على وجهه حين انتزع منه لعبة ما. لكنْ، لم تكن علاقتهما كلها حرب ونزاع، بل شهدت فترات من الهدوء والسكون والأوقات الطّيّبة أيضاً، وقد بدأ ذلك حين كان في السابعة أو الثامنة، أي حين كان بوبي في التاسعة أو العاشرة أو الحادية عشرة، يتذكّر جيّداً أنه أُعجب بأخيه، بل ربمّا أحبّه، وبادله أخوه هذا الإعجاب أو الحبّ. لكنهما لم يكونا مقرَّبَيْن يوماً، ليس على نحو ما يكون الأشقّاء، بمَنْ فيهم المتشاجرون المتخاصمون، ولا ريب أن لهذا صلة بحقيقة أنهما ينتميان إلى عائلة مصطنعة، مركّبة، والولاء العميق لكلّ منهما هو لوالده. وهذا لا يعني أن "ويلا" كانت أمّاً سيئة له، أو أن والده كان أباً سيّئاً لبوبي، بل على العكس تماماً، ارتبط كلاهما بحِلْف متين، جعل زواجهما صلباً خالياً من المشاكل بصورة مذهلة، وكل منهما كان يتراجع خطوة إلى الخلف، لكي يمنح ابن الآخر فوائد الشكّ كلها. ومع ذلك، فقد كان هناك خطوط زائفة غير مَرئية، صدوع مايكروسكوبية، تُذكّرهما أنهما عائلة مركّبة، لا عضويّة. فاسم بوبي على سبيل المثال. ويلا كانت ويلا باركس، ولكن عائلة زوجها الأوّل الذي توفيّ بالسرطان وهو في السادسة والثلاثين، كانت نوردستروم، فكان بوبي يحمل هذا الاسم هو الآخر، ولأنه كان يحمل هذا الاسم طوال السنوات الأربع والنصف الأولى من حياته، كانت ويلا متردّدة في أن تُبدِّله إلى هيلر. أحسّتْ أن ذلك سيُربك بوبي، لكن الأصحّ أنها لم تستطع دَفْع نفسها إلى مَحو آخر آثار زوجها الأوّل الذي أحبّها، ومات دون ذنب منه، وحرمان ابنه من اسمه سيُشعرها أنها تقتله ثانية. كان الماضي إذن جزءاً من الحاضر، وشبح كارل نوردستروم كان الفرد الخامس في المنزل، روح غائبة

Tele: @Arab_Books

تركت أثرها على بوبي، الذي كان شقيقه وغير شقيقه في آن، ابناً وليس ابناً، صديقاً وخصماً. عاشا تحت سقف واحد، ولكنْ، وباستثناء حقيقة أن والدَيْهما زوجان، فلم تجمع بينهما الكثير من الأمور المشتركة. بل كانا، في الطباع والميول والتّطلّعات والسلوك، وبكل المقاييس التي تحدّد هوية المرء وشخصيّته، مختلفَيْن بعمق، وبصورة جذرية. ومع مرور السنوات، انجرف كلّ منهما إلى مداره الخاصّ، وبوصولهما إلى بداية المراهقة، لم تعد تتقاطع دروبهما إلا على مائدة العشاء، وفي النزهات العائلية. كان بوبي ألمعياً وفطناً ومرحاً، لكنه كان طالباً سيّئاً، يمقت المدرسة، وبسبب تهوّره وميله إلى افتعال المشكلات، فقد صُنّف على أنه مصدر إزعاج. وعلى النقيض منه، فإن أخاه لأبيه كان يحصل دوماً على أعلى العلامات في صفّه. كان هيلر انطوائياً، أمْيَلَ إلى الهدوء، ونوردستروم منطلقاً ومسعوراً، وكل منهما عَدّ أن الآخر يمضي في شؤون حياته في الاتّجاه الخطأ. ولزيادة الأمور سوءاً، فإن أمّ بوبي كانت تشغل كرسيّ الأستاذية في الأدب الإنجليزي في جامعة نيويورك؛ امرأة شغوفة بالكُتُب والأفكار، ولابدّ من أن ابنها كان يسمع بصعوبة بالغة ثناءها على هيلر، بسبب إنجازاته الدراسية، وغبطتها لقبوله في ستافسانت، والحديث معه خلال العشاء عن الوجودية السخيفة اللعينة. ببلوغه الخامسة عشرة، كان بوبي تحوّل إلى مُدمن حقيقي، أحد طَلَبَة الثانوية أولئك ذوو العيون الكابية الذين يتقيّؤون في حفلات نهاية الأسبوع، ويقومون بصفقات بيع مخدّرات صغيرة، لكي يوفّروا لأنفسهم المزيد من المال. هيلر المحافظ ونوردستروم السّيّئ، ولن يلتقي التوأمان أبداً. كانت الشجارات اللفظية اعتيادية بينهما، لكنّ الاحتكاك الجسدي توقّف، إلى حدّ كبير، بسبب أسرار الجينات. حين وجدا نفسَيْهما على تلك الطريق في بيركشيرز قبل اثني عشر عاماً، فإن هيلر ذا السّتّة عشر عاماً كان أقلّ بسنتيمترَيْن من السّتّة قامات، ووزنه مئة وسبعين باونداً. أما

Tele: @Arab_Books

نوردستروم، الآتي من سلالة أكثر هزالاً، فكان يبلغ خمسة قامات وثمانين، ووزنه مئة وخمسة وأربعين باونداً. فألغى انعدام التوازن بينهما احتمالات القتال المباشر كلها. لبعض الوقت الآن، كان كل واحد منهما ينتمي إلى فصيل مختلف عن الآخر.

ما كان موضوع جدالهما ذلك اليوم؟ أيّ كلمة أو جملة، أي سلسلة من الكلمات أو الجمل، أغضبتْه إلى هذا الحدّ حتّى فَقَدَ السيطرة على نفسه، ودفع بوبي، ورماه أرضاً؟ لا يتذكّر بوضوح. الكثير من الأشياء قيلت خلال ذلك الشجار، الكثير من الاتّهامات طارت بين الطرفَيْن، الكثير من الضغائن المكبوتة صعدت إلى السطح في هبّات كثيرة من العنف الانتقامي، بحيث لم يستطع تحديد العبارة المحدّدة التي أثارت ثائرته. بدأ الأمر بصورة محض طفولية. استياء من قِبَله جرّاء إهمال بوبي، مجرّد حماقة أخرى في سلسلة طويلة من الحماقات، كيف له أن يكون بهذا القَدْر من الحماقة واللامبالاة، انظر إلى الورطة التي وضعتْنا فيها الآن. أما بوبي، فانزعج من انفعال أخيه، بسبب مشكلة عارضة، واستقامته المزعومة، وتفوّقه الذي لطالما أزعجَهُ على مرّ السنين. أمور صبيانية، أمور مراهقين متهوّرين، لا شيء يدعو للقلق. ولكنْ، مع مواصلة تهجّمهما على بعضهما، وتحمية بوبي للقتال، وصل النزاع إلى مستوى أعمق وأكثر إيلاماً من المرارة، الوريد الأسفل من الدم السّيّئ. دخلت العائلة على الخطّ. بات الأمر كيف أن بوبي يمقت كونه المنبوذ بين الأربعة المقدّسين، كيف أنه لا يطيق قرب أمّه من مايلز، وكيف طفح به الكيل من العقاب الذي فرضه عليه مرّة بعد مرّة شخصان بالغان انتقاميان متحجّرا القلب، كيف أنه لا يحتمل سماع كلمة أخرى عن المؤتمرات الأكاديمية، وتفاصيل النشر، ولماذا هذا الكتاب أفضل من ذاك – سئم الأمر برمّته، سئم مايلز، سئم أمّه وزوج أمّه، سئم الجميع في هذا المنزل النتن، ولم يعد يطيق صبراً للرحيل إلى الجامعة الشهر

المقبل، وحتّى لو أنه تسرّب من الجامعة، فلقد انتهت علاقته بهم، ولن يعود ثانية. وداعاً، أيّها المغفلون. اللعنة على موريس هيلر وابنه اللعين. اللعنة على العالم اللعين برمّته. لا يتذكّر أيّ كلمة أو كلمات أفقدتْه صوابه. ربّما ليس مهماً معرفة ذلك، ربّما لن يكون ممكناً يوماً تذكُّر أيّ إهانة تلفّظ بها هذا الحاقد السّبّاب، كانت مسؤولة عن الدَّفْعة، ولكن المهم، الأهم من كل شيء آخر، هو معرفة ما إذا كان قد سمع السّيّارة آتية صوبهما أم لا، السّيّارة التي برزت فجأة بعد دخولها منعطفاً حادّاً بسرعة خمسين ميلاً بالساعة، حين كان قد فات الأوان على مَنْع حادث الصدم. ما يعرفه على وجه اليقين أنه وبوبي كان يصرخان بوجهَي أحدهما الآخر، وكان يطلب منه أن يتوقّف، أن يخرس، وطوال تلك المبارزة الكلامية كانا يواصلان السير على الطريق، غافلَيْن عن كل ما يحيط بهما، الغابة إلى يسارهما، والمرج إلى يمينهما، والسماء الضبابية فوقهما، والطيور المغرّدة في كلّ جيب من جيوب الهواء، عصافير الدوري والسمّن والدّخلة، هذا كله كان قد اختفى بحلول ذلك الوقت، ولم يبق سوى صراخهما العنيف. يبدو مؤكّداً أن بوبي لم يسمع صوت السّيّارة المقتربة – أو أنه لم يكن مكترثاً بها، بما أنه كان يمشي على كتف الطريق، ولم يشعر أنه في خطر. ولكنْ، ماذا عنكَ؟ يسأل مايلز نفسه. أكنتَ تعرف أم لا؟ كانت دفعة قوية حاسمة. أفقدت بوبي توازنه، وطرحته أرضاً، حيث ارتطم رأسه بالأسفلت. جلس تقريباً مباشرة، فاركاً رأسه وشاتماً، وقبل أن يتمكّن من النهوض على قَدَمَيْه، كانت السّيّارة تسحقه سَحْقَاً، مُستلّة الحياة منه، مُبدّلة حياتهما إلى الأبد.

هذا هو أوّل ما يرفض مشاركته مع بيلار. الأمر الثاني هو الرسالة التي وجّهها لوالدَيْه بعد خمس سنوات من وفاة بوبي. كان قد أنهى عامه الأوّل في براون، وبدأ يخطّط لقضاء الصيف في بروفيدنس، مشتغلاً بدوام جزئي كباحث لدى أحد أساتذة التاريخ (الليالي ونهايات الأسبوع

في المكتبة)، وبدوام كامل كعامل توصيل لمتجر أجهزة (تركيب أجهزة التكييف، وصل أجهزة التلفاز والثلاجات بعد إيصالها عبر سلالم ضيّقة). كانت فتاة قد دخلت مؤخّراً إلى الصورة، وبما أنها من سكّان بروكلين، فقد تغيّب عن عمله كباحث ذات عطلة أسبوع في يونيو، وقاد سيّارته إلى نيويورك لمقابلتها. كان ما يزال يملك مفاتيح شقّة والديه في داونينغ ستريت، وغرفة نومه القديمة ما تزال على حالها، ومنذ رحل إلى الجامعة كان الترتيب أنه يمكنه المجيء والذهاب كما يشاء، دون حاجة إلى الإعلان مسبقاً عن زياراته. بدأ في وقت متأخّر من يوم الجمعة بعد إنهاء عمله في متجر الأجهزة، ولم يدخل الشقة حتّى ما بعد منتصف الليل. كان والداه نائمَيْن. باكراً في الصباح التالي، أيقظتْه أصوات منبعثة من المطبخ. نهض من السرير، وفتح باب غرفته، ثمّ تردّد. كانا يتكلّمان بصوت أكثر ارتفاعاً وأشدّ توتّراً من ذي قبل، أحسّ عذاباً مُضمَراً في صوت ويلا، وإن لم يكونا يتشاجران تماماً (نادراً ما نشب شجار بينهما)، فقد كان ثمّة نقاش بالغ الأهمّيّة، شأن ضروري يتمّ التفاهم عليه أو التجادل بشأنه، أو إعادة فَحْصه، ولم يرد مقاطعتهما.

كان التّصرّف الأمثل أن يعود إلى غرفته، ويغلق الباب على نفسه. حتّى حينما وقف في الرواق، وأصاخ السَّمْع إليهما، عرف أنه لا يحقّ له التواجد هناك، وأنه يجدر به الانسحاب، لكنه لم يستطع مَنْع نفسه، فقد استبدّ به الفضول لمعرفة ماذا يجري، وبالتالي ظلّ واقفاً في مكانه، وللمرّة الأولى في حياته، اختلس السَّمْع إلى محادثة خاصّة بين والدَيْه، ولأن معظم الحديث كان عنه، فقد كانت المرّة الأولى التي يسمعهما أو يسمع أيّ أحد يتكلّم عليه من وراء ظهره.

إنه مختلف، كانت ويلا تقول. ثمّة غضب وبرود فيه يخيفانني، وأكرهه لما فعله بكَ.

Tele: @Arab_Books

لم يفعل بي شيئاً، أجاب والده. ربّما ما عدنا نتكلّم كما في السابق، لكنّ هذا طبيعيّ. إنه في الحادية والعشرين تقريباً، ولديه حياته الخاصّة الآن.

يجب أن تكونا مُقرَّبَيْن من أحدكما الآخر. هذا أحد الأسباب التي جعلتْني أُغرم بكَ – بسبب درجة حبّكَ لذلك الصبي الصغير. أتذكر البايسبول موريس؟ أتذكر تلك الساعات التي أمضيتَها في الحديقة وأنتَ تُعلّمه التسديد؟

الأيّام الخوالي الذهبية.

وكان جيّداً أيضاً، صح؟ أعني جيّداً بحقّ. مسدّد كرات مبتدئ في سنته الثانوية الثانية. بدا سعيداً بذلك. ثمّ غيّر رأيه، وترك الفريق في الربيع التالي.

الربيع الذي تلا موت بوبي، أتذكر؟ كان مضطرباً بعض الشيء حينئذ. جميعاً كنّا كذلك. لا يمكنكِ لومه على عدم رغبته في مواصلة لعب البايسبول، كان هذا شأنه. تتكلّمين على ذلك، وكأنه كان يحاول معاقبتي. لم أشعر كذلك لوهلة.

كان ذلك حين بدأ بمعاقرة الخمر، صح؟ لم نكتشف ذلك إلا لاحقاً، لكنني أظنّ أنه بدأ حينئذ. الشراب والتدخين وأولئك الفتية المجانين الذين كان يتسكّع معهم.

كان يحاول تقليد بوبي. ربّما لم يتّفقا جيّداً، لكنني أظنّ أن مايلز أحبّه. ترى شقيقكَ يموتُ، وجزء منكَ يرغب في أن يكون مثله.

بوبي كان فتى بلا هموم. كان مايلز هو ملاك الموت.

Tele: @Arab_Books

أعترف بأنه كان ثمّة قدر من الحداد في حياته. لكنه لطالما أبلى حسناً في المدرسة. أيّاً تكن الظروف، لطالما أفلح في تحقيق نتائج جيّدة في المدرسة.

إنه فتى لامع، لن أجادل في ذلك. لكنه بارد، موريس. مُفرَّغ من الداخل، ويائس. تصيبني القشعريرة حين أفكّر في مستقبله ...

كم مرّة تكلّمنا على ذلك؟ مئة مرّة؟ ألف مرّة؟ تعرفين قصّته بقدر ما أعرفها. الولد بلا أمّ. ماري لي هجرتْنا حين كان مايلز في شهره السادس، وحتّى مجيئكِ، تولّتْ تربيتَه إدنا سمايث، الأسطورية المشعّة إدنا سمايث، ومع ذلك، فقد كانت مجرّد مربّية، كانت مجرّد وظيفة، ما يعني أنه بعد تلك الأشهر السّتّة لم تكن له أمّ حقيقية حقّاً. وبوقت دخولكِ إلى حياته، كان قد فات الأوان على الأرجح.

إذن أنتَ تفهم عمّ أتكلّم؟

بالطبع، أفهم، ولطالما فهمتُ.

لم يحتمل سماع المزيد. كانا يُقطّعانه أشلاء، يقطّعان أوصاله بذلك البرود والحذق، ويتكلّمان عنه كأنه جثّة على مشرحة الأطبّاء. انسلّ عائداً إلى غرفته، وأغلق الباب بهدوء. لم تكن لديهما فكرة عن مدى حبّه لهما. طوال خمس سنوات، كان يعيش مع ذكرى ما فعله بأخيه على الطريق في ماستشوستس، ولأنه لم يُخبر والدَيْه يوماً عن الدَّفْعة ومدى عمق العذاب الذي يعيشه بسببها، فقد فسّرا إحساسه العارم بالذنب على أنه نوع من المرض. ربّما كان مريضاً، ربّما أعطى الانطباع بأنه شخص بارد بائس، لكنّ هذا لا يعني أنه انقلب ضدّهما. ويلا المركّبة المتوتّرة الشديدة الكَرَم؛ والده الأليف طيّب القلب - كره نفسه لأنه تسبّب لهما

Tele: @Arab_Books

بكل هذا الأسى، كل هذا الحزن غير الضروري. باتا ينظران إليه الآن وكأنه ميّت يمشي على قَدَمَيْن، شخص بلا مستقبل، وبينما جلس على السرير متخيّلاً شبح ذلك المستقبل معدوم الأفق يلوح أمامه، أدرك أنه ليست لديه الجرأة لمواجهتهما ثانية. ربّما الحلّ الأفضل للجميع هو أن يُخرِج نفسه من حياتهما، أن يختفي.

والداي العزيزان، كتب لهما في اليوم التالي. سامحاني على قراري المباغت هذا، ولكنْ، بعد أن أنهيتُ عاماً آخر في الكُلّيّة، أجد نفسي مُرهَقَاً من الدراسة، وأريد أن آخذ إجازة لفصل الخريف، وإذا اتّضح لي أن ذلك غير كاف، فسوف أمدّد ذلك إلى فصل الربيع أيضاً. أعتذر إذا كان ذلك يخيّب أملكما. الجانب الوحيد المضيء في الموضوع هو أنكما لن تقلقا على دَفْع تكاليف دراستي لبعض الوقت. ولا حاجة إلى القول إنني لا أتوقّع منكما أيّ مال. لديّ عمل، وسوف أتمكّن من إعالة نفسي. غداً سوف أغادر لوس أنجليس لزيارة أمّي لأسبوعَيْن. بعد ذلك، ما إن أستقرّ حيثما ينتهي بي الأمر، فسوف أتّصل بكما. عناقات وقُبل لكما الاثنان. مايلز.

صحيح أنه غادر بروفيدنس صبيحة اليوم التالي، لكنه لم يقصد كاليفورنيا لزيارة أمّه. استقرّ في مكان ما. وعلى امتداد ما ينيف عن سبع سنوات، تنقّل بين عدد كبير من العناوين الجديدة، لكنه لم يتّصل بهما بعد.

Tele: @Arab_Books

٣

إنه العام ٢٠٠٨، الأحد الثاني من نوفمبر، وهو مستلق في السرير مع بيلار متصفّحاً موسوعة البايسبول بحثاً عن أسماء غريبة مضحكة. لقد فعلا ذلك مرّة أو اثنتَيْن في السابق، وهو يُثمِّن عالياً أنها تستطيع رؤية الجانب المرح في هذا المشروع العَبَثي، أن تفهم الروح الديكنزية الموجودة داخل الصفحات الألفَيْن وسبعمائة من النسخة المنقّحة والمحدّثة والموسّعة لعام ١٩٨٥، والتي اشتراها لقاء دولارَيْن من متجر للكُتُب المستعملة الشهر الماضي. وهذا الصباح يبحث بين مسدِّدي الكرات، بما أنه ينجذب دوماً إليهم أوّلاً، وسرعان ما يقع على أوّل لقية واعدة لليوم. بوتس بوفنبرغر، بيلا تشدّ وجهها محاولة كَتْم ضحكتها، ثمّ تغمض عينَيْها، ثمّ تحبس أنفاسها، لكنها لا تعود قادرة على المقاومة لأكثر من ثوان معدودات. الهواء يخرج منفجراً منها في إعصار من الوعوعة والصراخ والقهقهات المتفرّقة. حين تنتهي نوبة الضحك، تخطف الكتاب من يده، متّهمة إيّاه باختلاق الاسم. يقول: لن أفعل ذلك البتّة. ألعاب كهذه ليست طريفة، ما لم يأخذها المرء على محمل الجدّ.

وها هو، وسط الصفحة ١٩٧٧: كليتوس إلوود "بوتس" بوفنبرغر، وُلد في ١ يوليو ١٩١٥، في وليامسبورت، ماريلان، لاعب باليد اليمنى، بقامة خمسة أقدام وعشرة إنشات، يتضمّن سجلّه ستّة عشر فوزاً، واثنتَي عشرة خسارة.

Tele: @Arab_Books

يواصل القراءة: وامي دوغلاس، ساي سلابنيكا، نودلز هان، ويكي ماكفوي، ويندي ماكال، وبيلي ماكول. لدى سماعها هذا الاسم الأخير بيلي تتأوّه افتتاناً، وطوال فترة الصباح، لا يعود اسمه مايلز. إنه بيلي ماكول، حبيبها الرائع بيلي ماكول، نجم الفريق، بطلها.

في الحادي عشر من الشهر، يقرأ في الصحيفة أن هيرب سكور توفيّ. إنه أصغر عمراً من أن يكون شاهد إحدى مبارياته، لكنه يتذكّر القصّة التي أخبره إيّاها والده عن ليلة ٧ مايو ١٩٥٧، عندما أصابت ضربة مباشرة من لاعب اليانكي جيل ماكوغلاد سكور في وجهه مباشرة، ووضعت حدّاً لإحدى أكثر المسيرات المهنية إثارة للاهتمام في تاريخ البايسبول. وفقاً لوالده الذي كان في العاشرة من عمره في ذلك الحين، كان سكور أفضل رام باليد اليسرى عرفتْه اللعبة، وربمّا كان أفضل من كوفاكس حتّى، الذي كان يمارس الرمي أيضاً، لكنه لم يحقّق مجده إلا بعد سنوات من ذلك. الحادثة وقعت بعد شهر بالتمام قبل عيد ميلاد سكور الرابع والعشرين. كان ذلك موسمه الثالث مع كليفلاند إنديانز، بعد أدائه الذي حاز عليه لقب أفضل لاعب مبتدئ لعام ١٩٥٥ (١٦-١٠[*]، ٢,٨٥ معدّل الركض، ٢٤٥ رمية) وحتّى أداء أفضل في العام التالي (٢٠-٩، ٢,٥٤ معدّل الركض و٢٦٣ رمية). ثمّ جاء دور ماكدوغال في الرمي في تلك الليلة الربيعية الباردة في ملعب مونسيبال. أطاحت الكرة سكور أرضاً، وكأنه أُصيب بطَلْق ناري (كما قال والده)، وبينما تمدّد هامداً في الملعب، كان الدم يسيل من أنفه وفمه وعينه اليمنى. وقد كُسر أنفه، لكن الأسوأ من ذلك كانت إصابة العين، التي كانت تنزف بشدّة، إلى درجة أن الجميع خشي من أنه سيفقدها، أو سيُصاب بالعمى مدى الحياة. في قاعة اللاعبين بعد

*) بلغة البايسول، يشير الرّقْم الأوّل إلى الضربات التي يصدّها اللاعب، والرَّقْم الثاني إلى الرميات التي يُسدّدها

Tele: @Arab_Books

المباراة، أطلق ماكدوغال، في خضمّ اضطرابه، بأنه سيتقاعد في حال فَقَدَ هيرب الإبصار في تلك العين. أمضى سكور ثلاثة أسابيع في المستشفى، وفاته بقية الموسم، بسبب تشوُّش نظره، وصعوبات إدراك العُمق البصري، لكنّ عينه شُفيت في نهاية المطاف. إلا أنه حين حاول العودة في الموسم التالي لم يعد الرامي الذي كان عليه. تلك اللسعة التي ميّزت كرته السريعة ماتت، صار يلعب بوحشية، ولم يعد قادراً على تسديد الرميات التي من شأنها إخراج لاعب خصم. كافح لخمس سنوات، لم يفز خلالها إلا بسبع عشرة مباراة في سبع وخمسين مباراة، ثمّ حزم حقائبه، وعاد إلى دياره.

وإذ قرأ النَّعْي في نيويورك تايمز، ذُهل لمعرفته أن سكور كان رجلاً ملعوناً منذ البداية، أن حادث العام ١٩٥٧ لم يكن الوحيد في حياته. بحسب كلمات كاتب النَّعْي ريتشارد ولدستين: حين كان سكور في الثالثة، صدمتْه عربة نقل الخبز، وهو ما أدّى إلى إصابات خطرة في قَدَمَيْه. وقد فاته عام دراسيّ، بسبب إصابته بالحمّى الروماتيزمية، وكسر كاحلاً حين وقع أرضاً في غرفة خزانات مبلّلة الأرضية، وخلع كتفه الأيسر حين وقع على ملعب في بداية حياته المهنية مع الفِرَق الصغيرة. هذا ناهيكَ عن جرحه ذراعه اليسرى خلال عام العودة عام ١٩٥٨، وتعرّضه لإصابة خطيرة في حادث سير عام ١٩٩٨، ومعاناته سكتة دماغية في ٢٠٠٢، والتي لم يتعافَ منها كُلّيّاً. لا يبدو ممكناً لرجل أن يصادف هذا القَدْر من الحظّ العاثر في حياة واحدة. أحسّ مايلز برغبة شديدة للاتّصال بوالده، والتّكلّم إليه عن هيربرت جود سكور، وظُلم الأقدار، وغرابة الحياة، والممكن وغير الممكن، كل الأمور التي اعتاد التّكلّم عليها قبل زمن طويل، لكنْ، الآن ليس الوقت المناسب، إن كان من وقت أساساً. فلا يجب أن يبدا بمخابرة بعيدة، وبالتالي يُطفئ هذه الرغبة، متمسّكاً بالقصّة حتّى يرويها لبيلار ثانية في مساء ذلك اليوم.

Tele: @Arab_Books

بينما يقرأ لها النَّعْي، يروّعه الحزن الذي يكسو وجهها، عمق الابتئاس المنبعث من عينَيْها، شفتَيْها المرتخيَتَيْن، الانحناء الكئيب لكتفَيْها. لا يمكنه أن يكون متيقّناً، لكنه يتساءل ما إذا كانت تفكّر بوالدَيْها وموتهما المفاجئ والرهيب، الحظّ العاثر الذي أخذهما منها حينما كانت بمساس الحاجة إليهما، فيندم على طرح الموضوع، ويخجل من نفسه، لأنه تسبّب لها بهذه الأذية. ولكي يرفع معنوياتها، يرمي الصحيفة جانباً، ويبدأ بقصّة أخرى من قصص كثيرة، كان والده يخبره إيّاها، ولكن هذه القصّة خاصّة، بل كانت بمثابة فولكلور في المنزل لسنوات، ويأمل أنها سوف تزيل الغمّ عن عينَيْها. لاكي لهوركي، يقول. هل سمعتِ به قطّ؟ لا، بالطبع لا، تجيب، مفرجة عن ابتسامة خفيفة لوَقْع الاسم. لاعب بايسبول آخر؟ أجل، يجيب، ولكنه ليس بالمميّز جدّاً. كان لاعباً متعدّد المهارات الدفاعية مع الجيانتس وفيليز(*) في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات، مسيرة تضمّنت ٢٤٠ تسديدة، ليس فيها ما يثير الاهتمام على نحو خاصّ، لولا حقيقة أن هذا الرجل جاك لوهركي، المعروف باسم لاكي، هو التجسيد الأسطوري للنظرية التي تؤكّد أنه ليس كل الحظّ حظّاً عاثراً بالضرورة. فكّري بهذا، يقول. بينما كان يخدم في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية لم ينجُ فحسب خلال يوم الإنزال والغزو ومعركة الثغرة(**)، ولكنْ، عصر يوم من الأيّام، في خضمّ المعركة، كان يزحف في ميدان المعركة مع أربعة من رفاقه، اثنان على كل جانب، حين انفجرت قنبلة. الجنود الأربعة لقوا مصرعهم على الفور، لكن

---

*) فريقان بايسبول أمريكيان شهيران، الثاني اختصار لفليدلفيا فيليز

**) معركة الثغرة معروفة عالمياً بمسمّاها الشعبي (بالإنجليزية: The Battle of the Bulge)، وتُعرف أيضاً بمعركة الأردين، أو هجوم الأردين(بالإنجليزية: The Ardennes offensive)، وهي هجوم ألماني رئيس على جبهتهم الغربية في الأردين استمرّ من ١٦ ديسمبر ١٩٤٤ وحتّى ٢٥ يناير ١٩٤٥. حدثت هذه المعركة في نهايات الحرب العالمية الثانية. وقد أطلق عليها الألمان اسم (عملية مراقبة نهر الراين). وسمّاها الأمريكيون معركة الأردين. ولكن الناس عرفوها ببساطة بمعركة الثغرة (المصدر: ويكيبيديا).

Tele: @Arab_Books

لوهركي خرج من الانفجار دون أن يُصاب بخدش. واسمعي هذه القصّة أيضاً، يواصل، تنتهي الحرب، ولاكي يستعدّ لركوب طائرة، ستعود به إلى الديار في كاليفورنيا. في اللحظة الأخيرة، يأتي رائد أو كولونيل، ويرفع رتبته في وجهه، ويأخذ منه مقعده، فلا يتمكّن لاكي من السفر. تُقلع الطائرة، تسقط، وكل مَن عليها يلقى حتفه.

أهذه قصّة حقيقية؟ تسأله بيلار.

مئة بالمئة. إذا لم تصدِّقيني، ابحثي عنها.

أنت تعرف أغرب القصص، مايلز.

انتظري، لم تنته القصّة بعد. إنه العام ١٩٤٦، ولاكي عاد من الساحل الغربي، ويلعب البايسبول مع الفِرَق الكبرى. فريقه على الطريق، ينتقل بالحافلة. يتوقّفون في مكان ما لتناوُل الغداء، ويأتي اتّصال من المدير، يخبر فيه لاكي بأنه رُقّي إلى فرقة أكبر، وعليه أن ينضمّ فوراً إلى الفريق الجديد، ولذا بدلاً من أن يعود إلى الحافلة مع فريقه القديم يجمع حاجياته، ويسافر متطفّلاً مع السّيّارات العابرة إلى الديار. تواصل الحافلة طريقها، الرحلة طويلة، ساعات وساعات من القيادة، وفي منتصف الليل، يبدأ المطر بالهطول. إنهم في أعالي الجبل، في مكان ما محاطين بالظلمة والماء والسائق يفقد السيطرة على مقود القيادة، وإذا بالحافلة تنحرف عن الطريق، وتسقط في الوادي، ويُقتل تسعة لاعبين. فظيع. ولكن رجلنا الصغير نجا مرّة أخرى. فكّري في الاحتمالات بيل. الموت يأتيه ثلاث مرّات، وثلاث مرّات يتمكّن من الفرار منه.

لاكي لوهركي، تهمس. أما يزال على قيد الحياة.

أظنّ ذلك. لابدّ من أنه الآن تجاوز الثمانينيات، ولكنْ، أجل، أظنّ أنه ما يزال معنا.

Tele: @Arab_Books

بعد بضعة أيّام من ذلك، تصل اختبارات "السات" الخاصّة بها. الأخبار جيّدة، بل ربّما أفضل ممّا كانت تتوقّع. ومع سلسلة درجاتها العالية في الثانوية، وهذه النتائج، يصبح واثقاً من أنها ستُقبَل في أيّة جامعة تتقدّم عليها. متجاهلاً قسمه حول عدم تناول الطعام في المطاعم يصحبها إلى عشاء احتفالي في الليلة التالية، ويكابد طوال الوقت، لكيلا يلمسها أمام الناس. إنه شديد الفخر بها، يقول، ويريد أن يقبّل كل جزء من جسدها، أن يلتهمها التهاماً. يناقشان الاحتمالات المختلفة أمامها، ويحثّها على التفكير في مغادرة فلوريدا، والانتساب إلى إحدى جامعات الأيفي ليغز في الشمال، لكنّ بيلار متردّدة في التفكير بخطوة كهذه، لا يمكنها أن تتخيّل نفسها بعيدة إلى هذا الحدّ عن شقيقاتها. لا تعرفين، يقول لها، يمكن أن تتغيّر الأمور من الآن وحتّى ذلك الحين، ولن تضرّكِ المحاولة – فقط لتري إذا كانوا سيقبلونكِ هناك. أجل، تجيبه، لكن الطَّلَبَات مُكلفة، وليس من المنطقي تبذير المال هكذا بلا طائل. لا تقلقي بشأن المال، يجيبها. سوف يسدّد المبلغ. يجب ألا تقلق من أيّ شيء.

بحلول نهاية الأسبوع التالي، تكون غارقة تماماً في الطَّلَبَات. ليس فقط لجامعات الولاية في فلوريدا، ولكنْ، جامعات برنارد وفاسار وديوك وبرينستون وبراون أيضاً. تملأ الطَّلَبَات جميعها، تؤلّف المقالات المطلوبة جميعها (التي يقرؤها، لكنه لا يُعدّل فيها، أو يُصحّحها، بما أن هذا ليس مطلوباً)، ثمّ يعودان إلى حياتهما المعتادة، قبل أن يبدأ جنون الجامعة. لاحقاً ذلك الشهر، يتلقّى رسالة من صديق قديم من نيويورك. بينغ ناثان، هو الشخص الوحيد من ماضيه الذي ما يزال يراسله، الوحيد الذي عرف كل واحد من عناوينه العديدة على مرّ السنين. في البداية، أربكه استعداده للقيام بهذا الاستثناء لبينغ، ولكنْ، بعد مضي ستّة أو ثمانية شهور على رحيله، فهم أنه لا يستطيع أن ينقطع كُلّيّاً، وأنه بحاجة ولو إلى صلة واحدة مع

Tele: @Arab_Books

حياته السابقة. لم تكن تربطه صداقة وثيقة به، وحقيقة الأمر أنه يجده مزعجاً بعض الشيء، وفي بعض الأحيان، مقيتاً، ولكن بينغ مُولَع به، ولسبب ما، فقد احتفظ في عينَيْه بموقع رفيع، وهذا يعني أنه يمكن الوثوق به، والاتّكال عليه لإعلامه بأيّ تغيير يطرأ مع عائلته في نيويورك. هذا هو لبّ الموضوع. بينغ هو مَنْ أخبره بموت جدّته، وبكسر والده لِرجْله، وعملية العين التي أجرتها ويلا. والده في الثانية والسّتّين الآن، وويلا في السّتّين، ولن يعيشا إلى الأبد. بينغ على السمع دوماً. إذا حصل شيء لأحدهما، فسوف يكون على الهاتف خلال دقيقة.

يخبره بينغ أنه يعيش الآن في منطقة من بروكلين، تُدعى "صانست بارك". في منتصف أغسطس، قام ومجموعة من الناس بالاستيلاء بوَضْع اليد على منزل صغير مهجور في شارع يقع قبالة مقبرة غرينوود، وقد سكنوا البيت كمُحتلّين بوَضْع اليد منذ ذلك الحين. لأسباب غير معلومة، ما تزال الكهرباء والتدفئة متوفّرَتَيْن في البيت. وهذا يمكن أن يتغيّر في أيّ لحظة بالطبع، ولكنْ، في الوقت الحالي يبدو أنه ثمّة خَلَل في النظام، ولم تأت شركتا "كون إد" و"ناشيونال غريد" لقَطْع الخدمات. صحيح أن الحياة متقلقلة، وصباح كل يوم يستيقظون على تهديد الإخلاء بالقوّة، ولكنْ، مع رزوح المدينة تحت ضغط الأزمة الاقتصادية، فإن الكثيرين فقدوا وظائفهم الحكومية، ويبدو أن هذه المجموعة الصغيرة في صانست بارك تُحلّق تحت رادار البلدية، ولم يأتِ أيّ شرطي أو مأمور ليُبلغهم بقرار الطرد. بينغ لا يعرف إذا كان مايلز مستعدّاً للتغيير، لكن أحد أعضاء المجموعة غادر المدينة أخيراً، وثمّة غرفة شاغرة، إذا كان يرغب في ذلك. الساكن السابق كان يُدعى ميلي، وللحلول مكانه، يبدو مايلز مناسباً أبجدياً، قال له. متناسق أبجدياً، مثال آخر على ألمعية بينغ، والتي لم تكن يوماً من صفاته الحميدة، ولكن العرض يبدو صادقاً، وبينما يواصل بينغ وصف بقية

Tele: @Arab_Books

المقيمين في البيت (رجل وامرأتان، كاتب، فنّان، وطالب متخرّج، كلهم في نهاية العشرينيات، كلهم فقراء ومكافحون، كلهم يتمتّعون بالثقافة والموهبة)، من الواضح أنه يحاول أن يجمّل له مسألة الانتقال إلى صانست بارك. ويختم بينغ رسالته بأنه حسب علمه، فإن كل شيء على ما يرام فيما يخصّ والده، وأن ويلا سافرت إلى إنجلترا في سبتمبر، حيث ستمضي العام الأكاديمي هناك كأستاذة زائرة في جامعة إكستر. وفي ملحوظة ختامية قصيرة، يضيف: فكّر بالموضوع.

هل يريد العودة إلى نيويورك؟ هل حانت اللحظة أخيراً لكي يعود الابن الضالّ إلى دياره، ويعيد جمع شتات حياته من جديد؟ قبل ستّة أشهر ما كان ليتردّد على الأرجح. حتّى قبل شهر واحد، ربّما كان ليُغريه التفكير في الأمر، أما الآن، فالأمر غير وارد. بيلار هيمنت على قلبه، ومجرّد التفكير في الرحيل من دونها لا يُحتمَل بالنسبة إليه. بينما يطوي رسالة بينغ، ويعيدها إلى المظروف، يشكر بصمت صديقه لتوضيحه الموضوع بعبارات جلية كهذه. لا شيء يهمّ الآن سوى بيلار، وفي الوقت المناسب، أي حين يمرّ المزيد من الوقت، وتبلغ عيد ميلادها التالي، سوف يعرض عليها الزواج. ليس بالواضح البتّة ما إذا كانت ستوافق، ولكنه عاقد العزم على أن يسألها. هذا هو ردّه على رسالة بينغ. بيلار.

المشكلة أن بيلار ليست مجرّد بيلار. إنها فرد من عائلة سانشيز، وحتّى إذا كانت علاقتها بأنجيلا متوتّرة نوعاً ما في الوقت الحالي، فإن ماريا وتريزا ما تزالان مقرَّبَتَيْن منها كما دائماً. الشقيقات الأربع ما يزلنَ حزينات على فقدان والدَيْهنّ، ومهما بلغت قوّة علاقتها به، فإن عائلتها ما تزال تأتي في المقام الأوّل. بعد أن انتقلت للعيش معه في يونيو نسيت كم، كانت مُصمّمة على الطيران من العشّ. غدت مسكونة بالحنين للأيّام الخوالي، ولا يمرّ يوم من دون أن تعرج لزيارتهنّ في البيت مرَّتَيْن على

Tele: @Arab_Books

الأقلّ. لا يتدخّل في الأمر، ويرافقها نادراً فقط، وبأقلّ قدر ممكن. ماريا وتريزا مهذّبَتَان وثرثارَتَان غير مؤذيَتَيْن، وصُحبتهما لا بأس بها، وإن كانت تغدو مضجرة بعد أكثر من ساعة، وأنجيلا التي ليست إلا فتاة مضجرة، تحتكّ به بالطريقة الخطأ. لا يحبّ كيف تواصل الحملقة به، مُتفحّصة إيّاه بذلك المزيج الغريب من الازدراء والإغواء، وكأنها لا تُصدّق أن شقيقتها الصغيرة قد حصلتْ عليه – لا لأنه لديها أيّ اهتمام به (كيف لأيّ كان أن يهتم بعامل تنظيفات متّسخ مثله؟)، ولكنْ، في مبدأ الأمر، بما أن المنطق يقول إنه يجدر به أن ينجذب إليها، المرأة الحسناء، التي وظيفتها في الحياة أن تكون رائعة، وتوقع الرجال في حبائلها. وهذا سيّئ بما فيه الكفاية، لكنه ما يزال يحمل أيضاً ذكرى الرشى التي دفعها لها الصيف الماضي، الهدايا التي لا تُحصى التي أمطرها بها كل يوم طوال أسبوع كامل، وحتّى لو كان هذا كله لهدف جيّد، فإنه لم يستطع مَنْع نفسه من الإحساس بالغضب من جَشَعها، ومن جوعها الدائم لتلك الأشياء الغبية البشعة.

يوم السابع والعشرين يسمح لبيلار بأن تُقنعه بمرافقتها إلى منزل أسرتها لتناوُل عشاء عيد الشكر. ورغم قناعته بأنها ستكون خطوة خاطئة، لكنه يريد إسعادها، ويعرف أنه إذا لم يرافقها، فلن يفعل شيئاً سوى أن يجلس متجّهماً في الشّقّة، بانتظار عودتها. خلال الساعة الأولى، يمضي كل شيء على ما يرام، ويُفاجأ بأنه في حقيقة الأمر يمضي وقتاً ممتعاً. وبينما تقوم الفتيات الأربع بإعداد العشاء في المطبخ، يخرج مع حبيب ماريا، وهو ميكانيكي في الثالثة والعشرين يُدعى ميكي، إلى الباحة الخلفية، لكي يرعيا الطفل كارلوس في أثناء لعبه. اكتشف أن إيدي هذا من مشجّعي البايسبول، وهو على اطّلاع واسع باللعبة، وبعد موت هيرب سكور مؤخّراً، يخوضان حديثاً حول المصائر المأساوية لمختلف اللاعبين منذ عقود خلت.

Tele: @Arab_Books

يبدآن بداني ماكلاين من فريق ديترويت تايغرز، آخر لاعب يفوز بثلاثين مباراة، ولا ريب في أنه آخر مَن سيحقّق مثل هذا الرَّقْم، وهو الرامي الأوّل في أمريكا بين ١٩٦٥ و١٩٦٩، والذي دُمّرت حياته المهنية بسبب إدمانه القهري على القمار، وميله لاختيار رجال العصابات كأصدقاء مقرّبين له. وكان قد خرج من المشهد ببلوغه الثامنة والعشرين، ليدخل بعدها إلى السجن بتُهم تهريب المخدّرات والاحتيال والابتزاز، ويبدأ بالأكل بنَهَم حتّى يغدو عملاقاً بوزن ثلاثمائة وثلاثين باوندا، ثمّ يعود إلى السجن، حيث يقضي ستّ سنوات في التسعينات لسرقته مليونيَ ونصف المليون دولار من صندوق تعويضات الشركة التي كان يعمل فيها.

لقد كان الجاني على نفسه، يقول إيدي، لذا لا أستطيع الشعور بالشفقة عليه. ولكنْ، فكِّرْ في لاعب مثل بلاس. ما الذي حصل له، بحقّ الجحيم؟

كان يشير إلى ستيف بلاس، الذي لعب لصالح فريق بتسبرغ بايرتس بين منتصف السّتّينيّات ومنتصف السبعينيات، وهو دائم التحقيق للأرقام الثنائية، ونجم الرماية في بطولة العام ١٩٧٢، والذي أمضى أفضل موسم له عام ١٩٧٢ (١٩-٨، ٢,٤٩، كمعدّل ركض) ثمّ، بعد انتهاء ذلك الموسم، في اليوم الأخير من العام، قُتل زميله روبرتو كليمنتي الذي حلّ بعده في قائمة المشاهير المكرمين، في تحطّم طائرة في طريقه لتوصيل معونات إغاثة لناجين من زلزال في نيكاراغوا. في الموسم التالي، لم يعد بلاس قادراً على التسديد، وفَقَدَ قدراته السابقة على السيطرة، وصار ينتقل من ضارب لآخر، وانخفض سجلّه إلى ٣-٩، مع نسبة ٩,٨٥ كمعدّل ركض. حاول مجدّداً في العام التالي، ولكنْ، بعد مباراة واحدة، ترك اللعب نهائياً. أكان موت كليمنتي المسؤول عن انحدار بلاس المفاجئ؟ لا أحد يعرف

Tele: @Arab_Books

على وجه اليقين، ولكنْ، بحسب إيدي، فإن معظم الناس في أوساط لعبة البايسبول يميلون إلى الاعتقاد بأن بلاس كان يعاني من شيء يُسمّى عقدة ذنب الناجي، وأن حبّه لكليمنتي كان كبيراً جدّاً، بحيث إنه ببساطة لم يستطع الاستمرار بعد مَقْتل صديقه.

على الأقل، بلاس حظي بسبع أو ثماني سنوات جيّدة، يقول مايلز. فكِّرْ بالمسكين مارك فدريتش. آه، يجيب إيدي، مارك "الطائر" فدريتش، ويسترسل الاثنان في تقريظ الحياة المهنية القصيرة واللامعة لهذا اللاعب الرائع الذي خرج من العَدَم، وأذهل البلاد في غضون أشهر أسطورية قليلة، الفتى البالغ من العمر ٢١ عاماً الذي ربّما كان الأكثر شعبية في تاريخ اللعبة. لا أحد رأى مثله من قبل – رام يكلّم الكرة، ويركع على ركبته، ليسوي التربة على ربوة الرماية(*)، والذي عنايته هذه بالتفاصيل، زاد منها نوبات من الطاقة العصبية المحمومة – ليس إنساناً بقدر ما أنه آلة ذاتية الدفع على هيئة إنسان. في موسم واحد كان المهيمن: ١٩-٩، ومعدّل ركض بلغ ٢,٣٤، بدأ رامياً في الدوري الأمريكي في مباراة حافلة بالنجوم، وكان نجم العام. بعد أشهر قليلة، أُصيب غضروف ركبته خلال تدريبات الربيع، ثمّ، أسوأ من ذلك، أصيب بمزق في كتفه عند بداية الموسم الاعتيادي. ذراعه شُلّت تماماً، وهكذا بكل بساطة، رحل الطائر – من رام إلى رام سابق، بطرفة عين.

أجل، يقول إيدي، حالة محزنة، ولكنْ، لا شيء يُقارَن بما جرى لدوني مور.

لا، شيء يضاهي تلك الحالة، يقول مايلز مومئاً برأسه تأييداً.

(*) Pitcher's mound: الرقعة الترابية التي يقف عليها الرامي لتسديد الكرات في لعبة البايسبول

Tele: @Arab_Books

يبلغ من العمر ما يكفي ليكون قد عاش تفاصيل القصّة بنفسه، ويتذكّر التعبير المصدوم في عينَي والده حين رفع نظره من الصحيفة خلال تناوُل الإفطار قبل عشرين عاماً، وأعلن أن مور قد توفيّ. دوني مور، الرامي البديل مع فريق كاليفورنيا أنجلز، الذي تمّ إدخاله في الشوط التاسع من المباراة مع بوسطن ريد سوكس في المباراة الخامسة من دوري العام ١٩٨٦. كان الأنجلز متقدّمين بجولة، وعلى شفير الفوز بأوّل بطولة لهم، ولكنْ، مع تسديدَتَيْن ضائعَتَيْن ووجود عدّاء واحد باق في القاعدة الأولى، سدّد مور أسوأ الكرات في تاريخ اللعبة – تلك التي قلبت مسار المباراة، وأدّت إلى هزيمة فريقه. لم يتعافَ ميلر من الإذلال، بعد ثلاث سنوات من رَمْيه تلك الكرة، وكان حينذاك بات خارج اللعبة، واقعاً تحت وطأة المشكلات المالية والعائلية، وربمّا فاقداً عقله، خاض مور شجاراً مع زوجته بحضور أطفالهما الثلاثة. استلّ بندقية، وأطلق ثلاث رصاصات على زوجته، لم تؤدّ لمقتلها، ثمّ فجّر رأسه بالبندقية.

نظر إيدي إلى مايلز، وهزّ رأسه غير مُصدِّق. لا أفهم، قال، ما فعله لم يكن أسوأ ممّا فعله برانكا حين رمى تلك الكرة لتومسون في بطولة العام ١٩٥١. لكن برانكا لم يقتل نفسه، أليس كذلك؟ هو وتومسون ما يزالان يحتفظان بصداقتهما حتّى الآن، ويجوبان البلاد معاً، ويُوقّعان الكرات للمعجبين، وكلّما رأيتُ صورة لهما، تجدهما يتبادلان الابتسامات، أبلهان عجوزان، لا يباليان بشيء في العالم. لماذا ليس دوني مور هناك يوقّع الكرات مع هندرسن بدلاً من أن يكون في قبر؟!

رفع مايلز كتفَيْه. الأمر يتعلّق بالشخصية، يقول. كل رجل لديه شخصية مختلفة عن الآخر، وعندما تقع المشكلات، كل إنسان يتفاعل معها على طريقته الخاصّة. مور انهار. برانكا لم يفعل.

Tele: @Arab_Books

يريحه التّكلّم على هذه الأمور مع إدواردو مارتينتز تحت ضوء غروب يوم خميس عيد الشكر ذاك، وحتّى لو عَدّ الموضوع إلى حدّ ما كئيباً – قصص عن الفشل وخيبة الأمل والموت – فإن البايسبول عالم كبير كالحياة نفسها، وبالتالي كل شيء في الحياة، سواء الجيّد أم السّيّئ، المأساوي أو الكوميدي، يقع في مجال هذه اللعبة. اليوم يستعيدان قصص يأس وأمل ضائع، ولكنْ، في المرّة التالية التي يلتقيان فيها (على افتراض أنهما سيلتقيان ثانية)، يمكنهما ملء عصرية كاملة بقصص لا تنتهي من النوادر الطريفة التي تؤلم البطن لشدّة ما هي مضحكة. يفاجأ بأن إيدي صاحب ماريا الجديد فتى جادّ طيّب النوايا، ويتأثّر بأنه ارتدى السترة وربطة العنق، وأنه قصّ شعره حديثاً، وملأ الهواء برائحة الكولونيا التي وضعها لهذه الزيارة إلى منزل آل سانشيز. صحبة الفتى مسلّية، وبقدر ما يسعده توفّر حليف من جنسه في هذا المكان المليء بالنساء، فحين يتم استدعاؤهما للعشاء، يبدو أن حضور إيدي إلى المائدة يخمد عدوانية أنجيلا تجاهه، أو على الأقلّ، يوجّه اهتمامها منه، ويقلّل عدد النظرات المتحدّية التي يتلقّاها منها عادة. ثمّة شخص آخر لتنظر إليه الآن، غريب آخر، عليها فَحْصه والحكم عليه، لترى إذا كان يستحقّ أم لا يستحقّ أختاً صغيرة أخرى من أختَيْها. يبدو أن إيدي ينجح في الاختبار، ولكنْ، يستوقف مايلز أن أنجيلا لم تتجشّم عناء ترتيب موعد خاصّ بها للأمسية، إنها على ما يبدو من دون صاحب. زوج تريزا بعيد بالطبع، ويتوقّع منها تماماً أن تكون دون صاحب، ولكنْ، لماذا لم تدعُ أنجيلا رجلاً للانضمام إليهم؟ ربّما الآنسة حسناء، لا تحبّ الرجال، يفكّر. ربّما عملها في الحانة قد جعلها تشعر بالمرارة من موضوع الرجال برمّته.

الرقيب لوبيز لم يعد إلى البيت منذ عشرة أشهر، وتبدأ الوجبة بصلاة صامتة على نية سلامته. بعد ثوان قليلة، ينظر الجميع إلى تريزا، وهي

Tele: @Arab_Books

تحاول مَنْع نفسها من البكاء. بيلار الجالسة بجوارها، تحيطها بذراعَيْها، وتُقبّلها على وجنتها. ينظر ثانية إلى مفرش الطاولة، ويقاوم مناجاة الرّبّ. لا صلة للرّبّ بما يجري في العراق، يقول لنفسه. يتخيّل جورج بوش وديك تشيني وقد وُضعا إلى جدار، وأُطلق عليهما الرصاص، ثمّ ومن أجل بيلار، ومن أجل الجميع هناك، يتمنّى أن يكون زوج تريزا محظوظاً بما فيه الكفاية للعودة سليماً مُعافى.

يحسب لبرهة أنه سيتجاوز هذه المحنة دون أيّ تعكير من أنجيلا. لقد التهموا عدّة أطباق الآن، والجميع انقضّ على الحلوى، وبعد ذلك كبادرة حسن نيّة، سيعرض القيام بغسل الأواني، وحده ومن دون مساعدة أحد، وما إن ينتهي من غسل هذه الأطباق والأواني والأكواب التي لا تُحصى، ويجفّفها، ولحظة أن ينتهي من تنظيف القدور والقلايات، ويضع كل شيء في الخزانة، سوف يخرج إلى غرفة المعيشة، ويأخذ بيلار، ويقول لهم إن الوقت تأخّر، وإنه لديه عمل غداً، وسوف يرحلان، هما الاثنان فقط، سينسلان من البيت، ويركبان السّيّارة قبل أن تُقال أيّة كلمة أخرى. خطّة ممتازة، ربمّا، ولكنْ، ما إن أنهت أنجيلا آخر لقمة من فطيرة القرع (لا طعام كوبياً اليوم، كل شيء أمريكي فحسب، من الطير الضخم المحشوّ إلى مرق التوت البرّي، والصلصلة والبطاطا الحلوة والحلوى التقليدية)، تضع الشوكة من يدها، وترفع المنديل عن حضنها، وتنهض. أحتاج إلى التّكلّم إليكَ، مايلز، تقول له، فلنخرج إلى حيث يمكننا التّكلّم على انفراد، موافق؟ الأمر بغاية الأهمّيّة.

ليس بالأمر المهمّ، ولا بالحدّ الأدنى. أنجيلا تشعر بالحرمان، هذا كل ما في الأمر. الميلاد أزف، وتريد منه مساعدتها في الخروج ثانية. ما الذي تعنيه بذلك؟ يسألها. أشياء، تقول. مثل تلك التي أحضرتها هذا الصيف. مستحيل، يقول لها، السرقة مُنافية للقانون، ولا يريد أن يخسر وظيفته.

Tele: @Arab_Books

لقد فعلتَ ذلك من أجلي مرّة، تقول، وليس من سبب يمنعكَ من تكرار ذلك.

لا أستطيع، يكرّر. لا يمكنني المجازفة بالوقوع في المتاعب.

أنت مليء بالهراء، مايلز. الجميع يفعل ذلك. أسمع قصصاً. أعرف ما الذي يجري. هذه الوظيفة مثل الدخول إلى متجر بيع بالتجزئة، بيانوهات ضخمة، قوارب، درّاجات نارية، مجوهرات، شتّى الأشياء الثمينة. العاملون يسلبون كل ما تقع عليه أيديهم.

ليس أنا.

لا أطلب منكَ قارباً. وما حاجتي بالبيانو، في حين لا أجيد العزف؟ ولكنني أريد أشياء جميلة، تعرف ماذا أقصد. أشياء تُشعرني بالسعادة.

أنت تطرقين على الباب الخطأ، أنجيلا.

أنت مغفّل حقاً، مايلز، صحيح؟

فلتقولي ما تريدين قوله، أظنّ أنكِ تريدين أن تقولي شيئاً، ولكن كل ما أسمعه هو الصمت.

أنسيتَ كم عمر بيلار؟

لستِ جادّة في ما تقولين! ...

لا؟

لن تجرئي على ذلك. إنها شقيقتكِ، أنسيتِ ذلك؟

اتّصال واحد بالشرطة، وتغدو في خبر كان، يا صديقي.

كفّي عن ذلك. بيلار ستبصق في وجهكِ. لن تُكلّمكِ ثانية.

Tele: @Arab_Books

فكِّرْ في الأشياء، مايلز. أشياء جميلة، الكثير منها. هذا أفضل بكثير من التفكير بالسجن، أليس كذلك؟

في السّيّارة في طريقهما إلى البيت، تسأله بيلار ما الذي أرادت أنجيلا أن تُكلّمه بشأنه، ولكنّه يتجنّب مصارحتها بالحقيقة، غير راغب في أن تعرف مدى احتقاره لشقيقتها، يتمتم شيئاً ما عن الميلاد، خطّة سرّيّة ما، كلاهما يحضّران شيئاً معاً، يتعلّق بالعائلة كلها، لكنه لا يستطيع قول كلمة عن الموضوع، لأن أنجيلا جعلته يعدها بذلك حتّى إخطار لاحق منها. ويبدو جوابه هذا مقنعاً لبيلار التي تسرح في تلك المفاجأة التي يتمّ إعدادها. وفي منتصف طريق العودة إلى شقّتهما، يكونان قد انتهيا من موضوع أنجيلا، وينتقلان إلى انطباعاتهما عن إيدي. بيلار تجده لطيفاً، ومظهره ليس بالسّيّئ على الإطلاق، ولكنها تتساءل عن مدى ذكائه مقارنة بماريا، وهو ما لا يُعلّق عليه. فالسؤال الحقيقي بالنسبة إليه هو ما إذا كانت ماريا ذكية كفاية بالنسبة لإيدي، ولكنه لن يهين بيلار من خلال إهانة ذكاء شقيقتها. بدلاً من ذلك، يبدأ بمداعبة شعرها بيده اليمنى، سائلاً إيّاها عن رأيها في الكتاب الذي أعطاها إيّاه صباح ذلك اليوم، "سكّان دبلن"(*).

يعود إلى العمل في اليوم التالي مقتنعاً بأن تهديد أنجيلا مجرّد كلام فارغ، أداء مسرحي بائس، يهدف لكَسْر ممانعته، ودَفْعه إلى السرقة لصالحها ثانية. لن يقع ضحية مثل هذه الحيلة الخرقاء، وعلى جثّته أن يعطيها شيئاً واحداً، ولا حتّى مسواكاً، ولا منديلاً ورقياً مستعملاً، ولا حتّى ضرطة من ضرطات زميله في العمل باكو.

بعد ظهر يوم الأحد، تذهب بيلار إلى منزل سانشيز، لكي تمضي ساعتَيْن مع شقيقاتها. مجدّداً، لا رغبة لديه بالانضمام إليها، ويبقى في

---

*) The Dubliners رواية جيمس جويس الشهيرة.

Tele: @Arab_Books

الشّقّة، لكي يعدّ العشاء في غيابها (هو مَن يقوم بالتّبضّع والطهي في البيت)، وحين تعود بيلار عند الساعة السادسة، تقول له إن أنجيلا طلبت منها أن تذكّره بألا ينسى الاتّفاق الذي عقده معها. تقول إنها لا يمكنها الانتظار إلى الأبد، تضيف بيلار، مكرّرة كلمات أختها بنظرة مرتبكة متسائلة في عينَيْها. ما الذي تعنيه بذلك؟ تسأله.

لا شيء، يجيب، صارفاً التفكير بهذا التهديد الجديد بهزّة رأس قوية. لا شيء على الإطلاق.

يومان آخران من العمل، ثلاثة أيّام أُخر، أربعة أيّام أُخر، ثمّ، بعد ظهر يوم جمعة، بعد الانتهاء من آخر عملية إجلاء في الأسبوع، وبينما يمشي مبتعداً عن منزل آخر فارغ، ويتّجه إلى سيّارته قبالة الشارع، يلمح رجلَيْن يستندان إلى البابَيْن الأمامي والخلفي من سيّارة تويوتا حمراء. رجلان، أحدهما أنجلو(*) والثاني لاتيني، ضخمان جدّاً، بحيث إنهما يبدوان لاعبَي دفاع في كرة القَدَم الأمريكية، أو لاعبَي كمال أجسام محترفين، أو حارسَي نادٍ ليلي، وإذا كانا كذلك بالفعل، يفكّر، فلربمّا وظّفتْهما مؤسّسة تُدعى "بلو ديفل". أفضل خطوة يمكنه القيام بها هي أن يعود على أعقابه، ويهمّ بالجري، ولكنْ، فات الأوان على ذلك، فقد رآه الرجلان وهو يقترب منهما، وإذا هرب الآن، فسوف يزيد الأمور سوءاً فحسب، بما أنه في نهاية المطاف سيتمكّنان من اللحاق به. ليس أنه بالرجل الضئيل، أو أنه يخشى القتال. فهو يبلغ الآن ستّة أقدام وإنشَيْن، ويزن مئة وثمانية وسبعين باونداً، في وضع أكثر من مقبول جسدياً، بل إنه يتمتّع بالعضلات. ولكنه لا يتمتّع بشيء من قوّة هذَيْن الرجلَيْن، ولأنهما اثنان وهو واحد، فقصارى أمله أن يكونا يريدان التحدّث إليه فحسب، لا لاستعراض قدراتهما القتالية.

(*) Anglo تعبير شائع في الولايات المتّحدة الأمريكية، يشمل الأشخاص البيض من غير الأصول اللاتينية.

Tele: @Arab_Books

سيّد، هيلر؟ يسأله الأنجلو.

بمَ أستطيع خدمتكما؟ يجيب.

لدينا رسالة لكَ من أنجيلا.

ولمَ لا تُبلغني إيّاها بنفسها؟

لأنكَ لا تصغي إليها حين تتكلّم إليكَ. ففكّرتْ بأنكَ قد تصغي أكثر إذا ما أوصلنا نحن الرسالة لكَ.

حسناً، كُلّي آذان صاغية.

أنجيلا مستاءة، وقد بدأت تفقد صبرها. تقول إنه أمامكَ أسبوع واحد، وإن لم تحقّق التزامكَ في حينه، فسوف ترفع سمّاعة الهاتف، وتجري الاتّصال. أفهمتَ؟

أجل، فهمتُ.

أمتأكّد أنتَ؟

أجل، أجل، متأكّد.

أمتأكّد من أنكَ متأكّد؟

أجل.

جيّد. ولكنْ، فقط لكي أتأكّد من أنكَ لن تنسى أنكَ متأكّد، فسوف أقدِّم لكَ هدية صغيرة. مثل تلك الخيوط التي يعقدها المرء حول إصبعه، ليتذكّر شيئاً ما. تعرف عمّ أتكلّم؟

أظنّ ذلك.

Tele: @Arab_Books

ودون سابق إنذار، يسدّد له الرجل لكمة على بطنه. لكمة مدفعية، شديدة جدّاً إلى حدّ أنها تطيح به أرضاً، وبينما يتهاوى يُفرغ الهواء من رئتَيْه، ومع الهواء الذي يتفجّر من قصبته الهوائية، تخرج أيضاً محتويات معدته كلها، طعام الإفطار والغداء، وبعض ما تبقّى من عشاء الأمس، وكل ما كان في داخله قبل لحظات، غدا الآن خارجه، وبينما يرتمي هناك مُتقيِّئاً ومحاولاً التقاط أنفاسه، وشادّاً على بطنه من شدّة الألم، يمضي الرجلان إلى سيّارتهما، تاركين إيّاه في الشارع، حيواناً جريحاً، أُسقط أرضاً بتلك الضربة الوحيدة، رجلاً يتمنّى، لو لم يكن على قيد الحياة.

بعد ساعة من ذلك، تعرف بيلار كلّ شيء. الحيلة لم تكن حيلة، وبالتالي لم يعد بمقدوره إخفاء الأمر عنها. إنهما فجأة في موقف خطر، ومن الضروري أن يصارحها بالحقيقة. تبكي في البداية، إذ تكاد لا تُصدّق أن شقيقتها يمكن أن تتصرّف على هذا النحو، وأن تهدّده بالسجن، مستعدّة لتدمير سعادتها من أجل بضعة أشياء تافهة، لا تفهم شيئاً من هذا. ليست الأشياء، يقول لها. هذه مجرّد عذر. أنجيلا لا تحبّه، وقد كانت ضدّه منذ البداية، وسعادة بيلار لا تعني لها شيئاً، إذا كانت ستتحقّق من خلال الارتباط به. لا يفهم لمَ تكنّ مثل هذه الضغينة ضدّه، ولكنْ، هذا واقع الأمر، ولا خيار أمامهما سوى القبول بها. بيلار تريد أن تقفز إلى سيّارتها، وتذهب إلى المنزل، وتصفع أنجيلا على وجهها. هذا ما تستحقّه، يقول لها، ولكنْ، لا يمكنكِ فعل ذلك الآن. يجب أن تنتظري إلى ما بعد رحيلي.

إنه وَضْع رهيب، وَضْع لا يمكن تصوُّره، ولكنه الحلّ الوحيد المتبقّي أمامهما في ظلّ الظروف الراهنة. يجب أن يغادر الولاية. ليس من بديل آخر. يجب أن يرحل عن فلوريدا قبل أن ترفع أنجيلا سمّاعة الهاتف، وتتّصل بالشرطة، ولا يجب أن يعود قبل صبيحة الثالث والعشرين من مايو، حينما

Tele: @Arab_Books

تبلغ بيلار الثامنة عشرة. يغريه أن يطلب الزواج منها فوراً، ولكنْ، ثمّة الكثير من الأمور تحدث في آن معاً، وكلاهما بائس ومجهد الأعصاب، ولا يريد أن يضغط عليها، أو يُربكها، أن يزيد من تعقيد وضع معقّد أساساً، في حين لم يتبقّ سوى القليل من الوقت.

يقول لها إن صديقه لديه غرفة في بروكلين. ويعطيها العنوان، ويعدها بالاتّصال يومياً. بما أن العودة إلى منزل العائلة لم تعد واردة الآن، فسوف تبقى في الشّقّة. يكتب لها حوالة مصرفية، تغطّي مسبقاً إيجار ستّة أشهر، ينقل ملكية السّيّارة لها، ثمّ يصحبها إلى المصرف، حيث يريها كيف تستعمل الصرّاف الآلي. ثمّة ١٢ ألف دولار في حسابه. يقوم بسَحْب ثلاثة آلاف لنفسه، ويترك التسعة المتبقّية لها. بعد أن يضع في يدها بطاقة المصرف، يحيطها بذراعَيْه بينما يخرجان إلى شمس منتصف النهار اللاذعة. إنها المرّة الأولى التي يلمسها أمام العموم، ويفعل ذلك متقصّداً، كنوع من التّحدّي.

يوضِّب حقيبة صغيرة مع غياري ملابس، كاميرته، وثلاثة أو أربعة كُتُب. يترك كل شيء آخر حيث هو – لكي تقتنع بأنه سيعود.

باكراً صباح اليوم التالي، يكون على متن الحافلة المتّجهة إلى نيويورك.

Tele: @Arab_Books

٤

إنها رحلة طويلة مُرهقة، أكثر من ثلاثين ساعة من البداية حتّى النهاية، مع ما يقارب ١٢ استراحة، تتراوح بين عشر دقائق وساعتَيْن، ومن محطّة في الرحلة إلى أخرى، فإن المقعد المجاور لمقعده تحتلّه على التوالي امرأة سوداء لحيمة لاهثة، هنديّ أو باكستاني مستنشق، ثمانينية بيضاء ناحلة، لا تتوقّف عن التنحنح، وسائح ألماني، لا يكفّ عن السعال، ولديه مظهر غير محدّد البتّة، بحيث لا يستطيع أن يقرّر ما إذا كان امرأة أم رجلاً. لا يفتح الأحاديث مع أيّ منهم، بل يدسّ أنفه في كتابه، أو يدّعي النوم، وعند كلّ استراحة، يترجّل من الحافلة، ويهاتف بيلار.

في جاكسونفيل، وخلال الاستراحة الأطول في الرحلة، يشغل وقته بتناوُل شطيرتَيَ همبرغر وقنّينة ماء، متأنّياً في المضغ، لأن عضلات معدته ما تزال حسّاسة جدّاً جرّاء تلك اللكمة القاضية يوم الجمعة. أجل الألم الذي تسبّبت به تلك اللكمة لا تقلّ فعالية عن الخيط المعقود حول إصبعكَ، وقد كان ذلك الرجل الضخم ذو القبضة الحجرية محقّاً في افتراضه بأنه لن ينساها. بعد إنهاء وجبته السريعة، يتّجه إلى كشك المحطّة، حيث يوجد كلّ شيء من أصابع عِرْق السُّوس إلى الواقيات الذَّكَرية. يشتري بضع صحف ومجلات، مخزّناً المزيد من موادّ القراءة في حال أراد الراحة بين الكُتُب خلال المئة ميل المتبقّية. بعد ساعتَيْن ونصف الساعة مع اقتراب الحافلة من سافانا، جورجيا، يفتح نيويورك تايمز، وعلى الصفحة الثانية

Tele: @Arab_Books

من ملحق الفنون، في عمود أخبار سريعة تتعلّق المشاهير، يرى صورة صغيرة لأمّه. ليس من غير الاعتيادي بالنسبة إليه أن يصادف صورها. كان ذلك يحدث معه منذ تُسعفه ذاكرته على التّذكّر، وبما أنها ممثّلة معروفة، فمن الطبيعي أن يظهر وجهها كثيراً في الصحافة. إلا أن المقال القصير في الصحيفة يثير اهتماماً خاصّاً لديه. بعد أن أمضت معظم سني حياتها في الأفلام والتلفزيون، فإن أمّه ستعود إلى نيويورك بعد غياب عشر سنوات؛ لتشارك في مسرحية، تُفتتح في يناير. بكلمات أخرى، ثمّة احتمال كبير بأن تكون الآن في نيويورك تتمرّن على دورها، وهو ما يعني أنها المرّة الأولى منذ سنوات طويلة، بل منذ قرون، التي سيكون فيها والداه الاثنان في نيويورك في اللحظة نفسها، وهي لحظة تواجده أيضاً. يا لغرابة ذلك! غريب على نحو فظيع، وغير مفهوم. لا ريب في أنه لا يعني شيئاً، لا شيء على الإطلاق، ومع ذلك، لمَ الآن؟ يسأل نفسه، لمَ اختار العودة الآن؟ لأنه لم يختر. لأن الخيار اتّخذته نيابة عنه قبضة ضخمة، صرعتْه أرضاً، وفرضت عليه الفرار من فلوريدا إلى مكان يُدعى صانست بارك. رمية أخرى للنرد، إذن، ورقة يانصيب أخرى سُحبت من الجرّة المعدنية السوداء، ضربة حظٍّ أخرى في عالم تحكمه ضربات الحظّ والفوضى اللامتناهية.

قبل نصف عمره، حين كان في الرابعة عشرة، كان يمشي مع والده، فقط كلاهما، دون ويلا ولا بوبي، اللذَيْن كانا في مكان آخر في ذلك اليوم. كان بعد ظهر يوم أحد في أواخر الربيع، وهو ووالده كانا يتنزّهان جنباً إلى جنب في وست فيلاج، دون هدف محدّد، يتذكّر، فقط المشي حبّاً بالمشي في الهواء الطلق، لأن الجوّ كان جميلاً بصورة خاصّة ذلك اليوم، وبعد أن سارا لنحو ساعة ونصف الساعة، جلسا على مقعد في أبنغدون سكوير. لأسباب لا يذكرها الآن، بدأ يطرح الأسئلة عن أمّه. كيف ومتى التقيا، متى تزوّجا، ولماذا لم يبقيا متزوّجَيْن، وهكذا دواليك. رأى أمّه مرّتَيْن فقط في

Tele: @Arab_Books

العام، وفي زيارته الأخيرة إلى كاليفورنيا، طرح عليها أسئلة مماثلة عن أبيه، لكنها لم ترغب في التّحدّث عن الموضوع، فصرفتْه عنها بعبارة قصيرة أو اثنتَيْن. كان الزواج غلطة منذ البداية. والده رجل محترم، لكنهما لم يكونا مناسبَيْن لواحدهما الآخر، ولم يتجشّم عناء الخوض في هذا الموضوع الآن؟ ربّما هذا ما حثّه على استجواب والده بعد ظهر يوم الأحد ذاك في أبينغدون سكوير، قبل أربعة عشر عاماً. لأن أجوبة أمّه لم تكن مُرضية له، وكان يأمل بأن يكون والده أكثر تجاوباً ورغبة في التّكلّم.

رآها للمرّة الأولى على خشبة المسرح، قال والده، الذي لم يجفله السؤال، فأخذ يتكلّم دون مرارة، بنبرة حيادية منذ الجملة الأولى وحتّى الأخيرة، لا ريب مفكّراً بأن ابنه بلغ من العمر ما يكفي لكي يعرف الوقائع، والآن سأله الفتى السؤال وهو يستحقّ جواباً نزيهاً ومباشراً. وممّا يثير الفضول أن المسرح لم يكن بعيداً عن المكان الذي يجلسان فيه الآن، قال والده، سيرك ريب القديم في الجادّة السابعة. كان ذلك في أكتوبر ١٩٧٨، وكانت تلعب دور كورديليا في مسرحية الملك لير، ممثّلة في الرابعة والعشرين تُدعى ماري لي سوان، اسم رائع لممثّلة برأيه، وقد قدّمت أداءً، أثّر به خاصّة لقوّة وواقعية تجسيدها للشخصية، والذي لم يكن يحمل شبهاً مع كورديليا القدسية المتكلّفة التي شاهدها في السابق. ماذا يجب أن تقول كورديليا؟ الحبّ، ثمّ تصمت. وقد أوصلت هذه الكلمات بتردّد بالذات، بدا أنه يفتح كل ما في داخلها أمام الجمهور. شيء استثنائي مشاهدته، قال والده. شيء يفطر القلب تماماً.

أجل، بدا والده راغباً في التّكلّم، لكنّ القصّة التي أخبرها بعد ظهر ذلك اليوم كانت غامضة، بل شديدة الغموض والصعوبة، لكي يفهمها. كان ثمّة تفاصيل بالطبع، العديد من الأحداث، التي تبدأ بأوّل ليلة حين

Tele: @Arab_Books

ذهب والده لتناوُل شراب مع المخرج الذي كان صديقاً قديماً له، مع بعض الممثّلين، ومنهم ماري لي. كان والده في الثانية والثلاثين وقتذاك، غير متزوّج، ولا مرتبط، وقد كان مؤسّس دار هيلر للنشر، التي انطلقت منذ خمس سنوات، وبدأت تكتسب حضوراً، يُعزى في الغالب إلى نجاح رواية رينزو ميكالسون "بيت الكلمات". روى لابنه أن الانجذاب بينهما كان مباشراً. تناغم غير متوقّع ربّما، لأنها كانت فتاة ريفية من قرية ما متخلّفة في وسط ماين، وهو كان نيويوركياً طوال حياته، وقد وُلد في شيء من الثراء، في حين جاءت هي من الفقر أو العوز، ابنة رجل يدير متجر خردوات، ومع ذلك فها هما ينظران إلى واحدهما الآخر عبر الطاولة في تلك الحانة الصغيرة على أطراف شريدان سكوير، هو الحامل شهادَتَيْن جامعيَّتَيْن، وهي الحاملة الشهادة الثانوية، وشهادة تخرّج في دورة في الأكاديمية الأمريكية للفنون المسرحية، وتعمل نادلة بين الأدوار، ولا تبدي اهتماماً بالكُتُب، في حين تُشكِّل الكُتُب عمل حياته، ولكنْ، مَنْ يستطيع اختراق أسرار الرغبة؟ قال والده، مَنْ يمكنه أن يفسّر الأفكار التلقائية التي تتسارع في رأس رجل؟ سأل ابنه إذا كان قد فهم كلامه. فهزّ الولد رأسه، ولكنه في حقيقة الأمر لم يفهم شيئاً.

أعمتْه موهبتها، واصل والده، كل مَنْ يمكنه الأداء مثلما تؤدّي في ذلك الدور المتطلّب الدقيق لابدّ من أنه يملك عُمقاً في قلبه، ومدى أوسع من المشاعر من أيّ من الفتيات اللواتي عرفهنّ في الماضي. ولكنّ ادّعاء كونكَ شخصاً ما، وأن تكون ذلك الشخص حقّاً هما أمران مختلفان تماماً، أليس كذلك؟ تزوّجا في ١٢ مارس ١٩٧٩، بعد أقلّ من خمسة شهور على لقائهما الأوّل. بعد خمسة أشهر من ذلك، بدأ الزواج يعاني من المتاعب. لم يرد والده أن يُضجره بسَرْد قصص شجاراتهما واختلافاتهما، ولكن النتيجة كانت التالي: أحبّا بعضهما، ولكنهما لا يستطيعان الاتّفاق. أيجد هذا منطقياً؟

Tele: @Arab_Books

لا، لا يجده كذلك على الإطلاق. كان ارتباك الفتى قد بلغ أشدّه حينئذ، ولكنه كان أشدّ خوفاً من الاعتراف بذلك لوالده، الذي كان يبذل قصارى جهده، لكي يعامله كبالغ، ولكنه لم يكن مؤهّلاً لهذه المهمة في ذلك اليوم، فعالم البالغين كان غامضاً بالنسبة إليه في تلك المرحلة من حياته، ولم يستطع فَهْم التناقض بين أن يتعايش الحبّ والتنافر في آن معاً. يجب أن يكون هذا أو ذاك، الحبّ أو اللاحبّ، ولكنْ، ليس الحبّ واللاحبّ في وقت واحد. صمت لوهلة لكي يُلملم شتات أفكاره، ثمّ سأل والده السؤال الوحيد الذي بدا مهماً بالنسبة إليه، الوحيد الذي له معنى وثيق الصلة بالموضوع. إذا كانا لا يحبّان بعضهما إلى هذا الحدّ، فلمَ أنجبا طفلاً؟

كان الهدف من ذلك أن يُنقذهما، قال والده. كانت تلك هي الخطّة في أيّة حال: إنجاب طفل معاً، ثمّ الأمل بأن الحبّ الذي سيشعران به تجاه وليدهما سوف يُوقِف التباعد الآخذ في الاتّساع بينهما. كانت سعيدة بذلك في البداية، قال والده، كلاهما كان سعيداً، ولكنْ، ... توقّف والده فجأة في منتصف الجملة، وأشاح نظره لبرهة، وهو يبدّل ناقل السرعة الذهني، وأخيراً قال: لم تكن مستعدّة لأن تكون أمّاً. كانت يافعة جدّاً. ولم يجدر بي أن أدفعها إلى ذلك. فهم الفتى أن والده كان يحاول كَبْتَ مشاعره. لا يستطيع الإعلان بفجاجة أن والدته لم تُرده، أليس كذلك؟ تلك ستكون مبالغة، ضربة لا يمكن لأيّ كان استيعابها بالكامل، ومع ذلك، فإن صمت والده وتملُّصه المرهف الإحساس من التفاصيل الفظّة وصل به إلى هذه الحقيقة بالذات: والدته لم تُرده، كانت ولادته غلطة، لم يكن من سبب ضروري لأن يكون حيّاً.

متى بدأ الأمر؟ تساءل. في أيّ مرحلة تحوّلت سعادتها الأولى إلى شكّ،

Tele: @Arab_Books

إلى نفور وخوف؟ ربّما حين بدأ جسدها بالتّحوّل، فكّر، حين بدأ وجوده في أحشائها يُظهر نفسه للعالم، وكان قد فات الأوان على إنكار الانتفاخ الذي بات يُعرّفها الآن، دون ذِكْر القلق الذي تسبّب به السمنة في ردفَيْها ومؤخّرتها، والوزن الإضافي الذي شوَّه جسدها النحيل الساحر. أكان هذا كل ما في الأمر - نوبة من الخيلاء؟ أم أنه الخوف من أنها ستفقد مكانتها بالابتعاد عن العمل في الوقت الذي بدأت تتلقّى عروضاً لأدوار أفضل وأكثر إثارة للاهتمام، أنها تقطع مسيرتها في أسوأ لحظة ممكنة، وربّما لن تستطيع استئناف مسيرتها؟ بعد ثلاثة أشهر من الولادة (٢ يونيو ١٩٨٠)، أدّت تجربة أداء لدور بطولة في فيلم، سيُخرجه دوغلاس فلاهرتي، "الحالم البريء". حصلت على الدور، وبعد ثلاثة أشهر من ذلك، اتّجهت إلى فانكوفر، كولومبيا البريطانية، تاركة طفلها في نيويورك مع والده وحاضنة أطفال مقيمة، إدنا سمايثي، امرأة جامايكية تبلغ ٢٠٠ باوند وزناً، وتبلغ من العمر ٤٦ عاماً، والتي ظلّت تعمل حاضنة له (ولبوبي لاحقاً)، خلال السنوات السبع التالية. أما بالنسبة إلى أمّه، فإن ذلك الدور أطلق حياتها المهنية في السينما. كما جلب لها زوجاً جديداً (فلاهرتي المخرج) وحياة جديدة في لوس أنجليس. لا، قال والده حين طرح عليه السؤال، لم تُطالب بالحضانة. كانت ممزّقة، شرح والده، مقتبساً ما قالتْه له في ذلك الحين، فالتّخلّي عن مايلز كان أصعب وأفظع قرار اتّخذتْه في حياتها، ولكنْ، في ظلّ تلك الظروف، لم يبد أن هناك خياراً آخر أمامها. بكلمات أخرى، قال له والده عصر ذلك اليوم في أبينغدون سكوير، لقد هجرتْنا. أنا وأنت معاً، أيّها الفتى. نبذتْنا من حياتها، وكانت تلك نهاية الموضوع.

ولكنْ، لا أسف، سرعان ما أضاف. ليس من إعادة تفكير أو نبش كئيب في الماضي. زواجه من ماري لي لم ينجح، ولكن هذا لا يعني أنه يمكن تسميته فشلاً. لقد برهن الوقت أن الهدف الحقيقي من تلك السنتَيْن

Tele: @Arab_Books

اللتينْ أمضاهما معها لم يكن يتعلّق ببناء زواج ثابت، كان الأمر متعلّقاً بتكوّني ابناً، ولأن هذا الابن كان الكائن الأكثر أهمّيّة في العالم بالنسبة إليه، فكل خيبات الأمل التي احتملها معها كانت تستحقّ ذلك – لا، بل أكثر، ضرورية جدّاً. هل هذا واضح؟ أجل. عند هذه النقطة، لم يسأل الفتى ما كان والده يقوله له. ابتسم والده، ثمّ أحاطه بذراعَيْه، وقرَّبَه من صدره، وقبّله على رأسه. أنت تفّاحة عيني. لا تنسَ ذلك.

كان تلك المناسبة الوحيدة التي تحدّثا فيها عن أمّه بتلك الطريقة. قبل وبعد المحادثة، قبل أربعة عشر عاماً، كانت العلاقة بها قاصرة على الإجراءات العملية، جدولة الاتّصالات الهاتفية، شراء تذاكر السَّفَر إلى كاليفورنيا، تذكيره بإرسال بطاقات المعايدة، إيجاد طريقة للتنسيق بين عطلاته المدرسية وعمل أمّه. ربّما تكون قد اختفت من حياة والده، ولكنْ، وعلى الرغم من التباينات والسقطات، فقد ظلّت حاضرة في حياته. منذ البداية، كان الفتى الذي له والدتان. أمّه الحقيقية، ويلا، التي لم تلده، وأمّه بالدم ماري لي التي لعبت دورها كغريبة إكزوتيّة. السنوات الأولى لم تعد موجودة، ولكنْ، بالعودة إلى حين كان في الخامسة أو السادسة، يمكنه أن يتذكّر الطيران عبر البلاد، لكي يراها، الفتى القاصر الذي يسافر وحيداً ويحظى بدلال المضيفات والطّيّارين، الذي يجلس في حجرة القيادة قبل الإقلاع، ويشرب الصودا المحلاة التي بالكاد يُسمَح له بشُربها في البيت، والبيت الكبير على التلّة فوق لوس أنجليس مع الطيور المغرّدة في الحديقة، الزهور الحُمر والأرجوانية، أشجار العرعر والسنط، الليالي الباردة بعد الأيّام الدافئة المليئة بالشمس. كانت والدته صارخة الجمال في ذلك الحين، الشقراء الأنيقة المحبّبة التي كان أحياناً يُشار إليها، بوصفها كارول بايكر، أو تيوزداي ويلد الثانية، ولكنْ، الأكثر موهبة منهما، والأكثر ذكاء في اختيار أدوارها، والآن وقد غدا بالغاً، وقد بات جلياً لها أنها لن تُرزَق بطفل

Tele: @Arab_Books

آخر، فقد باتت تُسمّيه أميرها الصغير، ملاكها الغالي، والفتى نفسه الذي كان تفّاحة عين أبيه، أصبح درّاقة قلب أمّه.

إلا أنها لم تعرف يوماً كيف تتعامل معه. كان لديها الكثير من النيّة الحسنة، ولكنْ، القليل من المعرفة، ليس نوع المعرفة التي تملكها ويلا، وبالتالي قلّما أحسّ بأنه يقف معها على أرض صلبة. من يوم إلى آخر، من ساعة إلى أخرى، يمكن أن تنتقل من الحماسة الشديدة إلى السهو، من الأنس المازح إلى الانسحاب، والصمت السريع. تعلّم أن يكون على أهبّة الاستعداد معها، أن يعدّ نفسه لتلك النوبات التي لا يمكن توقّعها، أن يستمتع باللحظات الحلوة، ولكنْ، ألا يتوقّع أن تدوم طويلاً. كان يزورها عادة خلال فترة انتقالها من دور إلى دور جديد، وهذا ربّما فاقم حال القلق الذي بدا أنه يسكن المنزل. قد يبدأ الهاتف بالرنين صباحاً باكراً، ثمّ تتكلّم مع وكيل أعمالها، مع منتج، مخرج، زميل ممثّل، أو تقبل أو ترفض إجراء حوارات صحافية، أو جلسات تصوير فوتوغرافي، أو الظهور بالتلفزيون، أو أن تقدّم هذه الجائزة أو تلك، ناهيك عن أين ستتناول العشاء تلك الليلة، أيّ حفلة ستقصدها الأسبوع المقبل، مَن قال ماذا عن مَن. كانت دائماً أهدأ في حضور زوجها فلاهرتي الذي ساعدها على لجم غضبها، وإبقاء معاقرتها الخمر ليلاً تحت السيطرة (كانت تعود إلى تهوّرها كلّما ذهب فلاهرتي بعيداً في عمل ما)، ولأنه لديه طفل هو الآخر من زواج سابق، فإن زوج أمّه كان أكثر إحساساً بما يختلج في داخله من أمّه. كان اسم ابنته مراجي أو ماغي، لا يتذكّر الآن، فتاة لها نمش، وركبتان سمينتان، وأحياناً كانا يلعبان معاً في الحديقة، راشّيْن بعضهما بخرطوم المياه، أو يقيمان حفلات شاي مزعومة، بينما يلعبان أجزاء متنوّعة من مشهد "صانع القبّعات المجنون" في "أليس في بلاد العجائب". كم كانا يبلغان من العمر حينها؟ ستّ سنوات؟ سبع؟ حين بلغ الثامنة أو التاسعة،

Tele: @Arab_Books

أخذ فلاهرتي على عاتقه، ومع أنه بريطاني يعيش في أمريكا دون اهتمام بالبايسبول، أن يصحبهما بسيّارته إلى "تشافيز رافين"(*) ذات ليلة، لكي يشاهدا فريق دودجرز يلعب ضدّ الميتس، فريق مسقط رأسه، النادي الذي لطالما شجّعه، في مواسمه الجيّدة أو السّيّئة على السواء. كان رجلاً ودوداً، فلاهرتي هذا، رجل فيه الكثير من الحسنات، ولكنْ، حين عاد مايلز إلى كاليفورنيا بعد ستّ سنوات، وجده قد رحل، ووجد أمّه في خضمّ طلاقها الثاني. زوجها الجديد سيمون كورنغولد، منتج أفلام مستقلّة منخفضة الميزانية، ورغم غرابة الأمر، وسيرتها مع والده ومع فلاهرتي، فإنها ما تزال معه بعد ١٧ عاماً من الزواج.

حين كان في الثانية عشرة، دخلتْ إلى غرفته، وطلبتْ منه أن يخلع ملابسه. أرادت أن ترى نمُوّه، كما قالت، وبتردُّد انصاع لطلبها، وتعرّى تماماً، شاعراً أنه عاجز عن رَفْض طلبها. كانت والدته في نهاية المطاف، ومهما أحسّ بالخوف أو الحرج بوقوفه أمامها عارياً، فقد كان يحقّ لها رؤية جسد ولدها. ألقتْ نظرة سريعة عليه، وقالت له أن يجري في دائرة، ثمّ أخذت تحدِّق في عضوه التناسلي، وقالت: هذا واعد، مايلز، ولكنْ، ما يزال أمامكَ طريق طويلة.

في الثالثة عشرة، بعد عام من التغيّرات العاصفة، لذاته الداخلية والخارجية على السواء، طلبت منه الطلب ذاته. كان جالساً قرب بركة السباحة هذه المرّة، لا يرتدي شيئاً سوى لباس السباحة، وعلى الرغم من أنه كان أكثر توتّراً وتردّداً من ذي قبل، فقد وقف، وأخفض سرواله، وقدم لها لمحة ممّا أرادت رؤيته. ابتسمت، وقالت: الرفيق الصغير لم يعد صغيراً، صح؟ انتبهنَ، أيّها السيدات، مايلز هيلر في المدينة.

---

*) منطقة في لوس أنجليس، كاليفورنيا، تضمّ ملعب دودجر الشهير للبايسبول.

Tele: @Arab_Books

في الرابعة عشرة، رفض طلبها رفضاً قاطعاً. بدت عليها خيبة الأمل بعض الشيء، كما أحسّ، ولكنها لم تصرّ. كما تريد، يا فتى، قالت، ثمّ خرجت من الغرفة.

في الخامسة عشرة، هي وكورنغولد أقاما حفلاً في منزلهما، حفلة كبيرة صاخبة، دُعي إليها أكثر من مئة شخص، ورغم وجود الكثير من الوجوه المألوفة هناك؛ ممثّلون وممثّلات رآهم في الأفلام أو البرامج التلفزيونية، ممثّلون مشهورون، وكلهم جيّدون، أناس إمّا أثّروا به، أو أضحكوه مرّات عدّة على مرّ السنين، فإنه لم يستطع احتمال الصخب، جلبة الأصوات المهذارة أشعرتْه بالسأم، وبعد أن حاول التّحمّل أزيد من ساعة، انسلّ إلى غرفته في الأعلى، واضطجع على السرير حاملاً كتاباً، كتابه في ذلك الحين، أيّاً ما تصادف أن يكون عنوانه، ويتذكّر التفكير أنه فضّل أكثر بكثير أن يمضي بقية الأمسية مع مؤلّف ذلك الكتاب على الزمرة الصاخبة في الأسفل. بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة، اقتحمت أمّه غرفته حاملة شراباً بيدها، وقد لاح على سيمائها الحنق وشيء من الثمالة. ما الذي يحسب نفسه فاعله؟ ألا يعرف أنه ثمّة حفلة تجري؟ وكيف يجرؤ على الانسحاب في خضمها؟ فلان وفلان هنا، ومَنْ أعطاه لحقّ ليهينهم بالصعود إلى غرفته، ليقرأ كتاباً لعيناً؟ حاول أن يشرح لها أنه لا يشعر بأنه على أحسن ما يرام، وأنه مصاب بصداع قويّ، وما الفرق على أيّة حال إن لم يكن في مزاج الاختلاط والمزاح مع حفنة من البالغين؟ أنت كوالدكَ تماماً، قالت، وقد ثارت ثائرتها أكثر فأكثر. يا لكَ من متبرّم! كنتَ فتى مرحاً، مايلز، والآن تحوّلتَ إلى شخص بليد. لسبب ما وجد كلمة بليد طريفة للغاية، أو ربّما منظر أمّه واقفة قبالته مع الفودكا بالتونيك بيده، أمّه المضطربة الساخطة تهينه بكلمات الأطفال مثل كئيب وبليد، وفجأة بدأ يضحك.

ما المضحك إلى هذا الحدّ؟

Tele: @Arab_Books

لا أعرف، لا أستطيع مَنْع نفسي من الضحك فحسب. بالأمس كنتُ درّاقة قلبكِ، واليوم أنا بليد. لأصدقكِ القول، لا أظنّ أنني أيّ من الأمرَيْن.

في تلك اللحظة التي كانت بلا ريب أصفى لحظات أمّه، تبدّلت سيماء وجهها من الغضب إلى الغبطة، في لحظة واحدة، وفجأة أخذت تضحك هي الأخرى.

اللعنة عليّ! إنني أتصرّف كسافلة حقيقية، صح؟

حين بلغ السابعة عشرة، وعدتْه بالمجيء إلى نيويورك لحضور حفل تخرّجه في الثانوية، ولكنها لم تأتِ. ومن الغريب أنه لم يأخذ ذلك ضدّها. فبعد وفاة بوبي، لم تعد الأمور التي كانت تهمّه في السابق، تهمّه على الإطلاق. تصوّر أنها نسيتْ. النسيان ليس بخطيئة – إنه خطأ بشريّ بسيط. حين رآها بعد ذلك، اعتذرتْ منه، مبادرة قبله إلى فَتْح الموضوع، وهو ما لم يكن ليفعله على أيّة حال.

غدت زياراته لكاليفورنيا أقلّ تواتراً. بات في الجامعة الآن، وخلال السنوات الثلاث التي أمضاها في براون لم يزرها في بيتها سوى مرّتَيْن. حدثت لقاءات أخرى بينهما، على أيّة حال، لقاءات غداء وعشاء في مطاعم نيويورك، مكالمات هاتفية طويلة (دائماً بمبادرة منها)، وعطلة نهاية أسبوع معاً في بروفيدنس مع كورنغولد، الذي بات يكنّ له الكثير من الإعجاب بسبب وفائه الثابت لها طوال عقد من الزمن. على نحو ما، ذكّره بوالده. ليس لناحية شكله أو تأثيره أو قدرته على الاحتمال، ولكنْ، في العمل الذي يقوم به، وهو الكفاح لإنجاز أفلام صغيرة جيّدة، في عالم مليء بالترهات، تماماً مثلما كان والده يكافح لنَشْر كُتُب ذات قيمة في عالم من التقليعات والكُتُب العابرة. كانت أمّه قد تجاوزت الأربعين في ذلك

Tele: @Arab_Books

الحين، وبدت أكثر تصالحاً مع نفسها ممّا كانت عليه وهي في زهو جمالها، أقلّ غَرَقَاً في ذاتها، وأكثر انفتاحاً على الآخرين. خلال عطلة نهاية الأسبوع تلك في بروفيدنس، سألتْه إذا كان قد فكّر بما يريد فعْله بعد التّخرّج. لم يكن واثقاً من ذلك، أجابها. فيوماً يقتنع بأنه يريد أن يغدو طبيباً، ليميل في اليوم التالي إلى التصوير الفوتوغرافي، واليوم الذي بعده للتعليم.

ليس الكتابة أو النشر؟

لا، لا أظنّ ذلك.

قال لها إنه يحبّ قراءة الكُتُب، لكنه ليس مهتماً بتأليفها.

ثمّ اختفى. لم يكن لأمّه صلة بقراره المتعجّل بالفرار، ولكنْ، ما إن هجر ويلا ووالده، فقد هجرها على السواء. وسواء كان ذلك للأفضل أم الأسوأ، فهذا ما كان ينبغي حدوثه، وما يجدر به أن يكون الآن. لو ذهب لرؤية أمّه، فسوف تتّصل فوراً بوالده، وتخبره بمكانه، وحينئذ سيضيع سدى كل ما سعى لتحقيقه خلال السنوات السبع والنصف الماضية. لقد حوّل نفسه إلى خروف أسود. هذا هو الدور الذي اختاره لنفسه، وسوف يواصل لعبه في نيويورك، حتّى وهو يعود إلى القطيع الذي تركه خلفه. هل يجرؤ على الذهاب إلى المسرح والقَرْع على باب غرفة تغيير الملابس الخاصّة بأمّه؟ هل يجرؤ على قَرْع جرس شقّتها في داونينغ ستريت؟ ربّما، لكنه لا يظنّ ذلك - أو على الأقلّ، لا يمكنه التفكير الآن بذلك. بعد هذا الوقت، ما يزال يشعر أنه ليس جاهزاً لهذه الخطوة.

شمال واشنطن تماماً، مع دخول الحافلة المرحلة الأخيرة من الرحلة، بدأ الثلج بالهطول. إنهم يدخلون الشتاء الآن، كما لاحظ، تلك النهارات الباردة والليالي الطويلة التي عرفها في نشأته، وفجأة انقلب الماضي

Tele: @Arab_Books

مستقبلاً. يغمض عينَيْه، يفكّر في وجه بيلار، يتخيّل يَدَيْه على جسدها الغائب، وحينئذ، في العتمة وراء جفنَيْه، يرى نفسه نقطة سوداء، في عالم تكسوه الثلوج.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

بينغ ناثان وزمرته

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

بينغ ناثان

إنه سيّد الغضب، بطل النقمة، مقاتل كشف زيف الحياة المعاصرة، يحلم بواقع جديد ينهض على أنقاض عالم متداع. على عكس معظم المعارضين على شاكلته، فإنه لا يؤمن بالحراك السياسي. لا ينتمي إلى أيّ حركة أو حزب، ولم يتكلّم مرّة أمام جمهور عامّ، ولا رغبة لديه في قيادة الجموع الغاضبة في الشوارع لحَرْق المباني، وإطاحة الحكومات. إنه موقف شخصيّ تماماً، ولكنه مقتنع بأنه إن عاش حياته وفقاً للمبادئ التي أرساها لنفسه، فإن الآخرين سيحذون حذوه.

حين يتكلّم على العالم، إذن، فإنه يشير إلى عالمه، إلى ذلك الفضاء الصغير المغلق الخاصّ بحياته، لا العالم الكبير، الذي هو أكبر وأكثر تشظّياً بالنسبة إليه من أن يكون له أيّ تأثير عليه. وبالتالي يُركّز على التفاصيل المحلّيّة، الخصوصية، التي تكاد لا تُرى، للحياة اليومية. القرارات التي يتّخذها هي بالضرورة قرارات صغيرة، ولكن الصغير لا يعني دوماً أنه قليل الشأن، ويوماً بعد يوم، يُكابد لكي يتقيّد بالقاعدة الأساسية لثورته: أن يُعارض كل الأشياء كما هي، أن يُقاوم الوضع القائم على الصُّعُد كلها. منذ حرب فييتنام التي بدأت قبل زهاء عقدَيْن من ولادته، يرى بأن المفهوم الذي يُعرَف باسم أمريكا قد استنفد نفسه، وأن البلد لم يعد فيه مقترح ناجع، ولكنْ، إذا كان ثمّة أمر ما يزال يُوحّد الجماهير المتناثرة في أمّته الميتة، إذا كان ما يزال ثمّة إجماع أمريكي على أيّة فكرة، فهي الإيمان بفكرة التّقدّم. يدّعي أنهم على خطأ، أن التطوّر التقني الذي شهدتْه العقود الماضية قد

Tele: @Arab_Books

أزال في حقيقة الأمر احتمالات الحياة. في ثقافة عديمة الفائدة، تتكاثر فيها الشركات الجشعة التوّاقة إلى الربح، فقد غدا المشهد أكثر فأكثر ميوعة، أكثر اغتراباً، أكثر خُلُوّاً من المعنى والهدف. ربّما تكون أفعال ثورته تافهة، حركات متبرّمة، تحقّق القليل أو لا تحقّق شيئاً على المدى القصير، ولكنها تساعد على تعزيز كرامته كإنسان، ترفع من شأنه بنَظَر نفسه. ويأخذه كأمر مُسلّم به أن المستقبل هو قضية خاسرة، وإذا كان الحاضر هو كل ما يهمّ في الوقت الحالي، فيجب أن يكون حاضراً مشبّعاً بروح الماضي. ولهذا السبب يتجنّب الهاتف المحمول والحاسوب وكل الأشياء الرَّقْمية، لأنه يرفض أن يكون جزءاً من التقانة الحديثة. ولهذا السبب يمضي عطلات نهاية الأسبوع عازفاً على الطبل وآلات النقر ضمن فرقة جاز مكوَّنة من ستّة أعضاء – لأن الجاز ميت، ولم تبق إلا قلّة قليلة من السعداء تهتمّ به. ولهذا السبب، بدأ في مجال عمله قبل ثلاث سنوات – لأنه أراد أن يقاتل. "مستشفى الأشياء المحطّمة" يقع في الجادّة الخامسة في بارك سلوب. تلتصق به مغسلة خدمة ذاتية ومتجر ملابس مستعملة من الجهة الأخرى، فهو متجر صغير مكرّس لإصلاح الأشياء من الحقبة التي اختفت تماماً عن وجه البسيطة: الآلات الكاتبة اليدوية، أقلام الحبر، الساعات الميكانيكية، أجهزة المذياع القديمة، المسجّلات، الدمى الخربة، ماكينات العلك(*)، والهواتف ذات الأرقام الدوّارة. ليس بالأمر العظيم الشأن أن تسعين بالمئة ممّا يكسبه يأتي من صنع إطارات الصور. عمله يوفّر خدمة فريدة، لا تُقدَّر بثمن، وكل مرّة يعمل على شيء جديد خرب من صناعة الأنتيكا قبل نصف قرن من الزمن، فإنه يفعل ذلك بإرادة وشغف جنرال يخوض الحرب.

الملموسيّة. هذه هي الكلمة التي غالباً ما يستعملها حينما يناقش

(*) Gumball Machines ماكينة العلك هي لعبة أو جهاز تجاري، وهي أحد أنواع البيع بالجملة، والتي تصرف العلكة بمقابل بسيط عادة (المصدر: ويكيبيديا).

Tele: @Arab_Books

أفكاره مع أصدقائه. العالم حسيّ، يقول. البشر حسيّون. لقد أُنعم عليهم بالأجساد، ولأن هذه الأجساد تتألم وتمرض وتموت، فإن الحياة البشرية لم تتغيّر، ولو بمقدار ضئيل منذ بدايتها. صحيح أن اكتشاف النار أمَدَّ الإنسان بالمزيد من الدفء، ووضع حدّاً لتناوُل اللحم النيء؛ وبناء الجسور مكّنه من عبور الأنهر والجداول دون أن تتبلّل قَدَمَاه؛ واختراع الطائرة سمح له بالقفز فوق القارّات والمحيطات متسبّباً بنشوء ظواهر جديدة من مثل معايشة اختلاف التوقيت وأفلام ما بين الرحلات - ولكنْ، حتّى لو أن الإنسان غيّر العالم من حوله، فإنه هو نفسه لم يتغيّر. حقائق الحياة ثابتة. فأنت تعيش، ثمّ تموت. تُولَد من جسد امرأة، وإذا تمكّنتَ من عبور الولادة، فإن على أمّكَ أن تغذّيكَ، وتعتني بكَ، لكي تضمن أن تستمرّ في الحياة، وكل شيء آخر يحصل لكَ منذ لحظة ولادتكَ حتّى لحظة موتكَ، كل عاطفة تجيش في داخلكَ، كل نزوة غضب، كل شهوة حارقة، كل نوبة بكاء، كلّ نوبة ضحك، كل شعور سيعتريكَ طوال حياتكَ، قد اعترى جميع مَنْ جاؤوا قبلكَ، سواء أكنتَ رجل كهف أم رائد فضاء، أكنتَ تعيش في صحراء جوبي(*) أم في الدائرة القطبية. هذا كله ظهر له كوحي مقدّس حين كان في السادسة عشرة من عمره. عثر صدفة على بعض الصور الفوتوغرافية للأشياء التي تمّ اكتشافها مع المخطوطات: أطباق وأدوات مائدة، سلال قشّ، قدور، أباريق، كلها بقيت سليمة تماماً. درسها بتؤدة طوال شهور وشهور، دون أن يفهم لماذا تفتنه هذه الأشياء إلى هذا الحدّ، ثمّ، بعد لحظات أخرى كثيرة، جاءه الإدراك. الأنماط التزيينية على الأطباق كانت مطابقة للأطباق في واجهة المتجر على الرصيف المقابل من شقّته. أما سلال القشّ، فمماثلة للسلال التي يستعملها ملايين الأوروبيّين للتّسوّق

---

*) صحراء جوبي (بالصينية: هانهاي(صحراء مترامية الأطراف في الجزء الشرقي من وسط اسيا. تفصل ما بين منغوليا الداخلية ومنغوليا الخارجية.

Tele: @Arab_Books

يومياً في وقتنا الراهن. الأشياء التي رآها في الصور كان يبلغ عمرها ألفَيْ عام، ومع ذلك، بدت جديدة تماماً، معاصرة كُلّيّاً. كانت تلك لحظة التنوير التي غيّرت طريقة تفكيره بالزمن البشري: إذا استطاع إنسان عاش من ألفي عام، في بقعة نائية من الإمبراطورية الرومانية، أن يصنع أداة منزلية، تبدو مطابقة لغرض آخر في زمننا، فلماذا افتراض أن تفكير ذلك الإنسان، أو قلبه أو كينونته الداخلية، مختلفة عنه هو؟ هذه هي القصّة التي لا يملّ تكرارها على مسامع أصدقائه، حجّته التي يدحض بها الاعتقاد السائد بأن التقانة الحديثة تُغيّر الوعي البشري. الميكروسكوبيات والتلسكوبات سمحت لنا برؤية المزيد من الأشياء أكثر من ذي قبل، يقول، ولكنّ أيّامنا ما نزال نعيشها في مجال الإبصار الطبيعي. الإيميلات أسرع من الرسائل المُرسَلَة بالبريد، يقول، ولكنْ، في نهاية المطاف ليست إلا شكلاً آخر من الكتابة بالحروف. ويطرح المثال بعد الآخر. يعرف أنه يثير جنونهم بتخميناته وآرائه، يُضجرهم بخُطبه الطويلة المهذارة، ولكنّ هذه أموراً مهمّة بالنسبة إليه، وما إن يبدأ بالكلام، حتّى يجد صعوبة في التّوقّف.

إنه رجل ضخم الجثّة كالدّبّ المهلهل، وله لحية بنّيّة بالكامل، ويضع قرطاً ذهبياً في أذنه اليمنى، يبلغ من الطول أقلّ من ستّة أقدام بإنش واحد، ولكنه يزن مئتَيْن وعشرين باونداً. زيّه الدائم يتكوّن من جينز أسود هابط تحت الخاصرة، وجزمة عمل صفراء، وقميص حطّاب بمربّعات. قلّما يغيّر ملابسه الداخلية. ويمضغ الطعام بصوت عال. لم يكن محظوظاً في الحبّ. وبين كل ما يفعله في حياته، فإن القَرْع على الطبول يمنحه المتعة القصوى. في طفولته كان صاخباً وافر النشاط عدوانياً، وحين أهداه والداه مجموعة طبول في عيد ميلاده الثاني عشر، آملين بأن تأخذ نوازعه التدميرية شكلاً جديداً، تبيّنتْ صحّة حدسهما. وبعد سبع عشرة عاماً، تطوّرت مجموعته من العدّة التقليدية (طبول السنابر والطم طم والطبول

Tele: @Arab_Books

الجانبية والباص، والصنوج المعلّقة والمزدوجة)، لتتضمّن أكثر من دزّينَتَيْن من الطبول من مختلف الأحجام والأشكال من حول العالم، ومن بينها المورومبا والباتي والدربوكة والأوكيدو والكلانغو وروميلوت والبودران والأدولا والإنغانو والكوبورو والتنغا والطابور. اعتماداً على الآلة الموسيقية يعزف إمّا على العصي أو المدقّات أو اليدَيْن. وتضمّ خزانته من آلات النقر، الآلات البديلة مثل الأجراس والنواقيس، والصناجات والخشخاشات، والرنانات والألواح والكلايمباس، ولكنه يعزف أيضاً بالسلاسل، والملاعق والحصب وورق السنفرة والشخشيخات. الفرقة التي ينتمي إليها تحمل اسم "موب رول"، ويقدّمون أمسيَّتَيْن أو ثلاثة كل شهر، غالباً في حانات صغيرة أو أندية في بروكلين ومانهاتن السفلى. وإذا كسبوا يوماً مالاً أكثر، فإنه سيتخلّى عن كل شيء، ويمضي بقية حياته متجوّلاً حول العالم معهم، لكنهم بالكاد يكسبون ما يكفي لتغطية تكاليف استئجار المكان الذي يتمرّنون فيه. يحبّ الصوت القاسي الناشز المرتجل الذي يخلقونه – فانك من كعب الدست – كما يسمّيه أحياناً – ولا يخلو الأمر من مريدين مخلصين لهم. ولكنهم ليسوا بالكثيرين، ولا حتّى بالكافين، ولذا فإنه يمضي الصباح والعصر في مستشفى الأشياء المحطّمة، مبروزاً ملصقات الأفلام، ومرمّماً الأشياء التي يعود صُنعها إلى زمن، كان جدّاه ما يزالان فيه مجرّد طفلَيْن.

حين أخبرتْه إيلين برايس أنها ستترك البيت في صانست بارك هذا الصيف، وجد ذلك فرصة، لكي يضع أفكاره موضع الاختبار، منتقّلاً بها إلى ما هو أبعد من الهجومات المَرئية المتوحّدة على النظام والمساهمة في عمل جماعي. وهذه أجرأ خطوة، يقوم بها حتّى الآن، وليست لديه مشكلة في التوفيق بين لا مشروعية ما يقومون به وحقّهم في القيام به. هذه أوقات بائسة للجميع، وبيت خشبي متداع، يقف شاغراً في حيٍّ رثٍّ كهذا الحيّ، ليس إلا دعوة مفتوحة للمخرّبين ومشعلي الحرائق، مصدر

Tele: @Arab_Books

مشكلات محتمل، يتوسّل أن يقوم أحدهم باقتحامه واحتلاله، خطر على رفاهية المجتمع. وباحتلالهم ذلك البيت، يقوم هو وأصدقاؤه بتوفير الأمن للشارع، مُيسِّرين الحياة على قاطنيه جميعهم. إنه تقريباً ديسمبر الآن، وقد كانوا يقيمون هنا منذ ما يقارب الأربعة شهور. لأنها كانت فكرته الانتقال إلى هناك في المقام الأوّل، ولأنه مَن اختار الجنود في جيشه الصغير هذا، ولأنه الوحيد الذي يعرف كل شيء عن النجارة والسمكرة والتمديدات الكهربائية، فإنه القائد غير الرسمي للمجموعة. ربّما لا يكون قائداً محبوباً، لكنهم يتسامحون معه، لأنهم جميعاً يعرفون أن التجربة ستفشل من دونه.

كانت إيلين أوّل مَنْ طلب منها ذلك. من دونها لما وَضَعَ قَدَمَاً في صانسست بارك، واكتشف البيت، وبالتالي بدا مناسباً مَنْحَهَا الحقّ في أن تكون أوّل الرافضين. لقد عرفها منذ الطفولة، حين ذهبا إلى الإعدادية معاً في الوست سايد الأعلى، ولكنْ، بعد ذلك فَقَدَا الاتّصال ببعضهما لسنوات، فقط ليكتشفا قبل سبعة شهور أنهما يعيشان في بروكلين، وأنهما كانا جارَيْن في "براك سلوب"، ليسا بالبعيدين عن بعضهما، إلى هذه الدرجة. دخلت إلى "المستشفى" ذات أصيل، لكي تضع إطاراً لصورة ما، وعلى الرغم من أنه لم يعرفها في البداية (هل يمكن لأيّ كان أن يميّز امرأة في التاسعة والعشرين رآها لآخر مرّة حينما كانت في الثانية عشرة؟)، فحين كتب اسمها على استمارة الطلب، أدرك فوراً أنها إيلين برايس التي عرفها في صغره. إيلين برايس الصغيرة الغريبة، وقد كبرت الآن، وتعمل وكيلة عقارات لمؤسّسة عند تقاطع الجادّة السابع والشارع التاسع، فنّانة في وقت فراغها بالطريقة نفسها التي هو فيها موسيقيّ في وقت فراغه، وإن كان لديه ظاهرياً مهنة على عكسها هي. في لقائهما الأوّل ذاك في المتجر، تخبّط في أسئلته الاعتيادية الودودة الخرقاء، وسرعان ما عرف أنها ما تزال عزباء، وأن والدَيْها تقاعدا في بلدة ساحلية في نورث كارولينا، وأن

Tele: @Arab_Books

شقيقتها حامل بصبيَّيْن. أما لقاؤه الأوّل مع ميلي غرانت، فكان ما يزال بعد ستّة أسابيع في المستقبل (ميلي نفسها التي سيحلّ محلّها مايلز هيلر)، ولأنه و"إلين" كانا متوافرَيْن رسمياً، فقد دعاها لشراب. ولم ينتج شيء عن ذلك اللقاء، ولا عن العشاء الذي دعاها إليه بعد ثلاث ليال، ولكنْ، لم يكن شيء بينهما كطفلَيْن، واستمرّ الحال كذلك في مرحلة البلوغ. إلا أن كليهما كان حُرّاً، وحتّى إن لم تكن العلاقة الرومانسية واردة، فقد واصلا التقابل من وقت لآخر، ونشأت بينهما صداقة متواضعة. لم يشكّل فرقاً بالنسبة إليه أنها لم تحبّ أمسيّات "موب رول" التي حضرتْها (الفوضى المقعقة لعملهم لم تكن للجميع)، ولا كان مفرط الاهتمام بأنه وجد رسوماتها ولوحاتها بليدة (شديدة التدقيق، حسنة التنفيذ، مشاهد من الحياة الساكنة والمدينية، شعر أنها تفتقر إلى أيّ لمعان أو أصالة). ما عناه في الأمر هو أنها بدت تستمتع بالتّحدّث إليه، وأنها لا تخذله حين يتّصل بها. أحسّ برابط ما مع الوحدة الذي تُغلّفها، وتأثّر بالطيبة والهشاشة اللّتَيْن رآهما في عينَيْها، ومع ذلك، كلّما تعمّقت صداقتهما، شعر أنه أقلّ فَهْماً لها. إيلين لم تكن بالمرأة المفتقرة للجاذبية. جسدها نحيف، ووجهها يسرّ الناظر، ولكنْ، كانت تنبعث منها هالة من القلق والانهزام، ومع شحوب جلدها وشعرها الأملس المفتقر للشهوانية، تساءل إذا ما كانت غارقة في نوع ما من الكآبة، تعيش أيّامها في غرفة سفلية في فندق الكآبة. كلّما رآها، يفعل كل ما في مقدوره ليُضحكها، ومحقّقاً نتائج مختلطة من ذلك.

في مطالع الصيف، في اليوم القائظ نفسه الذي انتقلت فيه بيلار إلى السَّكَن مع مايلز هيلر في جنوبي فلوريدا، وقعتْ كارثة في الشمال. كان عقد تأجير "مستشفى الأشياء المحطّمة" على وشك الانتهاء، ومالك المتجر يطالب بزيادة عشرين بالمئة لتجديد العقد. شرح له أنه لا يمكنه

Tele: @Arab_Books

تحمُّل هذه الزيادة، وأن هذه الإضافة على الأجر سوف تتسبّب بإفلاسه، ولكن السافل رفض التنازُل. فكان الحلّ الوحيد أمامه أن يترك شقّته، ليجد مسكناً أرخص في مكان آخر. إيلين التي تعمل في قسم التأجير بمكتب العقارات في الجادّة السابعة أخبرتْه عن صانست بارك. الحيّ أقسى، قالت له، ولكنه ليس ببعيد عن مكان سَكَنه الآن، والإيجارات تقلّ إلى النصف أو الثلث عمّا هي عليه في بارك سلوب. في يوم الأحد ذاك، ذهب كلاهما لاستكشاف المنطقة بين شارعَي ١٥ و٦٠، في غربي بروكلين، منطقة شاسعة تمتدّ من خليج نيويورك الأعلى إلى الجادّة التاسعة، ويقيم فيها أكثر من مئة ألف شخص، بمَنْ فيهم المكسيكيون والدومينيكيون والبولنديون والصينيون والأردنيون والفييتناميون والأمريكيون البيض والأمريكيون السود، ومجموعة مسيحيّيْن من غوجارات الهندية. مستودعات، معامل، منشآت بَحْرِيّة مهجورة، تمثال الحُرّيّة، محطّة الجيش المقفلة التي كان يعمل بها في السابق عشرة آلاف شخص، كنيسة تحمل اسم "سيّدة المعونة الأبدية"، حانات درّاجين، محلات صرافة ، مطاعم إسبانية، ثالث أكبر تشايناتاون في نيويورك، ومقبرة غرينوود الممتدّة على أربعمائة وسبعة وثمانين أكرة، حيث يرقد ستّمائة ألف ميّت، بمَنْ فيهم بوس تويد ولولا مونتيز، كارير أند أيفز وهنري وورد بيتشر، وأف أيه أو شوارز ولورنزو دا بونتي وهوراس غريلي ولويس كومفورت تيفاني وصموئيل أف بي مورس وألبرت أناستاسيا وجوي غالو وفرانك مورغان – ذلك الذي يلعب دور الساحر في "ساحر أوز".

أرتْه إيلين ستّة أو سبعة خيارات في ذلك اليوم، إلا أن أيّاً منها لم يُعجبه، ثمّ، وبينما يمشيان على أطراف المقبرة، دخلا بصورة عشوائية إلى مبنى مهجور بين الجادّتَيْن الرابعة والخامسة، ورأيا المنزل، منزل خشبيّ صغير رثّ، من طابقَيْن مع شرفة أمامية مسقوفة، تبدو للعالم كله استُلّتْ من

Tele: @Arab_Books

مزرعة في براري منيسوتا، وحطّتْ بالخطأ في قلب نيويورك. ويقع المنزل بين مرأب شاغر مليء بالقمامة مع هيكل سيّارة فيه، والعظام المعدنية لبيت صغير، توقّف البناء فيه منذ أكثر من سنة. أما المقبرة، فكانت قبالة الطريق مباشرة، ممّا يعني أنه لم يكن من منازل على الجانب الآخر من الشارع، وهو ما يعني أيضاً أن البيت غير مَرئي على الإطلاق، بما أنه يقع في مربّع سَكَنيّ، لا يعيش فيه أحد تقريباً. سأل إيلين ما إذا كانت تعرف شيئاً عنه. فقالت إن مالكيه قد توفّوا، ولأن أبناءهم لم يسدّدوا ضرائب الملكية منذ سنوات، فقد أصبح البيت ملْكاً للبلدية.

بعد شهر من ذلك، حين قرّر فعل المستحيل، والمخاطرة بكل شيء من أجل فرصة العيش في بيت بلا إيجار حتّى تعرف البلدية بالأمر، وتطرده، ذُهل من موافقة إيلين على العرض. حاول أن يُقنعها بعكس ذلك، شارحاً لها مدى صعوبة الأمر والمتاعب التي قد يتورّطان فيها، ولكنها تشبّثتْ بموقفها، قائلة إن بلى تعني بلى، ولماذا يتجشّم عناء السؤال إذا كان يريدها أن ترفض؟

اقتحما البيت ذات ليلة، واكتشفا أنه يضمّ أربع غرف نوم، ثلاث صغيرة في الطابق الأعلى، ورابعة كبيرة في الطابق الأرضي، والتي كانت جزءاً من امتداد للبيت، بُني في الجهة الخلفية من المنزل. كان المنزل في حال يُرثى لها، الأرضيات كلها مُغطّاة بالغبار والسخام، والمياه ترشح من الجدار وراء مغسلة المطبخ، ومشمّع الأرضية متشقّق، والألواح الأرضية متصدّعة، وثمّة مجموعة من الفئران أو السناجب تقوم بسباقات بالتناوب تحت السقف، وطاولة متداعية، وكراس بلا قوائم، والعناكب تعشّش في أركان السقف، ولكنْ، من المدهش بما فيه الكفاية أن نوافذه جميعها كانت سليمة، وحتّى لو كانت صنابير المياه تتدفّق منها المياه بنّيّة، لتبدو أقرب

Tele: @Arab_Books

إلى شاي الإفطار الإنكليزي، فإن التمديدات الصّحّيّة كانت سليمة. بعض الشغل، قالت إيلين، هذا كل ما يتطلّبه الأمر. وبعد أسبوع أو اثنَيْن من الحفّ والطلاء، سيكون البيت جاهزاً للسَّكَن.

أمضيا الأيّام العديدة التالية باحثين عن أشخاص، يملؤون الغرفتَيْن المتبقّيَتَيْن، ولكن أحداً من المجموعة لم يُبد اهتمامه، وبينما أخذ يبحث في قائمة أصدقائه الآخرين ومعارفه، اكتشف أن فكرة العيش بالاحتلال في بيت مهجور لا تلاقي قبولاً واسعاً، مثلما يجدر بها. ثمّ حصل أن تكلّمتْ إيلين مع أليس برغستروم، زميلتها السابقة في السَّكَن أيّام الكُلّيّة، وعلمتْ منها أنها ستُطرد من شقّتها المؤجّرة من الباطن في مورنينغسايد هايتس. كانت أليس تدرس عامها الأخير في جامعة كولومبيا، وقد قطعتْ شوطاً لا بأس به في أطروحتها التي تأمل بإنهائها في غضون عام، والانتقال للسَّكَن مع حبيبها، كان أمراً غير وارد على الإطلاق. وحتّى لو أرادا العيش معاً، فذلك لن يكون ممكناً. فشقّته مجرّد استوديو أصغر من صغير، ولم يكن من مجال لشخصَيْن للعمل هناك في آن معاً. وكان كلاهما بحاجة إلى ذلك. جايك باوم روائيّ، حتّى الآن يكتب حَصْراً القصص القصيرة (التي نُشر بعضها، ومعظمها لم يُنشَر)، وبالكاد كان يتمكّن من العيش بالراتب الذي يجنيه من عمله مدرّساً بدوام جزئيّ في معهد في كوينز. لا مال لديه يقرضه لأليس، ولا يمكنه تقديم المساعدة لها في بحثها عن شقّة جديدة، وبما أن أليس أيضاً كانت على حافة الإفلاس، فلم تكن تعرف ماذا تفعل. منْحَتُهَا تضمّنت معونة مالية صغيرة، لكنها لا تكفي للعيش، وحتّى مع عملها الجزئي في مركز "بين أمريكان"، ضمن برنامج "حُرّيّة الكتابة"، فقد كانت تعيش على نظام غذائيّ، يتكوّن من عصائب المعكرونة بالزبدة والأرز والفاصولياء، ومن وقت لآخر، شطائر البيض. حين سمعتْ إيلين قصّة صديقتها، اقترحتْ أنها ستُكلّم بينغ بالأمر.

Tele: @Arab_Books

التقى ثلاثتهم في حانة في بروكلين مساء اليوم التالي، وبعد التّحدّث لعشر دقائق، اقتنع بأن أليس ستُشكّل إضافة مهمّة للمجموعة. كانت طويلة ضخمة الجرم، اسكندنافية من وسكنسن، ولها وجه مدوّر، وذراعان لحيمتان، شخص ضخم الجثّة وجِدّيّ، وحَدَثَ أيضاً أنه ذرب اللسان، ويتمتّع بروح الدعابة – وهي توليفة نادرة، كما أحسّ، ممّا جعل حظوظها مؤكّدة. وبالقدر نفسه من الأهمّيّة، أحبّ حقيقة أنها صديقة إيلين، وهذه كانت قد أثبتتْ أنها صديق حميم، يستأهل الإعجاب، لأسباب لن يفهمها، تبنّت بالكامل مشروعه المجنون المثالي، ولكنه ما يزال يشعر بالقلق حيالها، وما يزال يشغله حزنها الدائم الذي بدا أنه يرافقها أينما حلّتْ، وأحسّ بالراحة حين رآها، وقد تخفّفتْ قليلاً بحضور أليس، وبدتْ أكثر سعادة وحيوية، بينما جلس ثلاثتهم يتكلّمون في الحانة، وأمل أن مشاركة السَّكَن مع صديقتها الحميمة ستكون علاجاً مناسباً لها.

قبل أن يلتقي أليس برغستروم، كان تعرّف على ميلي غرانت، ولكنْ، تطلَّبَه الأمر بضعة أسابيع بعد ليلة الحانة تلك، لكي يستجمع شجاعته، ويسألها إذا كانت مهتمّة في شغل الغرفة الرابعة والأخيرة. كان قد وقع في غرامها في ذلك الحين، بل أُغرم بها على نحو لم يعهده من قبل، وكان أشدّ خوفاً من أن يسألها لأن احتمال أن تخذله كان يفوق احتماله. كان في التاسعة والعشرين، وحتّى مصادفته ميلي بعد أمسيّة للموب رو في باريز في اليوم الأخير من الربيع، فإن تاريخه مع النساء اتّسم بالفشل المتواصل التّامّ. كان ذلك الصبي البدين الذي لم يحظَ برفيقة في المدرسة، الساذج الأخرق الذي لم يفقد عذريّته حتّى بلوغه العشرين، عازف طبول الجاز الذي لم يتعرّف يوماً بغريبة في ناد ليلي، الأبله الذي يشتري الشهوة باليد من بائعات الهوى حينما يشعر باليأس، المغفّل الجائع للجنس الذي يمارس العادة السّرّيّة على الصور البورنوغرافية في عتمة غرفة نومه. لم يكن يعرف

Tele: @Arab_Books

شيئاً عن النساء. كانت خبرته معهنّ أقلّ من معظم البالغين. كان يحلم بالنساء، ويسعى وراءهنّ، وأعلن حبّه لهنّ، ولكنْ، مرّة بعد مرّة تعرّض للصّدّ. وفي هذه المرحلة، كان على وشك أن يقوم بالمقامرة الأكبر في حياته، بينما وقف على شفير الاحتلال غير الشرعي لبيت في صانست بارك، وربّما ينتهي به الأمر في السجن، كان سيفعل ذلك مع مجموعة مُكوّنة بالكامل من النساء. ساعة انتصاره قد حلّتْ أخيراً.

لماذا أُغرمت به ميلي؟ لا يعرف ذلك تماماً. لا يمكنه التأكّد من شيء حينما يتعلّق الأمر بالحقل الضبابي للانجذاب والرغبة، ولكنه يظنّ أن الأمر ربّما يكون متعلّقاً بالمنزل في صانست بارك. ليس المنزل نفسه، ولكن خطّة الانتقال إليه، والتي كانت تدور في رأسه وقت لقائهما، متحوّلة من مجرّد نزوة واحتمال غامض إلى قرار حاسم بالمبادرة، ولابدّ من أنه كان يتحرّق بهذه الفكرة ليلتها، باثّاً سيلاً من الشعلات الذهنية التي أحاطتْه مثل حقل مغناطيسي، وشحنت الجوّ بطاقة جديدة وحيوية، قوّة لا تُقاوَم، ممّا جعله ربّما أكثر جاذبية وإثارة من العادة، وهذا يفسّر على الأرجح سرّ انجذابها إليه. ليست بالفتاة الجميلة، لا، ليس بالمقاييس التقليدية التي تُعرِّف الجمال (الأنف المستدقّ، العين اليسرى التي فيها شيء من الحول، الشفتان الرفيعتان جدّاً)، ولكنها كانت صاحبة شعر أحمر رائع، وجسد لدن فتّان. انتهى بهما الأمر في السرير معاً تلك الليلة، وحين عرف أنها لم تنطفئ رغبتها تجاهه جرّاء بدانته الفظّة الرهيبة، دعاها إلى العشاء في الليلة التالية، وانتهى الأمر بهما في السرير ثانية. ميلي غرانت، راقصة بدوام جزئي في السابعة والعشرين، ونادلة مطعم بدوام جزئي، وُلدت ونشأت في ويتن إيلينوي، تضع أربعة أوشام صغيرة وحلقة على سرّتها، وتؤيّد نظريات المؤامرة التي لا تنتهي (من اغتيال كنيدي، إلى هجمات الحادي عشر من أيلول، ومخاطر نظام مياه الشقّة العمومي)، محبّة للموسيقى الصاخبة،

وثرثارة دائمة، نباتية، ومدافعة عن حقوق الحيوانات، شديدة المرح، ولها ضحكة تُفرقع كالرشّاش - شخص يتشبّث به المرء، ليكون بصحبته في المسافات الطويلة. لكنه لم يستطع التّشبّث بها. لا يعرف ما الخطأ الذي حدث، ولكنْ، بعد شهرَيْن ونصف الشهر من العيش الجماعي في البيت، نهضتْ ذات صباح، وأعلنتْ أنها راحلة إلى سان فرانسيسكو، لتنضمّ إلى فرقة رقص جديدة. أخبرتْه أنها قامت بتجربة أداء في الربيع، وكانت آخر شخص يُرفَض، ولكنْ، بعد أن حملت إحدى الراقصات، وأُجبرت على تَرْك الفرقة، فقد تمّ توظيفها. آسفة بينغ، كانت علاقتنا لطيفة، وما إلى ذلك، ولكنْ، هذه الفرصة التي كانت تنتظرها، وستكون حمقاء، إن لم تغتنمها. لم يعرف ما إذا كان يصدّقها أم لا، سواء أكانت سان فرانسيسكو قناعاً لإنهاء العلاقة أم أنها مسافرة راحلة بالفعل إلى هناك. الآن وقد رحلتْ، يتساءل ما إذا بارعاً كفاية معها في السرير، إذا كان قادراً على إرضائها جنسياً، أم العكس تماماً إذا شعرت أنه مهتمّ أكثر من اللازم بالجنس، وإذا كان كلامه القذر كله عن الممارسات الغريبة التي شهدها في الأفلام الخلاعية، أدّى في النهاية إلى نفورها منه. لن يعرف أبداً. فهي لم تتّصل به منذ صبيحة مغادرتها البيت، ولم يكن يتوقّع أن يسمع منها ثانية.

بعد يومَيْن من رحيل ميلي، راسل مايلز هيلر. ربّما يكون قد تسرّع بعض الشيء، مُدّعياً وجود أربعة أشخاص في البيت بدلاً من ثلاثة، ولكن أربعة رَقْم أفضل من ثلاثة على نحو ما، ولم يرد أن يظنّ مايلز أن عصيانه الفوضوي كان محصوراً به، وبامرأتَيْن فقط. في تفكيره كان الشخص الرابع هو جايك باوم، الكاتب، وبينما من الصحيح أن جايك يأتي لزيارة أليس مرّة أو اثنتَيْن في الأسبوع، لكنه ليس عضواً دائماً من الساكنين. ويشكّ بأن مايلز سيهتمّ بالعرض، ولكنْ، إذا اهتمّ، فسيكون من السهل اختراع أيّ عذر، يتعلّق بغياب العنصر الرابع.

Tele: @Arab_Books

يحبّ مايلز هيلر، ولكنه يحسبه أيضاً مجنوناً، ويسرّه أن نمط عيش صديقه المتوحّد الشبيه بالكاوبوي شارف على الانتهاء أخيراً. قبل سبع سنوات، حين تلقّى أوّل رسالة من الخمسين رسالة التي كتبها مايلز له، لم يتردّد بالاتّصال بموريس هيلر، وإخباره بأن ابنه على قيد الحياة، كما كان يخشي الجميع، لكنه يعمل طبّاخاً مؤقّتاً في مطعم بجنوب شيكاغو. كان قد مضى على اختفاء مايلز حينها ستّة شهور. بعد اختفائه مباشرة، دعا موريس وويلا بينغ إلى شقّتهما، لكي يسألاه عنه، ويعرفا منه ما قد يكون حصل له. سوف لن ينسى كيف انفجرت ويلا بالبكاء، ولا الألم على وجه موريس. لم يكن لديه ما يقترحه بهذا الشأن بعد ظهر ذلك اليوم، لكنه وعد بأنه إذا سمع منه أو عنه، فسوف يتّصل بهما فوراً. يُحزنه أن موريس وويلا لم يركبا أوّل طائرة إلى أيّ من الأمكنة العديدة التي تنقّل بينها مايلز – لا لكي يجرّاه للعودة بالضرورة، ولكنْ، لكي يُجبراه على تفسير موقفه. لكن موريس يقول إنه ليس ثمّة ما يمكن فعْلُه. ما دام الفتى يأبى العودة إلى البيت، فليس من خيار أمامهما سوى الانتظار أملاً بأن يغيّر رأيه في نهاية المطاف. بينغ مسرور، لأن موريس هيلر وويلا باركس ليسا والدَيْه. لا ريب في أنهما شخصان صالحان، ولكنهما ليسا بأقلّ جنوناً وعناداً عن مايلز.

Tele: @Arab_Books

أليس برغستروم

لا أحد يراقبهم. لا أحد يهمّه أن المنزل الآن مشغول. لقد استقرّوا فيه.

حين حسمت أمرها، وقرّرت الانضمام إلى بينغ وإيلين الصيف الفائت، تخيّلت أنهم سيُجبرون على العيش في الظلّ، منسلّين دخولاً وخروجاً من الباب الخلفي، بعيداً عن أعين الرقباء، مختبئين وراء ستائر ثقيلة لمنع أيّ ضوء من التسلّل عبر النوافذ، قلقين ومتلفتين حولهم على الدوام، خشية من افتضاح أمرهم في أيّة لحظة. وقد قبلت هذه الشروط، بسبب يأسها الشديد، وشعورها بأنه ليس من خيار آخر أمامها. فقد فقدت شقّتها، وكيف يمكن لأيّ كان أن يستأجر شقّة جديدة، في حين أنه لا يملك المال؟ ستكون الأمور أسهل، لو استطاع والداها مساعدتها، لكنهما بالكاد يتدبّران أمورهما، ويعيشان على حوالات الضمان الاجتماعي والكوبونات المقتطعة من الصحف بحثاً عن صفقات محتملة وتنزيلات وتحايلات، من شأنها توفير بعض القروش من أكلاف عيشهما الشهري. توقّعت أن يكون الأمر مزعجاً، حياة وضيعة محفوفة بالخوف في حفرة متهدّمة، تُسمّى بيتاً، ولكنها كانت مخطئة حيال ذلك، مخطئة حيال العديد من الأمور، وحتّى لو كان بينغ لا يُطاق في بعض الأحيان، وهو يضرب الطاولة بقبضته، ويعذّبهم بخطبة أخرى من خطبه المزعجة، شارباً حساءه بسرعة، ومتنطّقاً بشفتَيْه، وتاركاً فتات الخبز يسقط على لحيته، فقد أساءت تقدير ذكائه، وأخفقت في إدراك أنه وضع خطّة منطقية تماماً. لن يدخلوا أو يخرجوا متسلّلين، قال،

Tele: @Arab_Books

فالتّصرّف وكأنهم لا ينتمون إلى المكان سوف يُنبّه الجيران إلى حقيقة أنهم متطفّلون. عليهم أن يتنقّلوا في وضح النهار، وأن يرفعوا رؤوسهم مدّعين أنهم المالكون الشرعيون للبيت الذي اشتروه من البلدية مقابل مبلغ زهيد جدّاً، أجل، أجل، مبلغ زهيد بصورة لا تُصدَّق، لأنهم وفّروا على البلدية كلْفة هدم البيت. كان بينغ محقّاً، فسكّان الحيّ صدّقوا القصّة. بعد أن انتقلوا إلى البيت في أغسطس الماضي، كان ثمّة بعض الفضول حيال دخولهم وخروجهم، ولكنْ، سرعان ما اعتاد السّكّان القليلون هناك وجودهم. لم يعد أحد يراقبهم، ولا أحد يكترث بوجودهم. منزل آل دونهيو القديم بيع أخيراً، الشمس ما تزال تشرق وتغرب، الحياة مستمرّة، كأن شيئاً لم يكن.

خلال الأسابيع القليلة الأولى، بذلوا قصارى جهدهم لكي يجعلوا الغرف قابلة للسَّكَن، منقضّين بدأب على أشكال التّحلّل والخراب كلها، معاملين كل مهمّة، وكأنها عمل إنسانيّ أساسيّ، وشيئاً فشيئاً حوّلوا تلك الزريبة المتداعية إلى مكان، يمكن، ببعض المبالغة، عَدّه كوخاً. إنه أبعد ما يكون من المريح، فثمّة الكثير من الأمور غير المناسبة التي تُقلق راحتهم يومياً، والآن بعد أن برد الطقس، فثمّة هواء بارد يتسرّب إليهم عبر آلاف الشقوق في الجدران، مجبراً إيّاهم على ارتداء السترات الثقيلة، ووضع الجوارب صباحاً. لكنها لا تتذمّر. عدم الاضطرار إلى دَفْع الإيجار أو فواتير الخدمات طوال الشهور الأربعة الماضية وفّر عليها ما يقارب ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار، وللمرّة الأولى منذ زمن طويل يمكنها التّنفّس دون أن تشعر بضيق في صدرها، من دون الإحساس بأن رئتَيْها على وشك الانفجار. عملها في الأطروحة يمضي قدماً، يمكنها رؤية النهاية تلوح في الأفق، وتعرف أنها تملك الجَلَدَ على الإنهاء. نافذة غرفتها تواجه المقبرة، وهي تكتب أطروحتها على المكتب الصغير تحت النافذة، وغالباً ما تُحملق في غرينوود الشاسعة الصامتة، وتجيل نظرها في المكان، أكثر من نصف مليون جثّة

Tele: @Arab_Books

مدفونة هنا، وهو الرَّقْم نفسه تقريباً لسكّان ميلواكي، المدينة التي وُلدت بها، التي ما يزال معظم أفراد عائلتها يعيشون فيها، وتجد من الغريب، بل من المخيف أن ثمّة تحت التراب قبالة نافذتها العدد نفسه من السّكّان الذين يعيشون في مسقط رأسها.

ليست آسفة على رحيل ميلي. بينغ ما يزال يعاني صدمة خروج صاحبته المفاجئ من البيت، لكنها تشعر أن المجموعة ستكون أفضل حالاً من دون هذه العاصفة حمراء الشعر الغاضبة المليئة بالتعليقات الساخرة الجارحة وعديمة الإحساس، التي لا تشارك في غسل أطباق الغداء، وتُزعج الآخرين بصوت مذياعها المرتفع، التي سحقتْ إيلين الهشّة بتعليقاتها على رسوماتها ولوحاتها. رجل يُدعى مايلز هيلر سوف ينضمّ إليهم غداً أو بعد غد. ويقول بينغ إنه أذكى وأكثر شخص إثارة للاهتمام عرفه في حياته. من الواضح أن علاقتهما تعود إلى سنّ المراهقة، خلال السنوات الأولى من الثانوية، ولذا فإن صداقتهما مديدة بما فيه الكفاية لكي يكون بينغ عالماً بما يقوله – وهو متطرّف بالأحرى برأيها، ولكن بينغ معتاد دوماً على المبالغة، والوقت وحده كفيل بأن يُثبت ما إذا كان السنيور هيلر يرقى إلى مثل هذه التوصية القويّة.

إنه يوم سبت عادي في بداية ديسمبر، وهي الوحيدة في البيت. بينغ غادر منذ نحو ساعة لكي يتمرّن مع فرقته، وإيلين تمضي النهار مع شقيقتها وطفلَيْها التوأمَيْن في الجانب الغربي الشمالي لمنهاتن(*)، وجايك في مونتكلير نيوجيرسي، يزور شقيقه وزوجته، التي وضعت طفلاً للتّو. الأطفال يبرزون في كل مكان، في كل جزء من الكوكب النسوة ينتفخنَ، ويتدوّرنَ، ويتقيّأنَ كتائب جديدة من المواليد الجدد، مؤدّيات دورهنّ في استمرار

(*) Upper West Side هو أحد أحياء مانهاتن, نيويورك, بين سنترال بارك و نهر هدسون و بين شارع ٥٩th وشارع ١١٠th

Tele: @Arab_Books

الجنس البشري، وفي مرحلة ما في مستقبل ترجوه غير بعيد، تأمل بأن تضع رحمها في الاختبار، وترى إذا كانت قادرة على المساهمة مثلهنّ. كل ما يتبقّى هو اختيار الأب المناسب. ومنذ زهاء عامَيْن، شعرتَ أن هذا الشخص هو جايك باوم، ولكن الشكوك بدأت ترادوها حياله، ثمّة شيء يبدو أنه يتداعى بينهما، ثمّة انحتات يومي صغير بدأ يشوّه الأرض التي يقفان عليها، وإذا استمرّت الأمور بالتدهور، فلن يطول الوقت قبل أن تنمحي خطوط شاطئ علاقتهما، وتغرق قرى بأكملها تحت الماء. قبل ستّة شهور ما كانت لتفكّر في الأمر، أما الآن، فتتساءل ما إذا كانت ترغب في الاستمرار معه. جايك لم يكن يوماً بالشخص الماهر في التواصل، ولكنْ، ثمّة كياسة فيه أعجبتْها، كما أعجبتْها مقاربته التّهكّمية الساحرة للعالم، وجعلتْها تشعر بأنهما متوافقان بصورة غير مُعلَنَة. لكنه بدأ يبتعد عنها، ويبدو حانقاً مهموماً، وقد انتقلت تهكّماته الخفيفة سابقاً مستوى جديداً، حيث لا يبدو أنه يسأم أبداً من ازدراء طَلَبَته وزملائه المعلّمين. كُلّيّة "لاغوارديا كوميونيتي" أصبحت تُسمّى بالنسبة إليه "معهد الهراء"، أو "كُلّيّة مسح المؤخّرات"، أو "المعهد المتقدّم لدراسات التّخلّف". لا تحبّ سماعه يتكلّم بهذه الطريقة. فَطَلَبَتُهُ فقراء في الغالب، مهاجرون من الطبقة العاملة، يدرسون ويعملون في الوقت نفسه، وهو ليس بالوضع السهل مثلما تعرف جيّداً، ومَنْ هو ليسخر منهم لأنهم يريدون التّعلّم؟! بالنسبة إلى كتابته الأمر سيان بهذا القدر أو ذاك. فيض من التعليقات اللاذعة، كلّما رُفضت له قصّة جديدة، ازدراء حادّ للأوساط الأدبية، ضغينة دائمة ضدّ كل محرّر، لم يتمكّن من رؤية مواهبه. وهي مقتنعة بأنه موهوب، أن عمله يتقدّم، لكنها موهبة صغيرة بنَظَرِها، وتوقّعاتها لمستقبله صغيرة كذلك. ربمّا كان هذا جزء من المشكلة. ربمّا يشعر بأنها لا تؤمن فيه كفاية، وعلى الرغم من كلامها التشجيعي كله له، الأحاديث الطويلة كلها التي

Tele: @Arab_Books

استذكرت فيها النضالات الأولى لهذا الكاتب المهمّ أو ذاك، لا يبدو أنه يقتنع بكلامها. لا تلومه لشعوره بالإحباط، ولكنْ، هل تريد أن تُكمل حياتها مع رجل مُحبَط، رجل يغدو بسرعة فاشلاً في نَظَر نفسه؟ ومع ذلك، عليها ألا تغالي. فغالباً ما يكون لطيفاً معها، ولم يلمح ولو مرّة أنه سئم علاقتهما، ولم يقترح مرّة الانفصال. ما يزال يافعاً في نهاية المطاف، لم يبلغ الحادية والثلاثين، وهذا يُعدّ صغيراً بالنسبة إلى كاتب، وإذا ظلّت قصصه تتطوّر، فثمة فرصة بأن شيئاً سيحدث، نجاحاً من هذا النوع أو ذاك، ومعه سترتفع معنوياته بلا شكّ. لا، يمكنها أن تحتمل خيبات أمله لو اضطرّت إلى ذلك، هذه ليست هي المشكلة، يمكنها تحمُّل أيّ شيء، ما دامت تشعر بأن صلته قوية معها، ولكن هذا بالضبط ما لم تعد تشعر به، وحتّى لو بدا راضياً في أن يمضي معها انطلاقاً من عادات قديمة، انعكاسات المشاعر القديمة، فإنها تغدو متيقّنة أكثر فأكثر، لا، كلمة تيقّن مبالغ بها، فإنها باتت أكثر من أيّ وقت مستعدّة للتفكير بأنه ما عاد يحبّها. لا يتعلّق الأمر بأيّ كلام قد يقوله، بل بالطريقة التي بات ينظر بها إليها، وخلال الشهور القليلة الماضية، دون أيّ اهتمام ملحوظ، عيناه فارغتان، فاقدتان التركيز، وكأن النَّظَر إليها لا يختلف عن النَّظَر إلى ملعقة، أو منشفة، أو بقعة غبار. ونادراً ما يلمسها حين يكونان وحدهما، وحتّى قبل أن تنتقل إلى البيت في صانست بارك، فإن حياتهما الجنسية كانت في انحدار شديد. وهذا لبّ الموضوع، لا ريب في أن القضية تبدأ وتنتهي هنا، وهي تلوم نفسها على ما حَصل، لا يمكنها ألا تعتقد أن اللوم برمّته يقع عليها. لطالما كانت شخصاً ضخماً، أضخم جرماً من سائر الفتيات في المدرسة – أطول وأعرض وأكثر رياضية، ولكنها لم تكن يوماً سمينة، ولا زائدة الوزن، بالنسبة إلى حجمها، لكنها ضخمة فحسب. حين التقت جايك قبل سنتَيْن ونصف السنة، كانت بطول خمسة أقدام وعشرة إنشات،

ووزنها مئة وسبعة وخمسون باونداً، ومع أن طولها لم يتغيّر، لكن وزنها بات مئة وسبعين. وهذه الباوندات الثلاثة عشر هي الفارق بين امرأة قوية مهيبة وامرأة ضخمة. وقد التزمت الحمية منذ سَكَنها في صانست بارك، ولكنْ، مهما حدّت من استهلاكها للوحدات الحرارية، فإنها لم تُفلح في خسارة أكثر من ثلاثة أو أربعة باوندات، تعاود كسبها دوماً في غضون يوم أو اثنَيْن. جسدها بات يصدّها، ولم تعد تمتلك الجرأة على النَّظَر إلى نفسها في المرآة. أنا بدينة، تقول لجايك. تردّد ذلك مرّة بعد مرّة، أنا بدينة، بدينة، غير قادرة على مَنْع نفسها من تكرار الكلمة، وإذا كانت هي تنفر من منظر جسدها، فتخيّل شعوره هو حين تخلع ملابسها، وتتمدّد على السرير معه.

الأضواء تخبو الآن، وهي تنهض من سريرها، لكي تبدّل مصباحاً، تقول لنفسها إنها يجب ألا تبكي، إن الضعيفات والمخبولات يرثينَ أنفسهنّ، وبالتالي عليها ألا تشعر بالأسف على نفسها، لأنها ليست ضعيفة، ولا خرقاء، وهي تعرف أفضل من أن تفكّر أن الحبّ هو مسألة أجساد فحسب، أحجام الأجساد وأشكالها وبنيانها، وإذا لم يتمكّن جايك من التعايش مع حبيبته البدينة بعض الشيء، والتي تُخضع نفسها لحمية قاسية، فليذهب إلى الجحيم إذن. بعد لحظات، تكون جالسة إلى منضدتها أمام اللابتوب، وطوال النصف ساعة التالية تغرق في عملها، قارئة ومصحّحة الفقرات الأحدث من أطروحتها، التي كتبتْها صبيحة ذلك اليوم.

تدور أطروحتها حول أمريكا خلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، وتفحص من خلالها العلاقات والصراعات بين الرجال والنساء مثلما تتجلّى في الكُتُب والأفلام، في الأغلب الروايات البوليسية والأفلام الهوليوودية الشعبية، التي ظهرت بين ١٩٤٥ و١٩٤٧. ربمّا كان هذا مجالاً فضفاضاً، بالنسبة إلى دراسة أكاديمية، لكنها لا تتخيّل نفسها مُمضية بقية حياتها مقارنة بين إيقاعات بوب وبايرون (إحدى زميلاتها تفعل ذلك)

Tele: @Arab_Books

أو مُحلّلة الاستعارات في شعر ملفيل خلال الحرب الأهلية (زميلة أخرى تفعل ذلك). أرادت أن تنخرط في عمل أكبر، ذي جدوى إنساني، يدفعها إلى الانخراط به شخصياً، وهي تعرف أنها تعمل على هذا الموضوع، بسبب جَدَّيها وأعمامها وعمّاتها، الذين شاركوا جميعاً في الحرب، أو عاشوا فترة الحرب، والذين غيّرتهم الحرب إلى الأبد. وما تودّ إثباته هو أن القواعد التقليدية للعلاقة بين الرجال والنساء دُمِّرَت في ميادين القتال، وفي الجبهة الداخلية، وما إن انتهت الحرب، حتّى كان لزاماً إعادة اختراع الحياة الأمريكية. وقد حدّت نفسها ببضعة نصوص وأفلام، تلك التي تشعر بأنها الأكثر رمزية، التي تكشف روح تلك المرحلة بأوضح الأشكال وأقواها، ولقد كتبت أساساً فصلاً عن "كابوس مكيّف الهواء" لهنري ميلر، بغض النساء الوحشي في رواية "أنا لجنة المحلّفين" لميكي سبيلاين، شخصية الأنثى العاهرة والعذراء مثلما تتبدّى في فيلم جاك تورنير "من الماضي"، وقد حلّلتْ بدقّة كرّاسة معادية للنسوة، كانت الأكثر مبيعاً، تُدعى "المرأة المعاصرة: الجنس الضائع". والآن أوشكت على الكتابة عن فيلم وايلر لعام ١٩٤٦ "أحلى أيّام عمرنا"، وهو عمل محوريّ في أطروحتها، إذ تعدّه الملحمة القومية لتلك اللحظة المخصوصة في التاريخ الأمريكي - قصّة ثلاثة رجال، كسرتهم الحرب والصعوبات التي واجهوها لدى عودتهم إلى عائلاتهم، وهي القصّة نفسها التي عاشها الملايين في تلك الفترة.

البلاد بأكملها شاهدت هذا الفيلم الذي حصد جائزة أوسكار أفضل فيلم ومخرج ودور رئيس ودور مساند ومونتاج وموسيقى أصلية وأفضل سيناريو مقتبس، ولكنْ، في حين تجاوبَ معظم النقّاد معه بحماسة (أجمل تجسيد مُلهِم للشجاعة البشرية على شاشة السينما، مثلما كتب بوزلي كروثر في نيويورك تايمز)، فإن بعض الآخرين أبدوا قَدْراً أقلّ من الإعجاب. فازدراه ماني فاربر بوصفه عربة مليئة بالترهات العاطفية، وفي مقالته

Tele: @Arab_Books

الطويلة من جزءين، والتي نُشرت في "ذي نايشن"، أدان الناقد جايمس آغي الفيلم، وامتدحه، في آن معاً، عادّاً إيّاه مزعجاً في حيائه ونعومته، ثمّ ختم بالقول: مع ذلك أشعر أنني أكثر ميلاً بكثير للفيلم، ممّا للنفور أو خيبة الأمل منه. وهي توافق على أن الفيلم فيه عيوب، وأنه غالباً ما يكون أكثر ميوعة وعاطفية، ولكنْ، في نهاية المطاف تشعر بأن فضائله تتفوّق على نواقصه. التمثيل قويّ على امتداد الفيلم، النصّ مليء بالعبارات التي تعلق في الذاكرة (العام الفائت كان، اقتلوا اليابانيين، وهذه السنة، اجنوا المال؛ أظنّ أنهم يجب أن يضعوك في الإنتاج الجماهيري؛ أنا الخردة، أعمل فيما يعدّني الآخرون مؤهّلاً للقيام به بالطبع والتدريب)، والتصوير لغريغ تولاند استثنائي. تأتي بنسختها من موسوعة إفراييم كاتز السينمائية، وتقرأ عباراته المتعلّقة بفيلم وليام وايلر: التصوير الثوري العميق التركيز الذي وصله به تولاند حدّاً مثالياً، مكّن وايلر من أن يُطوِّر تقنيّته المفضّلة في تصوير لقطات طويلة، تظهر فيها الشخصيات في الكادر نفسه طوال مدّة المشاهد، بدلاً من الانتقال من شخصية إلى أخرى، وبالتالي قَطْع العلاقات الداخلية بين الشخصيات. بعد فقرَتَيْن، في نهاية الوصف الموجز للفيلم، يعلّق الكاتب بأن الفيلم يحتوي بعض أدقّ التوليفات التي شوهدت في السينما. والأهمّ من ذلك، على الأقلّ، فيما يخصّ أطروحتها، أن القصّة تُركّز بالتحديد على تلك اللحظات من النزاع النسوي الذُّكُوري. لم يعد الرجال يعرفون كيف يتصرّفون مع زوجاتهم وحبيباتهم. فقدوا حبّهم للحياة المنزلية، ارتباطهم بالمنزل. بعد سنوات من العيش بعيداً عن النساء، من المعارك والقَتْل، من الصمود في وجه أهوال الحرب ومخاطرها، فقد انقطعوا عن ماضيهم المَدَني، أُصيبوا بالشَّلَل، علقوا في كابوس، تتكرّر فيه التجارب التي شهدوها، والنسوة اللواتي تركوهنّ وراءهم بتنَ غريبات عنهم. هكذا يبدأ الفيلم. السلام قد حلّ، ولكنْ، ماذا بعد السلام؟

Tele: @Arab_Books

لديها تلفاز ومشغّل أقراص مدمجة صغيران. ولأنه ليس ثمّة اشتراك بالكابل في المنزل، فالتلفزيون لا يتلقّى البثّ الطبيعي، ولكنها تشاهد الأفلام عليه، والآن بما أنها بدأت الفصل المتعلّق بفيلم "أحلى أيّام عمرنا"، فإنها تشعر بضرورة مشاهدته مرّة أخرى وأخيرة قبل أن تشرع في الكتابة. الليل هبط الآن، ولكنْ، بينما تضطجع في سريرها، لكي تبدأ بالمشاهدة، فإنها تُطفئ المصباح، لكي تدرس الفيلم في عتمة تامّة.

الفيلم مألوف تماماً بالنسبة إليها. بعد أربع أو خمس مشاهدات، باتت تحفظه عن ظهر قلب، لكنها مصمّمة على فَحْص التفاصيل الصغيرة التي ربّما تكون قد فاتتْها سابقاً. تلك التفاصيل السريعة التي تسبغ على الفيلم بنيته في نهاية المطاف. في المشهد الأوّل، دانا أندروز في المطار، مُحاوِلَة عبثاً حجزَ تذكرة عودة إلى بون سيتي[١]، يصدمها مشهد رجل الأعمال الذي يحمل مضارب الغولف، السّيّد غيبونز، الذي يدفع بهدوء رسوم الوزن الزائد متجاهلاً الطّيّار أندروز الذي ساعد للتّوّ في الفوز بالحرب للسّيّد غيبونز ومواطنيه الآخرين، وتُقرّر من الآن فصاعداً، أنها سوف تُركّز على كل تصرّف في الفيلم ينمّ عن اللامبالاة تجاه الجنود العائدين. وتشعر بالامتنان، إذ ترى سرعة تراكم هذه التفاصيل مع تقدّم الفيلم: الموظّف في المبنى السَّكَني الذي يعيش فيه فردريك مارش، على سبيل المثال، الذي يتردّد في السماح للملازم بالبزّة العسكرية بدخول شقّته، أو مدير ميدواي دراغز، السيد ثورب الذي يغضّ الطرف عن سجلّ أندروز العسكري، بينما يعرض عليه راتباً متدنّياً لقاء توظيفه، أو حتّى زوجة أندروز فرجينيا مايو التي تُطالبه بـ أن يطلع منها، قائلة له إنه لن يحقّق شيئاً قبل أن يكفّ عن التفكير بالحرب، وكأن الذهاب إلى الحرب يُعدّ أمراً تافهاً مزعجاً، لا يختلف في أهمّيّته عن جلسة مزعجة على كرسيّ طبيب الأسنان.

---

[١]) Boone مدينة تقع في ولاية آيوا بالولايات المتّحدة الأمريكية

Tele: @Arab_Books

المزيد من التفاصيل الصغيرة: فرجينيا مايو وهي تزيل رموشها الاصطناعية؛ السيد ثورب الأعمص وهو يستخدم البخّاخ في منخره الأيسر؛ ميرنا لوي وهي تحاول أن تُقبّل فردريك مارش النائم، والذي يكاد يكون ردّة فعْله أن يلكمها؛ البكاء المخنوق لأمّ هارود راسل حين ترى أعضاء ابنها الاصطناعية للمرّة الأولى؛ دانا أندروز وهي تمدّ يدها في جيوبه، لكي تبحث عن رزمته من أوراق البنكنوت بعد أن تُوقظه تريزا رايت، موحية في حركة غريزية سريعة كم من الليالي لابدّ أمضاها مع النسوة الوضيعات في الخارج؛ ميرنا لوي وهي تضع الزهور على صينية إفطار زوجها، ثمّ تقرّر إزالتها؛ دانا أندروز وهي ترفع الصورة عن عشاء النادي الريفي، وتمزّقها إلى النصف، لكي تُبقي صورة تريزا رايت جالسة بجواره، ثمّ، بعد تردّد وجيز، تمزّق ذلك النصف أيضاً؛ هارولد راسل وهو يتعثّر في عهود زواجه في مشهد الزواج في النهاية؛ والد دانا أندروز وهو يحاول بصورة غريبة أن يخفي زجاجة الجن في غرفة ابنه في يوم وصوله الأوّل من الحرب؛ إعلان يرى عبر نافذة سيّارة أجرة عابرة: أقرّرتَ تناوُل الهوت دوغ؟

تبدي اهتماماً خاصّاً بأداء تريزا رايت بدور بيغي، الشّابّة التعسة في زواجها التي تُغرم بدانا أندروز. تريد أن تعرف ما الذي يجذبها إلى هذه الشخصية، في حين أن كل شيء يُنبئها بأن بيغي أكثر مثالية من أن تُصنَّف ككائن بشري – أكثر توازناً، وصلاحاً، وجمالاً وذكاء، من أنقى التجسيدات للفتاة الأمريكية المثالية التي يمكن أن تخطر ببالها – ومع ذلك، كل مرّة تشاهد فيها الفيلم تجد نفسها متعلّقة أكثر فأكثر بهذه الشخصية دون سواها. اللحظة التي تظهر فيها رايت على الشاشة – مبكراً في الفيلم عندما يعود والدها فردريك مارش إلى البيت إلى ميرنا لوي وطفلَيْه – تقرّر أن تتتبّع دقائق سلوكها، أن تتفحّص الملامح الأفضل في أدائها، لكي تفهم لماذا ينتهي الأمر بهذه الشخصية التي قد تكون الحلقة الأضعف في

Tele: @Arab_Books

الفيلم، بأن تكون هي مَنْ يمنح القصّة تماسكها. ليست وحدها منْ يرى ذلك: حتّى آغي، القاسي جدّاً في حُكمه على نواحي أخرى من الفيلم، كتب بإعجاب واضح عن أداء رايت، ذلك الأداء الجديد الذي يخلو كُلّيّاً من المبالغة أو الحيل أو الصخب – حتّى يصعب عَدّه تمثيلاً – يبدو من أجمل وأكثر الأداءات جمالاً التي رأيتها منذ سنوات.

مباشرة بعد اللقطتَيْن الطويلَتَيْن لمارش ولوي وهما يتعانقان في نهاية القاعة (من اللحظات المحورية في الفيلم)، تقطع الكاميرا إلى لقطة مقرّبة لرايت – وفي تلك اللحظة، خلال تلك الثواني القليلة التي تحتلّ فيها بيغي الشاشة بمفردها، تكتشف أليس ما الذي كانت تبحث عنه. أداء رايت يتركّز كُلّيّاً في عينَيْها ووجهها. اتبعي العينَيْن والوجه، وسيُحَلّ اللغز، ذلك أن العينَيْن تختزنان قوّة تعبير غير اعتيادية، بصورة خفية، إنما مفعمة بالحيوية، والوجه يسجّل انفعالاتها بصدق عال غير مباشر، لا يسعكَ ألا تصدّق حياله إلا أنكَ أمام الشخصية لا الممثّلة. بسبب عينَيْها ووجهها، تتمكّن رايت بدور بيغي من الإتيان بالداخل إلى الخارج، وحتّى في لحظات صمتها، نعرف ما الذي تُفكّر به، وتحسّه. أجل، إنها بلا ريب أكثر شخصية صحّيّة، وأكثرها صِدْقاً، ولكنْ، كيف لا يمكن التجاوب مع إعلانها الغاضب لوالدَيْها عن أندروز وزوجته، سوف أحطّم هذا الزواج، أو الرَفْض القاطع لمواعدها الثريّ على العشاء حين يحاول تقبيلها، قائلة له لا تكن سخيفاً، وودي، أو الضحكة القصيرة المتواطئة التي تتشاركها وأمّها حين تتبادلان تحية المساء قبل النوم بعد وضع الرَّجُلَيْن الثملَيْن في السرير؟ هذ يفسّر لماذا يظنّ أندروز أنه يجب إنتاج الكثير منها. لأنه ليس هناك إلا واحدة منها، وكم سيكون العالم أفضل حالاً (كم سيكون الرجال أفضل حالاً!) لو كان هناك المزيد منها.

تبذل قصارى جهدها، لكي تركّز، لكي تُبقي عينَيْها على الشاشة، ولكنْ،

Tele: @Arab_Books

وسط الفيلم تبدأ أفكارها بالشرود. فحين تشاهد هارولد راسل، الشخصية الذُّكورية الثالثة إلى جانب مارش وأندروز، الممثّل الهاوي الذي فَقَدَ يَدَيْه خلال الحرب، تتذكّر عمّها الأكبر ستان، زوج أخت جدّتها كارولين، الجندي الذي فَقَدَ إحدى ذراعَيْه في يوم النورماندي(*)، ذا الحاجبَيْنْ الكثَّيْنْ، ستان فيتزباتريك، الذي يتجرّع كؤوس الشراب في الحفلات العائلية، ساردأ النكات الجنسية لأخوتها في الشرفة الخلفية من منزل جَدّيْها، واحد من كُثُر لم يتمكّنوا من لملمة شتات أنفسهم بعد الحرب، الرجل الذي تنقّل بين سبعة وثلاثين وظيفة مختلفة، العمّ ستان العجوز، الذي مضى الآن على وفاته عشرة أعوام، والقصص التي روتها لها جَدّتها مؤخّراً حول كيف كان يضرب كارولين، كارولين المتوفّاة الآن، كان يضربها بشراسة، إلى درجة أنها فَقَدَتْ سنَّيْن ذات يوم، ثمّ هناك جَدّها لأمّها وجَدّها لأبيها، كلاهما ما يزال على قيد الحياة، لكن الأوّل بدأت ذاكرته تخبو، والثاني ما يزال يتمتّع بذاكرة قوية، وكلاهما قاتل في المحيط الهادئ وأوروبا في شبابهما، وقد كانا يافعَيْن، إلى درجة أنهما بالكاد كانا صبيَّيْن، ومع أنها حاولت استدراج جَدّها، بيل برغستروم، زوج جَدّتها الوحيدة الباقية على قيد الحياة، الذي ما يزال يتمتّع بذاكرة قوية للتّكلّم إليها، فإنه لا يقول الكثير، بل يتكلّم بعموميات ضبابية فحسب، ببساطة لا يستطيع التّحدّث عن تلك السنوات، جميعهم عادوا إلى الديار فاقدي العقول، معطوبين مدى الحياة، وحتّى السنوات التي أعقبت الحرب كانت ما تزال جزءاً من الحرب، سنوات الكوابيس والتّعرّق الليلي، سنوات الرغبة في لَكْم الجدران، لذا فإن جَدّها يماحكها حين يُحدّثها عن دخوله الجامعة بمرتّبه كجندي، ولقائه جَدّتها على متن حافلة ذات يوم، ووقوعه في غرامها من النظرة الأولى،

---

*) D- Day على الرغم من النطاق الأوسع لهذا التعبير، بمعنى "يوم الأيّام" أو "اليوم الموعود" أو "أمّ المعارك" فإنه بات مرتبطاً، بصورة خاصّة، بهجوم النورمادندي الذي شنّه الحلفاء يوم ٦ يونيو ١٩٤٤ ويُعدّ من أشهر محطّات الحرب العالمية الثانية.

Tele: @Arab_Books

هراء، هراء كل ما يرويه، ولكنه واحد من أولئك الرجال الذين لا يستطيعون الإفصاح، رجل ينتمي إلى جيل الرجال الذين لا يستطيعون التّكلّم، وبالتالي تعتمد على جَدّتها، لتعرف القصص، ولكنها لم تكن جندية خلال الحرب، ولا تعرف ما الذي حدث هناك، وكل ما يمكنها التّكلّم عليه هو شقيقاتها الثلاث وأزواجهنّ، كارولين وستان فيتوباتريك المتوفّيان، وأنابيل، التي قُتل زوجها في أنزيو، والتي تزوّجت لاحقاً مجدّداً من رجل يُدعى جيم فارنسوورث، جندي آخر قاتل في المحيط الهادئ، لكن ذلك الزواج لم يدم طويلاً هو الآخر، فلم يكن مخلصاً لها، وكان يزوّر الشيكات، وتورّطَ في الاحتيال في المخزونات، التفاصيل غير واضحة، ولكن فارنسوورث اختفى قبل زمن طويل من ولادتها، والزوج الوحيد الذي عرفتْه هو مايك ميغرت، البائع الجوّال، الذي لم يكن يتكلّم البتّة على الحرب، وأخيراً هناك غلوريا، غلوريا وفرانك كروشنياك، الزوجان اللذان أنجبا ستّة أولاد، لكن حرب فرانك كانت مختلفة عن الآخرين، فقد ادّعى الإعاقة، ولم يضطرّ البتّة إلى الخدمة، وهو ما يعني أنه لم يكن لديه ما يقوله أيضاً، وحين تفكّر في ذلك الجيل من الرجال الصامتين، الفتية الذين عاشوا فترة الكساد الكبير، ونشؤوا لكي يصبحوا جنوداً أو لا جنود في الحرب، لا تلومهم على رَفْضهم التّكلّم، على عدم رغبتهم بالعودة إلى الماضي، ولكنْ، كم يثير الإحساس بالفضول والغرابة، أن جيلها، الذي ليس لديه الكثير بعد ليتكلّم عليه، أنجب رجالاً لا يكفّون عن التّكلّم، رجال من أمثال بينغ، أو مثل جايك الذي يتكلّم على نفسه عند أقلّ فرصة، والذي لديه رأي في كل شيء، الذي يبصق الكلمات من الصباح وحتّى الليل، ولكنْ، لمجرّد أنه يتكلّم، فإن هذا لا يعني أنها ترغب في الإصغاء إليه، في حين أنها مع الرجال الصامتين المسنّين، أولئك الذين شارفوا على الرحيل، تُضحّي بأيّ شيء، لكي تُسمَع أصواتهم.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

إيلين برايس

تقف على الشرفة الأمامية، ناظرة إلى الضباب. إنه صباح أحد، والهواء في الخارج شبه دائم، أكثر دفئاً من بداية ديسمبر، ممّا يُشعرها بأنه يوم في موسم آخر، أو خطّ عرض آخر، طقس رطب معتدل نوعاً ما، يُذكّرها بالاستواء. في الشارع قبالتها، الضباب كثيف، يحجب المقبرة. صباح غريب، تقول لنفسها. الغيوم قد قطعت الطريق كلها هبوطاً إلى الأرض، والعالم صار محجوباً خلف غلالة الضباب - وهو ليس بالأمر الجيّد أو السّيّئ، بالنسبة إليها، إنه غريب فحسب.

الوقت مبكر، أقلّه بالنسبة ليوم أحد، لم يتجاوز السابعة صباحاً إلا بدقائق معدودات وأليس وبينغ ما يزالان نائمَيْن في الطابق الثاني، ولكنها أفاقت مجدّداً مع أوّل الضوء، وإن كان الضوء شحيحاً في هذا الصباح البليد المسكون بالضباب. لا تتذكّر المرّة الأخيرة التي استطاعت النوم فيها ستّ ساعات متواصلة، لا يوقظها خلالها كابوس، أو تفتح عينَيْها فجأة عند مطلع الفجر، وتعرف أن صعوبات النوم هذه نذير سوء للمشكلات التي تنتظرها، ولكنْ، على الرغم من إلحاح أمّها، ترفض العودة للعلاج. أَخْذُ إحدى تلك الحبّات يُشبه ابتلاع جرعة من الموت. ما إن تبدأ بهذه الأشياء حتّى يتحوّل يومكَ إلى نوبة ذاهلة من النسيان والتّشوّش، ولا تمرّ لحظة لا تشعر فيها أن رأسك مَحشوّ بكُرات القطن وأكوام الورق المقصوص. لا تريد أن تُسدل الباب على حياتها، لكي تتمكّن من مواصلة عيش هذه

Tele: @Arab_Books

الحياة. تريد أن تظلّ يقظة، ألا تختفي أفكارها ما إن تخطر ببالها، أن تحسّ بنفسها حيّة بالطُّرُق كلها التي أحسَّتْها يوماً. الانهيارات العصبية غير واردة في الوقت الحالي. ما عادت تمتلك ترف الاستسلام، ولكنْ، على الرغم من جهودها كلها، للتّشبّث بالآن وهنا، فإن الضغط كان يتصاعد في داخلها مرّة أخرى، وقد بدأت تحسّ بوخز الذعر القديم، الاختناق في حلقها، جريان الدم بسرعة فائقة عبر شرايينها، انقباض قلبها والإيقاعات المسعورة لنبضها. خوف بلا سبب، كما وصف لها د. بورنهام الأمر يوماً. لا، تقول لنفسها الآن: إنه خوفها من الموت من دون أن تكون قد عرفت الحياة.

لا ريب في أن المجيء إلى هنا كان الخطوة الصحيحة، ولم تندم يوماً على أنها تركت وراءها تلك الشّقّة الصغيرة في بريزيدانت ستريت في بارك سلوب. تشعر أنها اكتسبت جرأة، من خلال القيام بهذه المغامرة الجماعية، وبينغ وأليس كانا طيّبَيْن جدّاً معها، كريميْن في حمايتهما لها، وثابتَيْن في صداقتهما، ولكنْ، على الرغم من حقيقة أنها أقلّ وحدة الآن، فثمّة أوقات، أوقات كثيرة في الحقيقة، تشعر فيها أن تواجدها معهما يزيد الأمور سوءاً فحسب. حين كانت تقيم وحدها، لم تضطرّ إلى مقارنة نفسها مع أحد. كانت مكابداتها تخصّها وحدها، وإخفاقاتها كذلك، ويمكنها أن تعيش معاناتها ضمن حدود فسحتها المنعزلة الصغيرة. الآن هي محطّة بأناس عطوفين مفعمين بالطاقة، ومعهم تشعر بأنها كسولة سوداوية، شخص تافه ميؤوس منه. أليس ستحصل قريباً على الدكتوراه، وعلى وظيفة أكاديمية في جامعة ما، وجايك ينشر القصّة بعد القصّة في المجلات الصغيرة، وبينغ لديه فرقته وعمله السفلي الغريب، وحتّى ميلي، سليطة اللسان، التي لن تفتقد يوماً، ناجحة كراقصة. أما بالنسبة إليها، فإنها تتّجه سريعاً إلى لا مكان، أسرع ممّا يتطلّبه كلب يافع، لكي يغدو مُسنّاً، أسرع ممّا تتطلّبه زهرة، لتبرعم وتذبل. عملها كفنّانة وصل إلى حائط مسدود،

Tele: @Arab_Books

ومعظم وقتها تمضيه في اصطحاب المستأجرين المحتملين لمعاينة الشقق الشاغرة – عمل لا يناسبها على الإطلاق، وتخشى أن تُطرَد منه يوماً ما. هذا كله شاقّ بما فيه الكفاية، ولكنْ، هناك أيضاً مسألة الجنس، المضاجعات التي تُضطرّ إلى سماعها عبر الجدران الهزيلة في الطابق الأعلى، حقيقة أنها الوحيدة في البيت المكوّن من زوجَيْن. لقد مضى زمن طويل منذ مارس أحدهم الحبّ معها، ثمانية عشر شهراً على الأقلّ حسب ما تُذكَر، وهي توّاقة جدّاً للاتّصال الجسدي، بحيث ما عادت قادرة عل التفكير في أيّ أمر آخر. تمارس العادة السّرّيّة في سريرها كل ليلة، لكن الاستمناء ليس هو الحلّ، فهو يقدّم راحة وَقْتِيّة فحسب، إنه مثل الأسبرين الذين تتناوله حين يكون لديك ألم في أحد الأسنان، ولا تعرف كم يمكنها الصمود أكثر دون أن يُقبِّلها أحد، أن يحبّها أحد. بينغ متوافر الآن، هذا صحيح، وتحسّ بأنه مهتمّ بها، ولكنْ، على نحو ما لا تستطيع أن تتخيّل نفسها معه، لا ترى نفسها واضعة يدها حول ظهره العريض المُشْعِر، أو محاولة العثور على شفتَيْه عبر لحيته السميكة. أكثر فأكثر، منذ رحيل ميلي، بدأت تفكّر في اتّخاذ خطوة نحوه، ولكنها تراه على الفطور في الصباح، وتعلم أن هذا غير وارد.

أفكارها بدأت تُزعجها، الألعاب الصغيرة التي تلعبها في تفكيرها من دون أن تريد ذلك، الخيال الجامح في العتمة. أحياناً تأتيها هذه اللحظات في ومضات عابرة – رغبة في أن تحرق المنزل، أن تغوي أليس، أن تسرق المال من خزنة الشركة العقارية التي تعمل فيها – ثمّ، وبسرعة وصولها، تتلاشى هذه الأفكار، وتستحيل عَدَمَاً. الأفكار الأخرى أكثر ثباتاً، أكثر ديمومة في تأثيرها. وحتّى الخروج بات مليئاً بالمخاطر الآن، إذ ثمّة أيّام لا يعود فيها النَّظَر إلى الناس العابرين في الشارع ممكناً، من دون أن تُعرّيهم بخيالها، تُعرّيهم بنظرة سريعة، وتتأمّل أجسادهم العارية وهم يمرّون. أولئك الغرباء ما عادوا أناساً بالنسبة إليها، بل تحوّلوا إلى الأجساد التي تخصّهم، هياكل

Tele: @Arab_Books

من اللحم الملتفّ على العظام والأنسجة والأعضاء الداخلية، ومع زحمة المشاة على امتداد الجادّة السابعة، حيث يقع مقرّ عملها، فإن عينَيْها تُطالعان مئات إن لم يكن آلاف النماذج يومياً. ترى النهود الضخمة الثقيلة للنسوة البدينات، الأعضاء الصغيرة للفتية، شعر العانة المتبرعم للأطفال البالغين ثلاثة عشر عاماً، الأرحام الزهرية للأمّهات، وهنّ يدفعنَ أطفالهنّ في العربات، فتحات شروج العجائز، الأعضاء التناسلية الخالية من الشعر للفتيات الصغيرات، الأفخاذ الضخمة، وتلك الهزيلة، المؤخّرات الكبيرة المرتعشة، شعر الصدر، سرر البطن المجوّفة، الحلمات غير البارزة، البطون التي تحمل ندوب عمليات الولادة القيصرية والزائدة الدودية، الغائط الذي ينزلق من الشروج المفتوحة، البول الذي يتدفّق من الأعضاء الذَّكَرية الطويلة شبه المنتصبة. تثور ثائرتها حين ترى هذه الصور، وتُخيفها قدرة عقلها على استنباط مثل هذه الصور القذرة، ولكنْ، ما إن تبدأ، فإنها تجد نفسها عاجزة عن التّوقّف. أحياناً تمضي إلى حدّ أن تتخيّل نفسها واقفة في الشارع، لكي تضع لسانها في فمّ كل شخص يمرّ، كل فرد تقع عليه عيناها، سواء أكان يافعاً أم عجوزاً، جميلاً أم مشوّهاً، تقف لتلحس كل جسد عار، دافعة جسدها إلى الأرحام الرطبة، واضعة فمها حول أعضاء ذَكَرية صلبة عريضة، مانحة نفسها بالحماسة نفسها لكل رجل وامرأة وطفل في حفلة جنس جماعي من الحبّ الديمقراطي الذي لا يعرف التمييز. لا تعرف كيف تُوقف هذه التّصوّرات التي تتركها في حال من البؤس والتعب، ولكن الأفكار المتوحّشة تدخل رأسها، وكأن شخصاً آخر، زرعها فيه، وعلى الرغم من سعيها الشديد لكَبْتها، فإنها معركة لا تفوز فيها أبداً. انعطافات زائلة، نوبات ذهنية، أوساخ تصعد من الأعماق الداخلية، ولكنْ، في العالم الخارجي للأشياء الصلبة، سمحت لرغباتها بأن تفرّ منها مرّة فقط، مرّة واحدة لها أيّ عواقب دائمة. أنشودة بنجامين صموئيلز تعود إلى صيف

Tele: @Arab_Books

العام ٢٠٠٠، قبل ثماني سنوات، ثماني سنوات ونصف السنة على وجه التحديد، ما يعني أنه يكاد يكون ثلث حياتها قد عاشتْه منذ ذلك الحين، ومع ذلك، يبقى معها، لم تتوقّف عن الإصغاء إلى الأغنية في عقلها، وبينما تقف على الشرفة في صباح هذا اليوم الضبابي، تتساءل إذا كان أيّ شيء بهذا الحجم سيحدث لها ثانية. كانت في الثانية والعشرين وقد أنهت للتّوّ عامها الأوّل في "سميث". كانت أليس عائدة إلى وسكونسن للعمل كبيرة مستشارين في مخيّم صيفي، بالقرب من بحيرة أوكونوموواك، وسألتْها إذا كانت تريد العمل هناك أيضاً، وهو ما يمكنها تدبيره بسهولة. أجابتها بأنها غير مهتمّة بالمخيّمات الصيفية، فقد عاشت تجربة تخييم مزعجة في الحادية عشرة، وهكذا انتهى بها الأمر بقبول وظيفة أخرى أقرب إلى المنزل، عند البروفسور صموئيلز وزوجته اللذَيْن كانا يعيشان في شقّة مُستأجَرَة في جنوب فيرمونت لشهرَيْن ونصف الشهر، وكانا بحاجة لمَنْ يعتني بأولادهما، بيا وكورا وبن؛ الفتاتان في الخامسة والسابعة والصبي في السادسة عشرة. كان الفتى كبيراً بما فيه الكفاية، بحيث لا يحتاج الرعاية، لكنه أخفق في المدرسة في ذلك العام، وبالكاد نجح في العديد من المساقات، وكان مطلوباً منها أن تُدرّسه الإنجليزية والتاريخ الأمريكي والجبر. كان معتكر المزاج في بداية الصيف - بما أنه حُرم من الذهاب إلى مخيّم كرة القَدَم المُفضّل لديه في نورثهامبتن، ويواجه احتمال إمضاء أحد عشر أسبوعاً من النَّفْي الموجع مع والدَيْه وشقيقَتَيْه وسط العراء. ولكنها كانت جميلة حينذاك، لم تكن يوماً أجمل ممّا كانت عليه ذلك الصيف، أكثر تدويراً ونعومة من الكائن الأعجف الذي باتت عليه الآن، ولماذا يتذمّر صبي في السادسة عشرة من اضطراره إلى أخْذ دروس من شابّة مُغرية، ترتدي كنزة صديرية، وسروالاً أسود قصيراً؟ ببداية الأسبوع الثاني، كانا باتا صديقَيْن، وببداية الأسبوع الثالث، كانا يمضيان معظم الأمسيات معاً في الخيمة

Tele: @Arab_Books

الخارجية التي تبعد زهاء خمسين ياردة عن المنزل، حيث شاهدا الأفلام التي كانت تستأجرها من متجر آل للفيديو خلال رحلات التّسوّق التي تقوم بها في براتلبورو. الفتاتان والوالدان يكونون نائمين دوماً بحلول ذلك الوقت. البروفسور صموئيلز وزوجته كانا كلاهما يؤلّفان الكُتُب في ذلك الصيف، وقد اتّبعا برنامجاً صارماً، يبدأ بالاستيقاظ في الخامسة والنصف فجراً، وينتهي بإطفاء الأضواء عند التاسعة والنصف أو العاشرة ليلاً. لم يكونا مهتمّين البتّة أنها وابنهما يمضيان الكثير من الوقت معاً في الخيمة. كانت إيلين برايس في نهاية المطاف، الفتاة اللطيفة التي يمكن الاعتماد عليها التي أبلت حسناً في صفوف الفنّ لدى البروفسور صموئيلز، وكان يمكنهما الاعتماد عليها، لتتصرّف بمسؤولية في الأوضاع كافّة.

ممارسة الجنس مع "بن" لم تكن فكرتها - على الأقلّ ليس في البداية. كانت تستمتع بالنَّظَر إلى جسده الذي يتمتّع بقوّة لاعب كرة قَدَم، وليونته، لكنه كان مجرّد فتى، قبل أقلّ من ستّة أشهر كان ما يزال في الخامسة عشرة، ومهما وجدتْهُ جذّاباً، فلم تكن تعتزم القيام بأيّ شيء حيال ذلك. ولكنْ، بعد شهر من الشهرَيْن ونصف الشهر الذين أمضتْهم هناك، في ليلة دافئة من يوليو مليئة بأصوات ضفادع الشجر ومليون صرار ليل، قام الفتى بالحركة الأولى. كانا جالسَيْن في الوضعية المعتادة على طرفيَ الكنبة الصغيرة، وكان العثّ يضرب على منخل النافذة كالعادة، والهواء الليلي يفوح برائحة الصنوبر والأرض الرطبة كالعادة، فيلم كوميدي أو وسترن بليد كان على الفيديو (الخيارات في متجر آل كانت محدودة)، وكانت قد بدأت تشعر بالنعاس، نعاس يكفي لكي تُلقي رأسها إلى الخلف، وتُغمض عينَيْها لبضع ثوان، ربمّا عشر ثوان، ربمّا عشرين، وقبل أن تتمكّن من فَتْحهما، كان السّيّد صموئيلز الشّابّ قد انتقل قريباً منها، وكان يُقبِّلها على فمها. كان يمكن أن تدفعه عنها، أو أن تُبعد رأسها عنه، أو أن تقف وتغادر المكان،

Tele: @Arab_Books

لكنها لم تستطع أن تفكّر بسرعة كافية، بفعل أيّ من هذه الأشياء، فبقيت حيث هي، على الكنبة مغمضة العينَيْن، وسمحت له بأن يُقبِّلها.

لم يُكتشف أمرهما أبداً. طوال شهر ونصف الشهر واصلا علاقتهما الجنسية الصغيرة (لم تسمح لنفسها بأن تعدّها علاقة عاطفية)، ثمّ وصل الصيف إلى نهايته. ربمّا لم تقع في حبّ بن، ولكنها وقعت في حبّ جسده، وحتّى الآن، بعد ثماني سنوات ونصف السنة، ما تزال تتذكّر النعومة المذهلة لجلده، الإحساس بذراعَيْه الطويلَيْن حولها، حلاوة فمه، مذاقه. كان يمكن أن تستمرّ في مقابلته في نورثهامبتن بعد الصيف، ولكن علاماته المدرسية الرهيبة في العام الماضي قد نبّهت والدَيْه، إلى حدّ أنهما أرسلاه إلى مدرسة داخلية في نيو هامشر، وفجأة اختفى من حياتها. اشتاقت إليه أكثر ممّا توقّعت، ولكنْ، قبل أن تفهم كم من الوقت ستحتاج لكي تتخطّاه، كم من الأسابيع أو الأشهر أو السنوات، وجدت نفسها في نوع جديد من الهَوَس. تأخّرت عادتها الشهرية. أخبرت أليس بذلك، فجرّتْها صديقتها فوراً إلى أقرب صيدلية لشراء اختبار فَحْص الحمل المنزلي. كانت النتائج إيجابية، أي سلبية، بصورة كارثية ومُبرَمَة. حسبت أنها كانت شديدة الاحتياط، شديدة الحذر، لكي تتفادى حدوث أمر كهذا، ولكنْ، من الواضح أنها أخفقت في لحظة ما، والآن ما الذي ستفعله؟ لم يكن في وسعها أن تُخبر أحداً بهوية الوالد، ولا حتّى أليس التي ضغطت عليها لتعرف مرّة بعد مرّة، ولا حتّى الوالد نفسه، الذي كان مجرّد فتى في السادسة عشرة، ولماذا تعاقبه بهذه الأنباء، في حين ليس من شيء بوسعه فعْله لمساعدتها، وهي المُلامَة على المسألة السخيفة برمّتها؟ لم تستطع التّكلّم إلى أليس، ولا إلى بن، ولا إلى والدَيْها – ليس فقط حول هوية الوالد، ولكنْ، حول مَنْ هي أيضاً. فتاة حامل، فتاة جامعية خرقاء، مع طفل ينمو في أحشائها. لا يمكن أن يعرف والداها بما حدث. مجرّد التفكير في محاولة إخبارهما كانت كافية لجَعْلها تتمنّى الموت.

Tele: @Arab_Books

لو كانت أكثر شجاعة، لاحتفظت بالطفل. على الرغم من الفوضى التي كانت ستُحدثها فترة الحمل الكاملة، فقد أرادت المضي قُدُماً بها حتّى ولادة الطفل، ولكنها كانت أكثر خوفاً من الأسئلة التي ستُطرح عليها، أكثر خزياً لمواجهة عائلتها، أكثر ضعفاً لتدافع عن نفسها، وتترك المدرسة، لتنضمّ إلى صفوف الأمّهات العازبات. أخذتْها أليس إلى العيادة. كان يُفترَض بالأمر أن يكون سريعاً وغير مُعقّد، ووفقاً للمعايير الطّبّيّة، فإن كل شيء جرى وفق المُعلَن عنه، ولكنها وجدت الأمر شنيعاً ومُذِلاً، وكرهت نفسها، لأنها تصرّفت عكس أعمق دوافعها وقناعاتها. بعد أربعة أيّام، تجرّعت نصف قنّينة فودكا وعشرين حبّة منوّم. كان يُفترض أن أليس ستغيب خلال عطلة نهاية الأسبوع، ولو لم تُغيّر خططها في اللحظة الأخيرة، وتعود إلى غرفتهما في السَّكَن الداخلي في الرابعة بعد الظهر، فإن زميلتها النائمة كانت ستبقى نائمة. أخذوها إلى مستشفى كولي ديكنسون، وقاموا بغَسْل معدتها، وكانت هذه نهاية سميث، نهاية إيلين برايس مثلما تُسمّى شخصاً طبيعياً. تمّ نَقْلها إلى القسم النَّفْسي في المستشفى، وظلّت هناك عشرين يوماً، ثمّ عادت إلى نيويورك، حيث أمضت فترة طويلة من الإحباط في بيت والدَيْها، نائمة في سرير طفولتها القديم، مقابلة د. بورنهام ثلاث مرّات في الأسبوع، ومشاركة في جلسات علاج جماعي، ومبتلعة حصّتها اليومية من الحبوب التي يُفترَض أن تجعلها تشعر بأنها أفضل حالاً. أخيراً، أخذت على عاتقها الانتساب إلى صفوف رَسْم في معهد الفنون البصرية، الذي تحوّل إلى صفوف رَسْم في العام التالي، وشيئاً فشيئاً بدأت تحسّ بأنها بدأت بالعودة إلى العالم، وأنه ربمّا يكون ثمّة ما يشبه المستقبل بالنسبة إليها في نهاية المطاف. عندما عرض عليها صهر زوج أختها عملاً في مكتب العقارات في بروكلين، انتقلت أخيراً من منزل والدَيْها، وبدأت تعيش وحدها. عرفت أنها الوظيفة الخطأ لها، أن الاضطرار إلى التّكلّم إلى

Tele: @Arab_Books

هؤلاء البشر كلهم يومياً، يمكن أن يكون محنة، لا ترحم لأعصابها، ولكنها قبلت العمل، على أيّة حال. احتاجت إلى الخروج، إلى التّحرّر من عيون أمّها ووالدها البالغة القلق، وكانت تلك فرصتها الوحيدة.

كان ذلك قبل خمس سنوات. الآن، بينما تقف على الشرفة الأمامية للمنزل متدثّرة بالمعطف، وشاربة قهوة الصباح، تُدرك أنها يجب أن تبدأ من جديد. على الرغم من كل ألم سماع كلمات ميلي قبل شهرَيْن، الإدانة الحاسمة والوحشية للوحاتها ورسوماتها، فإنها كانت ستُحقّق ذلك تماماً. عملها لا يخاطب أحداً. تعرف أنها ليست عديمة المهارة، أو حتّى الموهبة، ولكنها حصرت نفسها في الزاوية عبر السعي إلى فكرة واحدة، وتلك الفكرة ليست قوية بما فيه الكفاية، لكي تحمل ثقل ما كانت تحاول إنجازه. كانت تحسب أن رقّة لمستها يمكن أن تؤدّي إلى ذينك التسامي والتّقشّف اللذَيْن بلغهما موراندي(*) يوماً. أرادت رَسْم لوحات، تُجسّد العجب الصافي في الأشياء الساكنة، الهواء الأثيري المقدّس في الفضاءات التي بين الأشياء، ترجمة للوجود الإنساني في الاستخلاص الدقيق لكلّ ما هو أمامنا وحولنا، على النحو نفسه الذي تعرف فيه أن المقبرة ماثلة هناك أمامها، حتّى وإن لم تكن تراها. لكنها أخطأت في وضع ثقتها في الأشياء، أن تثق بالأشياء فحسب، أن تضيع وقتها على المباني التي لا تُحصى التي رسمتْها، ولوَّنَتْها، الشوارع الخالية من الناس، الكاراجات ومحطّات الوقود والمصانع، الجسور والأوتوسترادات المعلّقة، الطوب الحُمر في المستودعات القديمة التي تلتمع في ضوء نيويورك الباهت. بدا ذلك كله تملُّصاً خجولاً، تمريناً فارغاً على الأسلوب، في حين أن كل ما أرادتْه هو أن ترسم وتُلوِّن مشاعرها الخاصّة. لن يكون من أمل لها، ما لم تُعاود البدء من الصفر. لا مزيد من الأشياء الجامدة، تقول لنفسها، لا مزيد من الحيوات الساكنة. سوف

*) جورجيو موراندي (١٨٩٠-١٩٦٤) رسّام إيطالي اشتُهر برَسْم الطبيعة الصامتة.

Tele: @Arab_Books

تعود إلى الشكل البشري، وتُجبر ضربات ريشتها على أن تغدو أجرأ وأكثر تعبيرية، أكثر إيماء، أكثر ضراوة، إذا تطلّب الأمر؛ ضراوة تُشبه أشدّ الأفكار ضراوة التي تعتمل في داخلها.

سوف تطلب من أليس أن تتموضع لها. إنه يوم عطلة. يوم أحد هادئ دون الكثير من الأحداث، وحتّى لو كانت أليس تعمل على أطروحتها، فستكون قادرة على توفير ساعتَيْن خلال ساعات اليوم. تعود إلى البيت، وتصعد السّلّم إلى غرفتها. بينغ وأليس ما يزالان نائمين، فتتحرّك بحذر، لكيلا توقظهما، تخلع المعطف والمنَامة التي تحته، ثمّ ترتدي جينزاً قديماً وكنزة قطنية سميكة، دون أن تُزعج نفسها بالسروال الداخلي أو الصدرية، فقط جلدها العاري تحت النسيج الناعم، راغبة في أن تشعر بأكبر قدر ممكن من التّحرّر والحركة هذا الصباح وطوال النهار الذي ما يزال أمامها. تتناول دفتر الرسم وقلم الفايبر الرصاص عن المكتب، ثمّ تجلس على السرير، وتفتح الدفتر على الصفحة الأولى الفارغة. حاملة القلم بيدها اليمنى، ترفع يدها اليسرى في الهواء، وتحرفها بزاوية خمسة وأربعين درجة، على ارتفاع اثنَي عشر إنشاً عن وجهها، دارسة إيّاها حتّى لا تعود تبدو ملتصقة بجسدها. إنها يد غريبة الآن، يد تنتمي إلى شخص آخر. إلى لا أحد، يد امرأة بأصابعها النحيفة وأظافرها المُدوَّرة، الأهلة فوق البشرة، المعصم الضّيّق مع العَظْمة الناتئة من الجانب الأيسر، البراجم العاجية والمفاصل، الجلد الأبيض شبه الشّفّاف الذي يغطّي جدولاً من الشرايين، الشرايين الزُّرق التي تحمل الدم الأحمر الذي يتلوّى داخل جسدها على وَقْع دقّات قلبها، والهواء يدخل ويخرج من رئتَيْها. الأصابع، الرسغان، مشطا اليدَيْن، عظام الأصابع، الأدمة. تضغط رأس القلم على الصفحة البيضاء، وتبدأ برَسْم اليد. في التاسعة والنصف تَقرع باب أليس. برغستروم الدؤوبة بدأت بالعمل، حَشْدٌ من الأصابع تتنقّل على كيبورد حاسوبها الشخصي،

Tele: @Arab_Books

وعيناها شاخصتان نحو الشاشة أمامها، وإيلين تعتذر على مقاطعتها. لا، لا، تقول أليس، الوقت مناسب تماماً، ثمّ تتوقّف عن الطباعة، وتلتفت إلى صديقتها بواحدة من تلك الابتسامات الدافئة التي تُميّزها، لا، أكثر من مجرّد ابتسامة دافئة، ابتسامة أمومية إلى حدّ ما، ليس الطريقة التي تبتسم فيها أمّها لها، ربّما، ولكنها الابتسامة التي يجدر بالأمّهات مَنْحها لأطفالهنّ، ابتسامة ليست بتحية، بقدر ما هي هدية، بركة. تفكّر: أليس سوف تكون أمّاً رائعة حين يأتي الوقت لذلك ... أم متفوّقة، تقول لنفسها، ثمّ، بسبب التجاور بين الكلمتَيْن، تحوّل أليس إلى الأمّ المشرفة، لتراها فجأة في زيّ الراهبة، وبسبب هذا الاستطراد الآني، فإنها تضيّع خيط أفكارها، ولا تجد الفرصة لتسأل أليس التموضع لها، إذ إن أليس تسبقها إلى السؤال:

أشاهدتِ يوماً أحلى أيّام عمرنا؟

بالطبع، تجيب إيلين. الجميع يعرف هذا الفيلم.

أيعجبكِ؟

كثيراً. إنه أحد أفلامي الهوليوودية المفضّلة.

لمَ تحبّينه؟

لا أعرف. إنه يؤثّر بي. أبكي كلّما شاهدتُه.

ألا تجدينه مُفرِطاً في حسِّه العاطفي؟

بالطبع، هو كذلك. أوليس فيلماً هوليوودياً؟ أفلام هوليوود متكلّفة بعض الشيء، ألا توافقين على ذلك؟

بلى. ولكن هذا الفيلم أقلّ تكلُّفاً من معظم تلك الأفلام، أهذا ما تقصدينه؟

Tele: @Arab_Books

خذي مثلاً المشهد الذي يساعد فيه الأب ابنه على الاستعداد للنوم.

هارولد راسل، الجندي الذي فَقَدَ يَدَيْه في الحرب.

الفتى لا يمكنه خَلْع العضوَيْن الصناعيَّيْن بنفسه، ولا يمكنه تزرير بيجامته، ولا يمكنه إشعال سيجارة. والده عليه القيام بكل شيء من أجله. كما أتذكّر المشهد، فهو لا يتضمّن موسيقى تصويرية، ولا كلمة حوار، ولكنها لحظة عظيمة في الفيلم.

لحظة صادقة تماماً. مؤثّرة بصورة لا تُصدَّق.

أيعيش الجميع بسعادة في النهاية؟

ربمّا نعم، وربمّا لا. دانا أندروز يقول للفتاة ...

تريزا رايت ...

يقول لتريزا رايت إنهما سيُعانيان كثيراً. ربمّا يُعانيان، وربمّا لا. وشخصية فردريك مارش هي شخصية سِكّير، مدمن لا يتوقّف عن الشرب والهذيان، لذا فإن حياته لن تكون أفضل بعد بضع سنوات.

ماذا بشأن هارولد راسل؟

يتزوّج حبيبته في النهاية، ولكنْ، أيّ زواج سيكون؟ إنه صبيّ بسيط طيّب القلب، ولكنه عاجز عن البوح، شديد الانغلاق عاطفياً، لا أرى كيف سيجعل زوجته سعيدة جدّاً.

لم أكن أعرف أنكِ مُلمَّة بتفاصيل الفيلم إلى هذه الدرجة؟

كانت جَدّتي مولَعة به. كانت في السادسة عشرة حين اندلعت

الحرب، ولطالما قالت إن "أحلى سنوات عمرنا" هو فيلمها المفضَّل. لابدّ من أننا شاهدناه معاً خمس أو ستّ مرّات.

تواصلان التّكلّم على الفيلم لبضع دقائق أخرى، ثمّ تتذكّر أخيراً أن تطرح على أليس السؤال الذي جعلها تطرق باب غرفتها في المقام الأوّل. أليس مشغولة حالياً، ولكنها ستكون مسرورة بأن تأخذ استراحة ساعة للغداء، وتتموضع لها حينئذ. ما لا تفهمه أليس هو لماذا هي غير مهتمّة برَسْم بورتريه لوجهها، تريد أن تصنع بورتريه لكامل جسدها، وليس ذلك الجسد المحجوب بالملابس، ولكن العاري تماماً، ربّما عدّة اسكتشات، شبيهة بتلك التي صنعتْها في صفوف التشريح في معهد الفنون. إنها بالتالي لحظة مُربِكَة لكلَيْهما حين تصعدان إلى غرفة إيلين بعد الغداء، وتطلب إيلين من أليس أن تخلع ملابسها. أليس لم تتموضع لأحد من قبل، وليست معتادة على أن ينظر أحد إلى جسدها العاري، وعلى الرغم من أنها وإيلين تَلْمَحَان بعضهما بعض خلال الدخول والخروج من الحمّام، فهذا لا صلة له البتّة بعذاب الاضطرار إلى الجلوس عارية لساعة، بينما أقرب صديقاتكِ تُحملق بكِ من الأعلى إلى الأسفل، خاصّة الآن، وهي تشعر بالبؤس حيال زيادة وزنها، وعلى الرغم من أن إيلين تقول لها إنها رائعة، وإنه ليس من سبب للقلق، فهذا مجرّد تمرين فنّيّ، والفنّانون معتادون على النَّظَر إلى أجساد الآخرين، فإن أليس أكثر حَرَجَاً من أن تُذعن لطَلَب صديقتها، إنها آسفة، آسفة جدّاً، ولكنها لا يمكنها المضي بذلك، وعليها أن تعتذر. إيلين تشعر بالضّيّق لرَفْض أليس فعْل هذه الخدمة البسيطة لها، وهي في حقيقة الأمر الخطوة الأولى لإعادة تكوين نفسها كفنّانة، وهو ما لا يقلّ عن إعادة تكوين نفسها كامرأة، ككائن بشري، وبينما تتفهّم أن أليس لا تقصد أن تؤذيها البتّة، لا يسعها ألا تشعر بالأذية، وحين تطلب من أليس مغادرة الغرفة، تُقفل الباب، وتجلس في السرير، وتبدأ بالبكاء.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

يفكّر بالأمر على أنه حُكم بالسجن لستّة شهور دون إطلاق سراح مبكر لحُسن السلوك. عطلة الكريسماس والفصح سوف تمنح بيلار الحقّ بالزيارة المؤقّتة، ولكنه سوف يبقى في زنزانته طوال الشهور السّتّة. لا يجدر به أن يحلم بالفرار. لا حفر أنفاق في وسط الليل، ولا مواجهات مع الحرّاس، لا تسلُّل عبر الأسلاك الشائكة، ولا ركض مجنوناً عبر الغابات، تتبعه الكلاب. إذا أمكنه أن يصمد خلال محوميّته من دون أن يتورّط في المتاعب، أو أن يتشظّى أشلاء، فسوف يكون على مَتْن الحافلة العائدة إلى فلوريدا في الثاني والعشرين من مايو، وفي الثالث والعشرين سيكون مع بيلار يحتفلان بعيد ميلادها. حتّى ذلك الحين سوف يحبس أنفاسه.

التّشظّي أشلاء. كانت هذه العبارة التي ظلّ يستعملها طوال الرحلة، خلال الأحاديث السبعة التي خاضها معها طوال الثلاثة وأربعين ساعة التي أمضاها على الطريق. لا يجب أن تتشظّى أشلاء. عندما لا تكون تبكي عبر الهاتف أو تصرخ لاعنة أختها العاهرة، بدا أنها تفهم ما يحاول قوله لها. سمع نفسه يتلفّظ بأقوال مُبتذَلَة عن كيف أنه قبل يومَيْن ما كان ليتخيّل نفسه يلفظها، ومع ذلك فإن جزءاً منه كان يُصدِّق ما يقوله. يجب أن يكونا قويَّيْن. هذا اختبار، وحبّهما سيتعمّق بسببه. ثمّ هناك النصيحة العملية، أن تبلي حسناً في المدرسة، أن تعتني بنظامها الغذائي، وأن تؤوي مبكراً إلى السرير، وأن تُغيِّر زيت السّيّارة في أوقات مُنتظَمَة، وأن تقرأ الكُتُب التي

Tele: @Arab_Books

تركها لها. أكان أباً يكلّم زوجته المستقبلية؟ أم أباً يكلّم طفلته؟ القليل من الأمرَيْن ربمّا. كان مايلز يكلّم بيلار. مايلز يبذل قصارى جهده، لكي تحافظ الفتاة على تماسكها، ولكي يحافظ هو نفسه على تماسكه.

يدخل إلى مستشفى الأشياء المحطّمة عند الساعة الثالثة من عصر الاثنين. كان هذا الاتّفاق. في حال وصل بعد الساعة السادسة، فعليه التّوجّه فوراً إلى البيت في صانست بارك. ولو وصل خلال اليوم، فسيلتقي بينغ في المتجر في الجادّة الخامسة في بروكلين. يرنّ جرس مع فَتْحه الباب، وإقفاله، وفي الداخل، يصدمه ضيق المكان، لاريب في أنه أصغر مستشفى في العالم، يفكّر، معبد أغبر رثّ، تُعرَض فيه طابعات قديمة، وتمثال خشبيّ، يمثّل الهندي الأحمر في الزاوية القَصيّة إلى يساره، ونماذج طائرات ثنائية السطح وأحادية السطح تتدلّى من السقف، وقد عَلَت الجدران لافتات وملصقات إعلانية عن منتجات، خرجت من المشهد الأمريكي منذ عقود: علكة بلاك جاك، مصفّف شعر أوديل، غريتول، حبوب كارتر الصغيرة للكبد، سجائر أولد غولد. على صوت الجَرَس، ينهض بينغ من غرفة خلفية وراء المنضدة، وقد بدا أضخم وأكثر شعراً ممّا يذكره، أخرق ضخم مبتسم يُهرع نحوه بذراعَيْن مفتوحَتَيْن. بينغ كله ابتسامات وضحك، كله عناقات واسعة وقُبَل على الخدّ، ومايلز وقد باغته هذا الترحيب الحماسيّ، ينفجر ضاحكاً بدوره، وهو يحاول تحرير نفسه من عناق صديقه الساحق.

يُقفل بينغ المستشفى مبكراً، ولأنه يظنّ أن مايلز جائع بعد الرحلة الطويلة، يقوده بضع أبنية على الجادّة الخامسة إلى ما يسمّيه ركن الغداء المُفضَّل لديه، مطعم وضيع، يقدِّم شرائح السمك والبطاطس، وفطائر شيبرد، والبطاطا المهروسة بالمرق، قائمة طعام كاملة من الطعام الدنيء. لا عجب أن يكون بينغ قد سمن إلى هذا الحدّ، يفكّر مايلز، وهو يتغدّى

Tele: @Arab_Books

في وكر الشحم هذا مرّات عدّة في الأسبوع، ولكنّ الحقيقة هي أنه جائع الآن، وما الأفضل من فطيرة شيبرد، تملأ بها معدتكَ في يوم بارد؟ في الأثناء، يكلّمه بينغ على البيت والفرقة وقصّة حبّه الفاشلة مع ميلي، معلّقاً من وقت لآخر بكلمة موجزة عن كم يبدو مايلز جيّد المظهر، وكم أنه مسرور برؤيته ثانية. مايلز يردّ باقتضاب، فهو مشغول بطعامه، ولكنه يشعر بالتّأثّر بمعنويات بينغ المرتفعة ونيّته الطّيّبة المتحمّسة، وكلّما تكلّم بينغ أكثر، شعر أكثر أن رفيق المراسلة طوال السنوات السبع الماضية ما يزال الشخص نفسه الذي رآه آخر مرّة، بالطبع كبر قليلاً، وبات أكثر سيطرة على نفسه ربّما، ولكنه جوهرياً ما يزال على حاله، بينما هو، مايلز، بات مختلفاً تماماً الآن، الخروف الأسود الذي لا يُشبه الحمل الذي كان عليه قبل سبع سنوات.

قرب نهاية الوجبة، تعلو وجه بينغ ملامح استياء. يتوقّف لبضع لحظات، مُمسكاً الشوكة بتململ، شاخصاً نحو الطاولة، وقد بدا يبحث عن الكلمات، وحين يتكلّم أخيراً ثانية، فإن صوته يبدو أكثر كَبْتاً بكثير ممّا كان عليه قبل قليل، يكاد يكون همساً:

لا أقصد التّطفّل، يقول، ولكنني كنتُ أتساءل ما إذا كانت لديكَ أيّ خطط؟

خطط لفعل ماذا؟ يسأله مايلز.

لمقابلة والدَيْكَ مثلاً.

هل هذا يخصّكَ بشيء؟

أجل، لسوء الحظّ، أجل. لقد كنتُ مصدركَ منذ وقت طويل الآن، وأظنّ أنني أريد التقاعد.

Tele: @Arab_Books

لقد فعلتَ أساساً. لحظة ترجّلتُ من الحافلة اليوم، فقد مُنحتَ الساعة الذهبية. لسنوات من الخدمة المخلصة. تعرف كم أنني ممتنّ لكَ، صح؟

لا أريد امتنانكَ، مايلز، لكنني لا أريد أن أراك تُدمِّر حياتكَ أكثر من هذا. لم يكن الأمر سهلاً عليهما، كما تعرف.

أعرف. لا تحسبْ أنني لا أعرف.

إذن؟ هل ستراهما؟ أم لا؟

أريد ذلك، آمل أن ...

هذا ليس جواباً. نعم؟ أم لا؟

أجل، بالطبع، سأفعل، يقول، غير متأكّد ما إذا كان سيفعل أم لا، غير عارف أن بينغ قد تكلّم إلى والدَيْه اثنَيْن وخمسين مرّة خلال السنوات السبع الماضية، غير عارف أن والده ووالدته وويلا يعرفون أنه سيصل إلى نيويورك اليوم. بالطبع، سأفعل، يقول ثانية. فقط أمهلني بعض الوقت حتّى أستقرّ.

البيت لا يشبه أيّ بيت رآه يوماً في نيويورك. يُدرك أن المدينة مليئة بالأبنية الشاذّة التي لا صلة واضحة لها بالحياة المَدينية – البيوت المصنوعة من الآجرّ، والمجمعات السَّكَنية في بعض نواحي كوينز على سبيل المثال، تلك البيوت ذات الأُفق الضّيّق كالضواحي نفسها، أو البيوت الخشب القليلة المتبقّية في النواحي الشمالية من مرتفعات بروكلين، آثار تاريخية من أربعينيات القرن التاسع عشر – ولكن هذا البيت في صانست بارك لا يمتّ بصلة للتاريخ أو بيوت الضواحي، إنه مجرّد تخشيبة، قطعة مهجورة من الغباء المعماري، لا تناسب أيّ مكان، لا في نيويورك، ولا خارجها. بينغ

Tele: @Arab_Books

لم يُرسل أيّ صور للبيت مع الرسالة، لم يصفه له بأيّ تفصيل، وبالتالي لم تكن لديه فكرة عمّا يتوقّعه، ولكنه لو توقّع شيئاً، فإنه قَطْعَاً لم يكن هذا.

ألواح خشبية رمادية متصدّعة على السقف، أُطُرٌ حُمرٌ تُزخرف النوافذ الثلاث في الطابق الثاني، درابزين متهلهل على الشرفة، تشابكت ألواحه على شكل حُبيبات الألماس، وقد طُليت بالأبيض، في حين اكتست أعمدة الشرفة الأربعة باللون الأحمر، الآجرّ الأحمر نفسه الذي يُؤطّر النوافذ، ولكنْ، لا طلاء على الدرج الأمامي أو الدرابزين المُتشظِّيَيْن أكثر من أن يصلح مظهرهما الطلاء، فتُركا عاريَيْن هكذا. أليس وإيلين تكونان في العمل حين يصعد بينغ الدرجات السّتّ إلى الشرفة الأمامية، ويدخل البيت. بينغ يرافقه في الجولة الكبرى، فخوراً بكل ما أنجزوه، وبينما يبدو البيت مكتظّاً بالنسبة إليه (ليس فقط بسبب مساحة الغرف أو عددها، ولكنْ، لأن هناك الكثير من الأشياء فيها - طبول بينغ، لوحات إيلين، كُتُب أليس)، فإن البيت من الداخل نظيف بصورة مذهلة، مع نصاعة الطلاء الحديث، وبالتالي ربّما يكون صالحاً للسَّكَن. مطبخ، حمّام، غرفة نوم خلفية في الطابق الأرضي؛ ثلاث غرف نوم في الأعلى. ولكنْ، ليس من غرفة معيشة أو ردهة، ممّا يعني أن المطبخ هو المكان الوحيد المشترك، مع الشرفة حينما يكون الطقس جيّداً. سوف يرث غرفة نوم ميلي في الطابق الأرضي، وهو أمر مريح نوعاً ما، إذ تنطوي هذه الغرفة على القدر الأكبر من الخصوصية، إذا كان يمكن عَدّ العيش في غرفة قبالة المطبخ خصوصية. يضع حقيبته على السرير، وبينما ينظر من النوافذ في الجانبَيْن، تلك التي تطلّ على مرأب فارغ، والسّيّارة الخربة فيها، والأخرى التي تضمّ موقع بناء مهجور، يُخبره بينغ عن الأدوار والبروتوكولات المتعدّدة التي تأسّست في البيت منذ انتقالهم إليه. كل شخص لديه عمل يقوم به، ولكنْ، خارج مسؤوليات هذا الدور، فإن الجميع أحرار في الدخول والخروج على هواهم. هو البوّاب الحرفي، إيلين هي التي تقوم بالتنظيفات، وأليس تقوم بالتّبضّع ومعظم

Tele: @Arab_Books

الطبخ. ربمّا يستطيع مايلز مشاركة أليس مهمّاتها، وأن يتبادل وإيّاها التّسوّق والطبخ. مايلز لا يُعارِض، فهو يستمتع بالطبخ، يقول له، وقد طوّر شغفاً به على مَرّ السنين، وهذا لن يكون مشكلة. يواصل بينغ كلامه قائلاً إنهم بصورة عامّة يتناولون الفطور والعشاء معاً، لأنهم جميعاً ينقصهم المال، ويحاولون إنفاق الحدّ الأدنى. توحيد مواردهم ساعدهم على الاستمرارية، والآن بما أن مايلز قد انضمّ إليهم، فنفقات الجميع سوف تنخفض. سوف يستفيدون جميعاً من وجوده، وفي ذلك لا يقصد المال، بل كل شيء يمكن أن يضيفه مايلز إلى روحية البيت، وبينغ يريده أن يفهم كم يُسعده أن يعرف أنه عاد أخيراً إلى حيث ينتمي. يرفع مايلز كتفَيْه، قائلاً إنه يأمل بأن يتمكّن من الانسجام، ولكنه يتساءل سرّاً ما إذا كان مناسباً لهذا النوع من العيش الجماعي، وإن لم يكن من الأفضل له البحث عن مكان خاصّ به. المشكلة الوحيدة هي المال، المشكلة نفسها التي يواجهها البقية. هو لم يعد لديه عمل، والثلاثة آلاف دولار التي أحضرها معه ليست إلا قروشاً قليلة. سواء أعجبه ذلك أم لا، فهو في الوقت الحالي عالق، وما لم يحدث تطوّر دراماتيكي، يغيّر ظروفه، فعليه الإفادة قدر الإمكان من الوضع الحالي. وهكذا تبدأ محكوميّته. شقيقة بيلار حوّلته إلى العضو الأحدث في مجموعة صانست بارك الرباعية.

تلك الليلة، أقاموا عشاء ترحيبياً على شرفه، وعلى الرغم من أنه يُفضِّل ألا يكون مركز الاهتمام، فإنه يحاول أن يعيش المناسبة، من دون أن يظهر مدى انزعاجه. ما هي انطباعاته الأولى عنهم؟ يجد أليس الأكثر قُرباً إلى قلبه بينهم، الأكثر رصانة، ويُعجب بالأحرى بمقاربتها الصبيانية الحادّة للأمور، تلك التي استمدّتْها من بيئة وسط غرب(*) البلاد التي تتحدّر

(*) Midwestern الإقليم يتضمّن خمس ولايات، هي: أوهايو، وعاصمتها مدينة كولومبس، وإنديانا، وعاصمتها انديانابوليس، وإلينوي، وعاصمتها سبرنجفيلد، وميشيغان، وعاصمتها لانسينج، ووسكنسن، وعاصمتها ماديسون، ومساحته (٦٤٣,٠٥٣) كيلومتراً مربّعاً، وجملة سكّانه في سنة ١٩٨٨ (٤٢,٧٤٠,٠٠٠)، ويُعدّ أكبر أقاليم الولايات المتّحدة سكّاناً.

Tele: @Arab_Books

منها. يرى فيها امرأة مثقّفة راجحة العقل، ولكنها غير متكلّفة، ولا تنتقص من ذاتها، ولديها موهبة طَرْح ملحوظات ذكية في لحظات غير متوقّعة. إيلين تُحيّره أكثر. فهي جذّابة وغير جذّابة في آن، منفتحَة ومُقفَلَة معاً، وبين فينة وأخرى، يبدو أن شخصيّتها تتغيّر؛ تعتريها لحظات صمت طويلة غريبة، ثمّ، حين تتكلّم أخيراً، نادراً ما تُخفق في قول شيء ألمعيّ. يحسّ باضطرابها الداخلي، اختلالها، ورغم ذلك لطفها العميق في الوقت ذاته. فقط لو أنها لا تُحملق به إلى هذا الحدّ، لربّما استطاع أن يكون أكثر لطفاً معها قليلاً، لكنها لم ترفع عينَيْها عنه منذ جلس إلى الطاولة، ويشعر بالحرج جرّاء اهتمامها السافر والمبالغ به. ثمّ هناك جايك، الزائر من وقت لآخر لصانست بارك، شابّ هزيل آخذ في الصلع، ذو أنف حادّ، وأذنان كبيرتان، جايك باوم الكاتب، صاحب أليس. خلال الدقائق الأولى القليلة يبدو حضوره لطيفاً بما فيه الكفاية، ولكنْ، سرعان ما يبدأ انطباعه عنه بالتّغيّر، ملاحظاً أنه بالكاد يتجشّم عناء الإصغاء لأحد سوى نفسه، خاصّة أليس، التي يقاطعها مراراً، وغالباً في وسط الجملة، وذلك كي يواصل فكرة تخصّه، وقبل مرور وقت طويل، يستخلص أن جايك باوم مملّ، ولو بدا قادراً على إلقاء شعر باوند من الذاكرة، وتعداد الفِرَق المتنافسة من كل بطولة عالم منذ العام ١٩٣٢. لحسن الحظّ، بينغ يبدو في أحسن أحواله، يلعب بحماسة دوره كسّيّد الطقوس، وعلى الرغم من التّوتّر غير المَرئي في الهواء، فإنه يحافظ ببراعة على الإيقاع العابث للسهرة. كل مرّة تفتح فيها قنّينة نبيذ جديدة، يقف ويقترح نخباً، محتفياً بعودة مايلز إلى الديار، وبمرور أربعة شهور على ثورتهم الصغيرة، محتفلاً بحقوق محتلّي البيوت في أنحاء العالم. الشيء السلبي الوحيد في هذا الخليط كله هو حقيقة أن مايلز لا يشرب الخمر، وهو يعرف أنه حين يلتقي الآخرون شخصاً، يمتنع عن الكحول، يفترضون تلقائياً أنه يتعافى من الإدمان. مايلز لم يكن

Tele: @Arab_Books

يوماً كحولياً، لكنْ، مرّ وقت كان يشعر فيه أنه يشرب كثيراً، وحين أقلع عن الشرب قبل ثلاث سنوات، كان الأمر يتعلّق بتوفير المال، بقدر ما بصحّته. فليظنّوا ما شاؤوا، يقول لنفسه، لا يهتمّ بالأمر، ولكنْ، كل مرّة يرفع فيه بينغ كأسه لنخب جديد، يلتفت جايك إلى مايلز، ويحثّه على الانضمام إليهم. غلطة بريئة في البداية ربمّا، ولكنْ، كان هناك نخبان إضافيان منذ ذلك الحين، وجايك ما يزال يُكرّرها. لو عرف ما يَقدر مايلز على فعْله حين يغضب، لكان توقّف على الفور، ولكن جايك لا يعرف، ولو فعل ذلك ثانية، فسينتهي به الأمر بأنف دام، أو فكّ مُحطَّم. لقد كافح طوال سنوات، لكي يبقى مسيطراً على أعصابه، والآن، في اليوم الأوّل له في نيويورك، يشعر أنه يستشيط غضباً، مستعدّاً لتمزيق أحدهم.

يزداد الأمر سوءاً. قبل العشاء طلب من بينغ ألا يُخبر أحداً بهوية والدَيْه، أن يُبقي اسمَي موريس هيلر وماري لي سوان خارج الموضوع، وبينغ قال بالطبع، ولم يحتاجا إلى مناقشة الأمر، ولكنْ، الآن ما إن شارف العشاء على الانتهاء، حتّى بدأ جايك يتكلّم على آخر روايات رينزو ميكالسون، "حوارات الجبل" التي نشرتْها دار والده في سبتمبر. ربمّا لم يكن من شيء غير اعتيادي حيال ذلك، الكتاب ناجح بصورة استثنائية، ولا ريب أن الكثيرين يتكلّمون عليه، وباوم كاتب بحدّ ذاته، وهو ما يعني أنه يألف عمل رينزو، ولكن مايلز لا يريد سماعه يُسفسف حوله، ولا حول أيّ كتاب، قرأه في فلوريدا لدى نشره، حين لم تكن بيلار في الشّقّة، لأن هذا كان كثيراً عليه، فهم أن العجوزَيْن البالغَيْن اثنَيْن وستّين عاماً الجالسَيْن يتكلّمان أعلى الجبل في بركشاير، هما ورينزو ووالده، وكان مستحيلاً عليه قراءة الكتاب من دون أن تنهمر منه الدموع، لاسيما حين قرأ تلميحات إليه في أسى القصّة، الرجلان يتكلّمان حول الأشياء التي عاشاها معاً، صديقان قديمان، أفضل الأصدقاء، والده وعرّابه، وها هو المتبجّح جايك باوم يُفصح عن

Tele: @Arab_Books

آرائه حول الكتاب، ويتمنّى مايلز من صميم قلبه أن يتوقّف. باوم يقول إنه يرغب في مقابلة مايكلسون. يعرف أنه نادراً ما يتكلّم إلى الصحافيّين، ولكنْ، ثمّة الكثير من الأسئلة التي يرغب في طَرْحها عليه، وألن يكون إنجازاً له لو أقنع مايكلسون بمَنْحه ساعَتَيْن من وقته؟ باوم يفكّر فقط في طموحاته الصغيرة، محاولاً تضخيم أهمّيّته من خلال التّغذّي على شخص آخر أعظم ممّا سيكون عليه يوماً بعشرة آلاف مرّة، ثمّ الأخرق بينغ يبثّ الأنباء أنه مَنْ ينظّف ويُصلح آلة رينزو الكاتبة، مايكلسون الطّيّب العجوز، واحد من سلالة الكتّاب المنقرضين، روائي لم يتحوّل بعد إلى الكومبيوتر، وأجل، يعرفه قليلاً، وربمّا يوصي به جايك المرّة التالية التي يأتي فيها إلى متجره. الآن، مايلز بات جاهزاً للانقضاض على بينغ وخَنْقه، ولكنْ، في تلك اللحظة، لحسن الحظّ، يتحوّل النقاش إلى موضوع آخر عندما تُفجّر أليس عَطْسة كبيرة، وفجأة يبدأ بينغ بالتّكلّم على الزكام ونزلات البرد الشتوية، ولا يعود أحد إلى ذِكْر مقابلة رينزو ميكالسون.

بعد العشاء، يقرّر أن يزهد في الحضور، كلّما كان جايك موجوداً، أن يتجنّب المزيد من الوجبات معه. لا يريد أن يفعل شيئاً يندم عليه لاحقاً، وجايك من نوع الرجال الذين يستثيرون أسوأ ما فيه. كما تطوّرت الأمور، المشكلة لم تكن بالخطورة التي افترضها. فباوم لا يأتي إلا مرّة في الأسبوعَيْن التاليَيْن، وعلى الرغم من أن أليس تمضي ليلَتَيْن معه في مانهاتن، فإن مايلز يحسّ بمشكلة بينهما، أنهما يواجهان مرحلة سيّئة، أو حتّى نهاية علاقتهما. لا ينبغي أن يشغله ذلك، ولكنْ، الآن وقد بات يعرف أليس، يأمل بأن تكون النهاية، ذلك أن باوم لا يستأهل امرأة مثلها، وهي تستحقّ شخصاً أفضل منه بكثير.

بعد ثلاثة أيّام من وصوله، يتّصل بمكتب والده. عاملة الاستقبال تُخبره

بأن السيد هيلر خارج البلاد، ولن يعود حتّى الخامس من يناير. أيحبّ أن يترك له رسالة؟ لا، يقول، سأتّصل به الشهر المقبل، شكراً لكِ.

يقرأ في الصحيفة أن عروض مسرحية أمّه ستبدأ في الثالث عشر من يناير. لا يعرف ماذا يفعل بنفسه. إلى جانب حواراته اليومية مع بيلار، والتي تميل إلى الاستمرار لساعة واثنتَيْن، بات يفتقد إلى النظام في حياته. يجول في الشوارع محاولاً أن يألف الحيّ، لكنه سرعان ما يفقد اهتمامه بصانست بارك. ثمّة شيء ميت في المكان، يكتشف، الفراغ الحزين للفقر وكفاح المهاجرين، منطقة خالية من المصارف والمكتبات، ولا يوجد بها سوى آلات سَحْب النقود، ومكتبة عامّة آيلة للسقوط، عالم صغير بعيد عن العالم، حيث الوقت يمضي ببطء شديد، والقليل من الناس يتجشّمون عناء وَضْع ساعات اليد. يمضي بعد ظهر أحد الأيّام ملتقطاً الصور لبعض المصانع قرب الواجهة المائية؛ المباني القديمة التي تؤوي آخر الشركات الحية في الحيّ، مصنّعو نوافذ وأبواب، برك سباحة، ملابس نسائية، وبزّات ممرّضات، ولكنّ الصور منعدمة الملامح على نحو ما، تفتقر إلى الحيوية والإلهام. في اليوم التالي يذهب إلى تشايناتاون في الجادّة الثامنة، بمتاجرها المزدحمة، وأرصفتها المكتظّة، البطّ المعلّق على واجهة اللّحّام، مئة مشهد محتمَل يمكن تصويره، ألوان حيوية حوله، ومع ذلك يشعر بنفسه مُسطّحاً، غير منخرط بما يراه، ويغادر من دون أن يلتقط صورة واحدة. سيحتاج إلى وقت، لكي يتكيّف، يقول لنفسه. ربّما يكون جسده هنا الآن، لكنْ، في عقله، ما يزال في فلوريدا مع بيلار، وحتّى لو كان في مدينته ثانية، فنيويورك هذه ليست نيويورك التي يعرفها، ليست نيويورك ذاكرته. فبعد كل المسافة التي قطعها، لا يختلف الأمر عن أن يكون قد وصل إلى مدينة غريبة، مدينة في أيّ مكان آخر في أمريكا.

شيئاً فشيئاً، بدأ يُؤقلِم نفسه على عينَيّ إيلين. لم يعد يشعر بالتهديد

Tele: @Arab_Books

جرّاء فضولها تجاهه، ففي حين كانت تتكلّم أقلّ من الجميع خلال أوقات الإفطار والعشاء المشتركة إلى طاولة المطبخ، فإن لسانها لا يكفّ عن الحراك حين يكون وحده معها. تتواصل غالباً عبر طَرْح الأسئلة، ليست الأسئلة الشخصية عن حياته أو ماضيه، بل عن آرائه في مواضيع، تتراوح بين الطقس إلى حال العالم. أيحبّ الشتاء؟ مَنْ يعجبه أكثر، بيكاسو أم ماتيس؟ أهو قلق حول الاحترار الكوني؟ أكان سعيداً حين انتُخب أوباما الشهر الماضي؟ لماذا يحبّ الرجالُ الرياضةَ كثيراً؟ مَنْ هو مُصوِّره الفوتوغرافي المُفضَّل؟ لا ريب في أن ثمّة شيئاً طفولياً في أسئلتها المباشرة هذه، ولكنْ، في الوقت نفسه، فإن أسئلتها غالباً ما تُحرِّض على التواصل المُفعَم حيوية، ومُتتبّعاً مسار أليس وبينغ قبله، يشعر بمسؤولية متنامية لحمايتها. يفهم أنها وحيدة، وأنها لن تفضّل شيئاً أكثر من أن تمضي كل ليلة في سريره، لكنه أخبرها ما يكفي عن بيلار، لتعرف أن هذا لن يحدث. ذات يوم من أيّام عطلها، تدعوه للتّنزّه معها في مقبرة غرينوود، زيارة إلى مدينة الموتى، كما تسمّيها، وللمرّة الأولى منذ وصوله إلى صانست بارك يشعر بشيء يتحرّك في داخله. كان ثمّة الأشياء المهجورة في فلوريدا، والآن ها قد وقع على الأناس المهجورين في بروكلين. يظنّ أنها منطقة تستأهل الاستكشاف.

مع أليس، حصل على فرصة مكالمة أحدهم عن الكُتُب، وهو أمر نادراً ما حصل له خلال السنوات بين الكُلّيّة وبيلار. مبكراً يكتشف أنها شبه جاهلة بالأدب الأوروبي والأمريكي الجنوبي، وهو ما يُشعره ببعض خيبة الأمل، ولكنها من أولئك الأكاديميّين المتخصّصين في عالمهم الأنغلو أمريكي، الذين يألفون بيولف(*) ودريزر(**) أكثر ممّا يألفون دانتي وبورخيس،

(*) Beowulf ملحمة إنجليزية قديمة، تعود ما بين القرن الثامن والحادي عشر للميلاد.

(**) الروائي الأمريكي ثيودور درايزر (١٨٧١-١٩٤٥).

Tele: @Arab_Books

ولكنّ هذا بالكاد يمكن عَدّه مشكلة، فما يزال هناك الكثير للتّحدّث بشأنه، ولكنْ، قبل أن يمرّ المزيد من الأيّام يكونان طوّرا طريقة خاصّة مختصرة للتعبير عمّا يحبّانه، ولا يحبّانه، لغة تتكوّن من النخر، وتقطيب الجبين، ورَفْع الحاجبَيْن، وهزّ الرأس، والصفعات المفاجئة على الفخذ. إلا أنه أخبرها عن بيلار، ولكنْ، ليس الكافي، ليس أيّ شيء من اسمها وحقيقة أنها ستأتي من فلوريدا لزيارته خلال فرصة الميلاد. يستعمل كلمة فرصة بدلاً من عطلة، بما أن الفرصة توحي دوماً بالجامعة، بينما العطلة توحي بالمدرسة، ولا يريد أن يعرف أحد في البيت كم أن بيلار يافعة حتّى تكون هنا – وبذلك الحين، يأمل، أن أحداً لن يتجشّم عناء الاستفسار عن عمرها. ولكنْ، حتّى لو سألوا، فهو ليس قلقاً. الشخص الذي يثير قلقه ليس أنجيلا فحسب، بل تريزا وماريا أيضاً، فما إن تعرف إحداهنّ حتّى يعرف الجميع، وحتّى لو كان ذلك مستبعداً، فإن أنجيلا يمكن أن تكون مجنونة بما فيه الكفاية حتّى تلحق بيلار إلى نيويورك.

ابتاع كتاباً مُصوَّراً صغيراً عن مقبرة غرينوود، وبدأ يزورها يومياً مع كاميرته، متجوّلاً بين القبور والأنصاب والأضرحة المنقوشة، تقريباً دائماً وحده في هواء ديسمبر القارس، دارساً بإمعان العمارة المسرفة، شبه المتفاخرة لبعض الأضرحة، الأعمدة والمسلات الرخام، المعابد الإغريقية والأهرام المصرية، والتماثيل الضخمة التي تجسّد نسوة مضطجعات باكيات. المقبرة أكثر من ضعف حجم سنترال بارك، واسعة بما يكفي، لكي يضيع فيها المرء، أن ينسى أنه سجين يقضي محكوميّته في جزء تعس من بروكلين، ماشياً عبر آلاف الأشجار والنباتات، مُتسلّقاً الهضاب، ومُجتازاً الممرّات الملتفّة في مدينة الموتى الكبيرة هذه، يعني أن يترك المدينة خلفه، ويقفل على نفسه في الصمت المطلق للموتى. يلتقط صور أضرحة رجال العصابات والشعراء، الجنرالات والصناعيّين، ضحايا جرائم

Tele: @Arab_Books

القَتْل، وناشري الصُّحُف، الأطفال الموتى قبل الأوان، امرأة عاشت سبعة عشر عاماً بعد عامها المئة، وزوجة ثيودور روزفلت وأمّه اللتَيْن دُفنتا بجوار بعضهما في اليوم نفسه. هناك يرقد أيضاً إلياس هوي، مخترع آلة الخياطة، الأخوان كامف، مُخترعا شفرة الحلاقة الآمنة، هنري ستاينواي، مؤسّس شركة ستاينواي للبيانو، جون أندروود، مؤسّس شركة طابعات أندروود، هنري شادويك، مخترع نظام التسجيل في البايسبول، إلمر سبيري، مخترع الجيروسكوب(*). المقبرة التي بُنيت في منتصف القرن العشرين تضمّ رفات جون شتاينبك وودي غوثريو إدوارد مورو وأوبي بلايك وأكثر بكثير، من المعروفين والمجهولين، كم المزيد من الأرواح تحوّلت دخاناً في هذا المكان العجيب الرائع؟ لقد انخرط في مشروع آخر عديم الفائدة، موظّفاً كاميرته كأداة لتسجيل أفكاره الشاردة عديمة النَّفْع، ولكنه على الأقلّ يجد ما يفعله، طريقة لتزجية الوقت حتّى يستأنف حياته ثانية، وفي أيّ مكان سوى مقبرة غرينوود له أن يعرف أن الاسم الحقيقي لفرانك مورغان، الذي لعب دور ساحر أوز، هو ووبرمان؟

(*) Gyroscpe: أو المدوار: أداة تحديد الاتّجاه.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

موريس هيلر

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الأوّل

إنه أوّل أيّام السنة، وقد عاد إلى البيت من إنجلترا قبل أسبوع من الوقت المحدّد، لكي يحضر جنازة ابنة مارتن روثستاين البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، والتي انتحرت في البندقية قبل ليلة من عشية الميلاد. لقد كان ينشر أعمال روثستاين منذ تأسيس دار هيلر. مارتي ورينزو كانا الأمريكيَّيْن الوحيدَيْن على القائمة الأولى، أمريكيان جنباً إلى جنب بير كارلسن من الدانمارك، وأنيت لوفرين من فرنسا، وبعد خمسة وثلاثين عاماً ما يزال ينشر لهم جميعاً، إنهم الكتّاب الأساسيون في داره، ويعرف أنه يمكن أن يفعل كل شيء من أجلهم. وصلت الأخبار عشية الرابع والعشرين من الشهر، رسالة إلكترونية جماعية لأكثر من مئة من الأصدقاء والمعارف، والتي قرأها على حاسوب ويلا في غرفتهما في فندق شارلوت ستريت في لندن، الرسالة الكئيبة العارية مصدرها مارتي ونينا، وتفيد بأن سوكي قد أقدمت على الانتحار، مع المزيد من المعلومات حول موعد الجنازة. ويلا لم تُرده أن يذهب. فكّرت أن الجنازة ستكون قاسية جدّاً عليه، كان ثمّة الكثير من الجنازات في العام الماضي، الكثير من الأصدقاء يموتون الآن، وهي تعرف مدى ابتئاسه من هذه الخسارات، تلك الكلمة التي استعملتها، مبتئساً، ولكنه قال إنه يجب أن يذهب من أجلهما، لن يعقل ألا يذهب، واجبات الصداقة تتطلّب ذلك، وبعد أربعة أيّام، كان في الطائرة التي أقلّته عائدة إلى نيويورك.

الآن هو الحادي والثلاثين من ديسمبر، قبيل الظهر من اليوم الأخير

Tele: @Arab_Books

من ٢٠٠٨، وبينما يترجّل من القطار رَقْم ١، ويرتقي الدرج إلى برودواي والشارع ٧٩، الهواء يكون مُضمّخاً بالثلج، ثلج ثقيل رطب يسقط من السماء البيضاء الرمادية، شرائح سميكة من الثلج تهطل عبر العتمة المتوعّدة، حاجبة ألوان إشارات السير، ومُلقية بياضها على سقوف السّيّارات، وعند وصوله إلى دار العزاء في جادّة أمستردام، يبدو معتمراً قبّعة من الثلج. سوكي روثنستاين، التي تحمل بالولادة اسم سوزانا، الطفلة التي رآها للمرّة الأولى نائمة على ذراع والدها الأيمن قبل ثلاثة وعشرين عاماً، الشّابّة التي تخرّجت بامتياز في جامعة شيكاغو، الفنّانة الناشئة، المفكّرة المبكرة الموهوبة، الكاتبة والمصوّرة الفوتوغرافية التي ذهبت إلى البندقية في الخريف الماضي، لكي تعمل متدرّبة في مجموعة بيغي غوغنهايم، وهناك، في حمّام النساء في ذلك المتحف، بعد أيّام قليلة من حضورها حلقة دراسية حول عملها هي، قامت بشَنْق نفسها. ويلا كانت محقّة، يعرف ذلك، ولكي لا يشعر بالتّهدّم جرّاء موت سوكي، كيف لا يضع نفسه مكان والدها، ويعاني أعطاب موتها العَبَثي هذا؟

يذكر أنه صادفها قبل سنوات في هيوستن ستريت في ضوء بعد ظهيرة متأخّرة نهاية الربيع وبداية الصيف. كانت في طريقها إلى حفل التّخرّج من الثانوية، ترفل بفستانها الأحمر الموشّى، أحمر كأكثر طماطم جيرسي حمرة، وأضاءت وجهها ابتسامة حين صادفها في ذلك الحين، وقد أُحيطت بصديقاتها، مُحيّية إيّاه بسعادة، وبقُبلة عند اللقاء والوداع، ومنذ ذلك اليوم، بقيت صورتها تلك في رأسه، بوصفها التجسيد المثالي للبهجة والوعد الشبابيّيْن، مثال بارز عن الشباب المضطرم. الآن يفكّر في ذلك البرد القارس في البندقية في عزّ الشتاء، القنوات تفيض على الشوارع إلى مستوى الركبة، الوحدة الراجفة للغرف غير المدفّأة، رأس يتصدّع من

Tele: @Arab_Books

قوّة العتمة التي فيه، حياة تتحطّم بالكثير جدّاً والقليل جدّاً الذي يقدّمه هذا العالم.

يدخل متثاقلاً إلى المبنى مع الآخرين، حشد يتجمّع ببطء حتّى يصل إلى مئتَيْن أو ثلاثمئة، ويرى عدداً كبيراً من الوجوه المألوفة في الحشد، ومن بينهم رينزو، ولكنْ، أيضاً سالي فوتشس ودون ولينغهام وجوردون فيلد، وعدد من الأصدقاء القدامى والكتّاب والشعراء والفنّانين والمحرّرين والكثير من الشباب أيضاً، عشرات الشّبّان والشّابّات، أصدقاء سوكي من الطفولة والثانوية والجامعة، والجميع يتكلّم بصوت منخفض، وكأن التّكلّم فوق مستوى الهمس يُشكِّل إهانة، إساءة لصمت الميت، وبينما ينظر في الوجوه حوله، الجميع يبدو مُخدّراً مُنهكَاً، غير حاضر تماماً هناك، مُدمَّراً. يشقّ طريقه إلى حجرة صغيرة في نهاية الرواق، حيث مارتي ونينا يرحّبان بالزّوّار والضيوف والمُعزّين أو أيّاً تكن الكلمة التي يمكن أن تصف الأناس الذين يذهبون إلى الجنازات، وبينما يخطو قدماً، لكي يعانق صديقه القديم، تنهمر الدموع على وجه مارتي، ثمّ يحيطه مارتي بذارعَيْه، ويضغط رأسه على كتفَيْه قائلاً: موريس، موريس، موريس، بينما يختلج جسده في نوبات من البكاء المنقطعة النَّفَس. مارتن روتستاين لم يُخلَق لمثل هذه المآسي. فهو رجل يتمتّع بالطرافة والسِّحْر الفائق، كاتب ساخر لعبارات باروكية رائعة البناء وبديهية حاضرة للسخرية، محرّض فكري، مع شهية كبيرة وعدد لا يُحصى من الأصدقاء، وحسّ فكاهي يضاهي أفضل ما لدى أبناء بورشت بيلت(*) الأذكياء. الآن ينتحب قلبه الذي استولى عليه الحزن، بأقسى أشكال الحزن وأكثرها إيلاماً، وموريس يتساءل كيف يتوقّع أيّ كان من رجل في هذا الوضع أن يقف ويتكلّم أمام جميع هؤلاء الناس حين

(*) Borscht Belt تعبير شائع لمنتجعات جبلية في جبال ولاية نيويورك، كانت مقصد اليهود الأمريكيّين على وجه الخصوص بين عشرينيات القرن العشرين وسبعينياته.

Tele: @Arab_Books

بدأت طقوس الجنازة. ومع ذلك، بعد بعض الوقت، حين اتّخذ المُعزّون مقاعدهم في القاعة، وصعد مارتي المنصّة، لكي يُلقي خطاب التأبين، فقد كان هادئاً، جافّ العينَيْن، متعافياً كُلّيّاً من انهياره في غرفة الاستقبال. يقرأ نصّاً، كتبه بنفسه، نصّ أمكنه كتابته بالوقت الذي تطلّبه شحن جسد سوكي من البندقية إلى نيويورك مُحدثاً هوّة بين الموت والدَّفْن أطول من المعتاد، وفي تلك الأيّام الفارغة المضطربة بانتظار وصول جثمان ابنته، جلس وكتب النصّ. في تأبين بوبي، لم يكن هناك كلمات. ويلا لم تستطع كتابة أو قول شيء، ولا هو أيضاً، فقد سحقهما الحادث إلى حال من عدم الفَهْم الأبكم، أسى بليد نازف استمرّ شهوراً، ولكن مارتي كاتب، وقد أمضى حياته مؤلّفاً الكلمات والجمل والفقرات والكُتُب، والطريقة الوحيدة التي يمكنه التجاوب فيها مع موت سوكي هو بالكتابة عنها.

التابوت على المنصّة؛ تابوت أبيض مُحاط بالزهور الحُمر، ولكنه ليس قدّاساً دينياً. ليس من حاخام ليرأس القدّاس، ولا صلوات تُليت، ولا أحد على المنصّة يحاول أن يستخلص أيّ معنى أو مؤاساة من موت سوكي -- ليس هناك إلا حقيقة الفاجعة، ورعبها. أحدهم قدّم عزفاً منفرداً على الساكسفون، وشخص آخر عزف كورال لباخ على البيانو، وفي لحظة ما، قام أنطون شقيق سوكي الأصغر، مرتدياً طلاء أظافر أحمر تكريماً لأخته، بأداء أغنية كول بورتر (كل مرّة نقول وداعاً، أموت قليلاً) وقد غنّاها بإيقاع بطيء جدّاً، مفعم بالأسى والألم، بحيث كان معظم الحاضرين قد انخرطوا بالبكاء لدى فراغه منها. كتّاب صعدوا المنصّة، وقرؤوا قصائد لشكسبير وييتس. أصدقاء وزملاء دراسة رووا قصصاً وذكريات عن سوكي، مستحضرين الكثافة المضطرمة لروحها. مدير الصالة، حيث أقامت معرضها الأوّل الوحيد تكلّم على عملها. وأصغى موريس إلى كل كلمة قيلت، وكلّ نوتة عُزفت وغُنِّيَت، على شفير التهاوي على امتداد الساعة ونصف الساعة من الجنّاز، لكنه خطاب مارتي الذي كاد يُدمِّره، نصّ شجاع مذهل في بلاغته صدمه

Tele: @Arab_Books

بصِدْقه، بالدقّة الهائلة في تفكيره، الغضب والأسى والذهب والحبّ يتخلّل كل حرف من حروفه. طوال خطاب مارتي الذي امتدّ عشرين دقيقة، تخيّل موريس نفسه يتكلّم على بوبي، على مايلز، على بوبي الميت منذ زمن طويل، ومايلز الغائب، ولكنه يعرف أنه لن يمتلك جرأة الوقوف أمام الناس، لكي يعبّر عن مشاعره بمثل هذا الصِّدْق العاري.

بعد ذلك ثمّة وقفة. فقط آل روثستاين والأقرباء المُقرّبون سوف يذهبون إلى المقبرة في كوينز. والجميع دُعيوا إلى شقّة مارتي ونينا عند الساعة الرابعة، ولكنْ، على المُعزّين الرحيل الآن. يسرّه أنه أُعفي من محنة مشاهدة التابوت، وهو يُخفَض إلى باطن الأرض، والبلدوزر تدفع التربة في الحفرة ثانية، مشهد مارتي ونينا وهما ينهاران باكيَيْن ثانية. يتبعه رينزو إلى مدخل الصالة، وكلاهما يعودان إلى الثلج بحثاً عن مكان، يتناولان فيه الغداء. رينزو ذكي بما فيه الكفاية، ليكون قد جلب معه مظلّة، وبينما ينحشر به موريس، يحيطه رينزو بذراعه. لا يقول أيّ منهما شيئاً. إنهما صديقان منذ خمسين عاماً، وكل واحد منهما يعرف ما يُفكّر به الآخر. ينتهي بهما الأمر في مطعم يهوديّ، في برودواي، في الجادّة ثمانين المنخفضة، وهو ما رجع بهم إلى طفولتهم النيويوركية، مطبخ الكستليتة الذي لم يختف البتّة، وحساء شراب الماتزو ولحم البقر وشطائر البسترمة، الطبخ على البخار وفطائر الجبن والمخلّلات الحامضة. رينزو كان مشغولاً في رحلات عدّة، ولم يتقابل وموريس منذ نشر "حوارات الجبل" في سبتمبر، وموريس يشعر أن رينزو يبدو متعباً، أكثر إنهاكاً من ذي قبل. كيف غدوا هرمين إلى هذا الحدّ؟ يتساءل. كلاهما في الثانية والسّتّين الآن، وفي حين أن أيّاً منهما ليس في صحّة سيّئة، ولا سميناً أو أصلع أو جاهزاً لمعمل الصمغ(*)، فإن

*) تعبير شائع يُراد منه التّقدّم في السّنّ، وهو مُشتقّ من أَخْذ الجياد حين تكبر في السّنّ إلى المعامل، حيث تُقتَل، وتُحوَّل عظامها إلى صمغ.

Tele: @Arab_Books

شعر رأسَيْهما غزاه الشيب، وبدأ بالتراجع، وقد وصلا نقطة في حياتَيْهما، باتت فيه النسوة في الثلاثين أو حتّى الأربعين لا تراهما. يتذكّر رينزو كاتباً مفعماً بالشباب خارجاً للتّوّ من الجامعة، يعيش في شقّة، تبلغ أجرتها تسعة وأربعين دولاراً في الشهر في الحيّ الشرقيّ الأسفل(*)، تلك الشقق المحاذية للسكك الحديد، والتي فيها مغطس في المطبخ وستّة آلاف صرصار، تعقد مؤتمرات سياسية في كل خزانة، فقيراً إلى حدّ أنه كان مُضطرّاً أن يكتفي بوجبة واحدة في اليوم، وقد عمل ثلاث سنوات على روايته الأولى التي دمّرها، لأنه شعر أنها ليست جيّدة بما فيه الكفاية، وذلك رغم احتجاجات موريس، وصاحبته، إذ شعر كلاهما أنها جيّدة بالفعل، والآن انظرْ إليه، يفكّر موريس، بعد كم كتاب منذ ذلك المخطوط المحترق (سبعة عشر؟ عشرون؟)، نشر في كل بلد في العالم، حتّى إيران، بحقّ الجحيم، مع كَمْ جائزة أدبية، وكَمْ ميدالية، ومفاتيح مُدُن، وشهادات دكتوراه فخرية، كَمْ كتاباً وأطروحة وُضعَت عن عمله، ولا شيء منها يهمّه، إنه مسرور بامتلاكه بعض المال الآن، بتحرُّره من الضيق الذي عاناه في السنوات الأولى، لكنّ شهرته تركتْه بارداً، فاقد الاهتمام بنفسه كشخصية عامّة، كما يقولون. أريد أن أختفي فحسب، قال مرّة لموريس، متمتماً بصوت خفيض جدّاً، محملقاً بنظرة معذّبة في عينَيْه، وكأنه يُكلّم نفسه. أريد أن أختفي فحسب.

يطلبان الحساء والشطائر، وحين يذهب النادل اللاتيني عن طاولتهما حاملاً قائمة الطعام (نادل لاتينيّ في مطعم يهوديّ، كلاهما يحبّ ذلك)، يبدأ موريس ورينزو بالتّكلّم على الجنازة، متشاركَيْن انطباعاتهما عمّا شهداه للتّوّ في دار الجنازات. رينزو لم يعرف سوكي، التي التقاها مرّة واحدة في

(*) Lower East Side حيّ يقع في شرق مانهاتن بنيويورك، يُعرَف خصوصاً بأنه حيّ العمّال والمهاجرين.

Tele: @Arab_Books

صغرها، ولكنه يتّفق مع موريس على أن خطاب روثستاين كان نصّاً قوياً، يكاد لا يتخيّله المرء حين يفكّر أنه كُتب في ظلّ هذا الضغط، في وقت قلّة من الناس يمكنهم أن يستجمعوا شتات أنفسهم وكتابة كلمة واحدة، ناهيك عن خطاب تأبين شغوف ومركّب وثاقب النَّظَر كالذي سمعاه صباح اليوم. رينزو ليس له أطفال، زوجتان سابقتان، لكنْ، لا أطفال، وأخذاً في الاعتبار ما يمرّ فيه مارتي ونينا الآن، وما قد مرّ به وويلا من قبل، أوّلاً مع بوبي، ثمّ مع مايلز، يشعر موريس تجاهه بما يقرب من الحسد، بأن رينزو اتّخذ القرار الصائب قبل سنوات طويلة بأن يُبقي نفسه خارج مسألة الأطفال، وأن يتجنّب الفوضى المحتومة والدمار المحتمَل المُتمثِّل في الأُبوّة. يتوقّع إلى حدّ ما بأن رينزو سيبدأ بالتّكلّم على بوبي الآن، فالتوازي واضح جدّاً، وبالطبع يفهم مدى صعوبة هذه الجنازة عليه، ولكنْ، بالتحديد، لأن رينزو يفهم، فإنه لا يأتي على ذِكْر الموضوع. إنه أكثر تكتُّماً بهذا الشأن، أكثر وعياً بما يفكّر فيه موريس، بحيث لا يتطفّل على آلامه، وبعد ثوان فحسب، يفهم موريس تردُّد صديقه في أن يتطفّل عليه حين يغيّر رينزو الموضوع، متجاوزاً ذِكْر بوبي وقضية الأطفال الموتى الكئيبة، ويسأله كيف يتحمّل الأزمة، قاصداً الأزمة الاقتصادية؟ وكيف يقود هيلر للنشر في هذه العاصفة من المتاعب؟

يُخبره موريس بأن السفينة ما تزال عائمة، ولكنها جنحت بعض الشيء، وخلال الشهور القليلة الماضية كانوا يرمون المعدّات الفائضة عن متنها. شاغله الأوّل الحفاظ على فريق العمل، وحتّى الآن لم يُسرّح أحداً، لكن قائمة الأعمال المنشورة تقلّصت بنسبة عشرين أو خمسة وعشرين بالمئة. في العام الماضي، نشروا سبعة وأربعين كتاباً، هذا العام ثمانية وثلاثين، ولكن أرباحهم تراجعت ١١ بالمئة فقط، وذلك إلى حدّ كبير بفضل "حوارات الجبل" التي هي في طبعتها الثالثة، وقد بيع منها ٤٥ ألف نسخة هارد

Tele: @Arab_Books

كافر. أرقام مبيعات الميلاد لن تصل قبل بعض الوقت، ولكنْ، حتّى لو اتّضح أنها أقلّ من المتوقّع، فإنه لا يتوقّع كارثة ماحقة. لوفرين، ويات، وتومسيتي، جميعهم نشروا كُتُباً قوية هذا الخريف، وسلسلة كُتُب الجريمة الورقية، يبدو أنها شهدت انطلاقة جيّدة، ولكنه وقت صعب على الروايات الأولى، بالغ الصعوبة، وقد أُجبر على رَفْض بعض أعمال الشباب الجيّدين، كُتُب كانت لتحظى بفرصة قبل عام أو عامَيْن، ويجد هذا مزعجاً، بما أن كل جدوى هيلر للنشر هو تشجيع المواهب الجديدة. يخطّطون لثلاثة وثلاثين كتاباً فحسب للعام ٢٠٠٩، ولكن كارلسن على القائمة، وادافنبورت، ولا حاجة إلى القول إن هناك رواية رينزو القصيرة، الكتاب الصغير الذي كتبه بعد "حوارات الجبل"، الكتاب الإضافي غير المتوقّع الذي لديه آمال كبيرة حوله، ومَنْ يعرف، إن لم تُفلس كل دار نشر أمريكية مستقلّة خلال السنة القادمة، فقد تكون في انتظارهم سنة جيّدة. مصغياً إلى كلامه، كاد يشعر بشيء من التفاؤل، لكنه يُخبر رينزو جزءاً من القصّة فقط، مُهمِلاً حقيقة أنه حين تبدأ عائدات "حوارات الجبل" بالوصول، فإن المبيعات ستهبط بنسبة سبعة إلى عشرة آلاف، وأن العام ٢٠٠٨ كان الأسوأ على الدار منذ ثلاثة عقود، وأنه يحتاج إلى مستثمر جديد، يضع رأسمالاً إضافياً في الشركة، وإلا فإن السفينة ستغرق في غضون عامَيْن. ولكنْ، لا حاجة لأن يعرف رينزو بأيٍّ من هذا. رينزو يؤلّف الكُتُب، وهو ينشرها، ورينزو سيواصل الكتابة ونَشْرها حتّى لو أفلس هو.

بعد وصول الحساء، يسأل رينزو: ما آخر أخبار الفتى؟

إنه هنا، يقول موريس. منذ أسبوعَيْن أو ثلاثة.

هنا في نيويورك؟

في بروكلين. يعيش في بيت مهجور في صانست بارك مع أناس آخرين.

Tele: @Arab_Books

هل أخبركَ صديقنا الطّبّال بذلك؟

إنه أحد المقيمين هناك. وقد دعا مايلز للمجيء من فلوريدا، والصبيّ وافق، ولا تسألني عن السبب.

تبدو أخباراً طيّبة.

ربمّا. الوقت سيبين ذلك. يقول بينغ إنه ينوي الاتّصال بي، ولكنْ، لم تصل أيّ رسالة بعد. وماذا لو لم يتّصل؟

وماذا لو لم يتّصل؟

حينئذ لن يتغيّر شيء.

فكِّرْ في الأمر، موريس. كل ما عليكَ فعْله هو القفز في سيّارة أجرة، والذهاب إلى بروكلين، والقَرْع على الباب. ألا يغريكَ ذلك؟

بالطبع، يغريني. ولكنني لا أستطيع فعْله. فهو مَنْ رحل، وهو مَنْ يجب أن يعود.

لا يلحّ رينزو، وموريس يشعر بالامتنان له لتركه الموضوع. بوصفه عرّاب الصبي وصديق والده منذ أمد طويل، رينزو كان مشاركاً في هذه القصّة الكئيبة منذ سبع سنوات، والآن لم يعد ثمّة الكثير لقوله. يسأله موريس عن رحلاته الأخيرة، إلى براغ وكوبنهاغن وباريس، وقراءته في مسرح ماكس راينهرت في برلين، والجائزة التي حصل عليها في إسبانيا، ويقول رينزو إنها كانت انحرافاً مُرحَّباً به، فقد كان في حال من الجمود مؤخّراً، وكان شعوراً حسناً أن يكون في مكان آخر لبضعة أسابيع، في مكان آخر سوى رأسه نفسه. موريس كان يصغي إلى مثل هذا الكلام من رينزو منذ ما تُسعفه الذاكرة. رينزو دائماً في حال جمود، وكل كتاب ينهيه هو دائماً آخر كتاب

Tele: @Arab_Books

سيكتبه، ثمّ، على نحو ما، ينتهي الجمود بصورة غامضة، ويعود إلى حجرة الكتابة، لوضع كتاب جديد. أجل، يقول رينزو، يعرف أنه تكلّم على هذا النحو في الماضي، ولكنْ، هذه المرّة شعوره مختلف تجاه ذلك. لا يعرف السبب، ولكنْ، هذه المرّة بدأ يشعر بأن الشَّلَل دائم. "نزهة ليلية" انتهى في نهاية يونيو، يقول، منذ أكثر من ستّة شهور، ومنذ ذلك الوقت، لم يكتب شيئاً، يحسب حسابه. كان كتاباً صغيراً، لا يتجاوز المئة والخمسين صفحة، ولكنْ، يبدو أنه استخرج منه كل شيء، كتبه بنوع من السعار، في أقلّ من ثلاثة أشهر من البداية وحتّى النهاية، كاتباً بقوّة، وبتركيز أكبر من أيّ مرّة في كل سنوات كتابته، مندفعاً، ومندفعاً، مثل عدّاء يعدو بسرعة فائقة لسبعة أميال، وبقدر ما هو مبهج العمل بهذه السرعة، فإن شيئاً فيه قد تداعى حين عبر خطّ النهاية. طوال ستّة شهور لم تكن لديه أيّ خطط، ولا أفكار، ولا مشروع يشغل أيّامه. حين لم يكن مسافراً، أحسّ بنفسه بارداً، وبلا دافع، ولا رغبة لديه في العودة إلى مكتبه، والبدء مجدّداً بالكتابة. صحيح أنه شهد من قبل مثل هذا الهمود، ولكنه لم يكن مرّة بمثل هذا العناد أو الديمومة، وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى حدّ الشعور بالقلق، فقد بدأ يتساءل ما إذا كانت هذه هي النهاية، ما إذا كانت النيران القديمة قد انطفأت أخيراً. في الأثناء، يمضي أيّامه دون أن يفعل شيئاً تقريباً، قارئاً الكُتُب، مفكّراً، متنزّهاً، مشاهداً الأفلام، متابعاً أخبار العالم. بكلام آخر، إنه يستريح، ولكنْ، رغم ذلك كله، فهو نوع غريب من الراحة، يقول، استجمام قلق.

النادل يجلب لهما الشطائر، وقبل أن يتمكّن موريس من قول شيء عن هذا الوصف الذي نصفه جادّ ونصف ساخر للإنهاك الذهني، فإن رينزو - في تحوُّل كامل يناقض كل ما قاله توّاً - يُخبر موريس عن فكرة صغيرة، راودته خلال رحلة العودة من أوروبا قبل يومَيْن، بذرة فكرة صغيرة جدّاً – لمقالة،

Tele: @Arab_Books

نصّ غير روائي، شيء ما. يبتسم موريس. حسبتُ أنكَ نضبتَ من الأفكار، يقول. حسناً، يقول رينزو، وهو يرفع كتفَيْه دفاعاً، ولكنْ، بشيء من المرح في عينَيْه، المرء يحصل من وقت لآخر على ومضات عابرة.

كان على متن الطائرة، يقول، تذكرة درجة أولى دفع ثمنها أولئك الذين منحوه الجائزة، والخوف من الطيران خفّف منه شيئاً ما المقاعد الجلدية الناعمة، والكافيار والشمبانيا، ترف فارغ بين الغيوم، مع خيار وافر من الأفلام، ليس الأفلام الأوروبية والأمريكية الحديثة فحسب، بل القديمة أيضاً، الكلاسيكيات الموقّرة، الأعمال القديمة من معامل الأحلام على طرفيَ الأطلسي. وانتهى به الأمر مشاهداً "أحلى أيّام عمرنا"، وهو فيلم شاهده قبل زمن طويل، ومع أنه نسيه كُلّيّاً، فقد أحسّ أنه فيلم جيّد، يؤدّي فيه الممثّلون أدواراً جيّدة، وهو قطعة دعائية ساحرة، صُمِّمَت لإقناع الأمريكيين بأن الجنود العائدين من الحرب العالمية الثانية سوف يتأقلمون في نهاية المطاف مع الحياة المَدَنية، من دون أن يخلو طريقهم من بعض العقبات، بالطبع، ولكنْ، في النهاية كل شيء يسير على ما يرام، لأن هذه أمريكا، وفي أمريكا كل شيء يسير على ما يرام. أيّاً يكن من أمر، فقد استمتع بالفيلم الذي ساعده على تزجية الوقت، ولكنّ أكثر ما أثار اهتمامه فيه، لم يكن الفيلم نفسه، بل الدور الثانوي الذي لعبه أحد الممثّلين، وهو ستيف كوتشران. فهو لا يتمتّع إلا بالقليل من الأهمّيّة، مواجهة عابرة متكلّفة مع بطل الفيلم الذي تقيم زوجته علاقة سرّيّة سريعة معه، ولكنْ، هذا ليس هو أيضاً ما أثار اهتمامه، أداء كوتشران لا يعنيه البتّة، ما يهمّ هو القصّة التي أخبرته إيّاها أمّه من أنها عرفت كوتشران خلال الحرب، أجل أمّه أنيتا ماكالسن، ني كانيبيو التي توفّيت قبل أربع سنوات عن عمر الثمانين. كانت أمّه امرأة مراوغة، غير معتادة على البوح بماضيها، ولكنْ، حين توفيّ كوتشران عن سنّ الثمانية والأربعين في ١٩٦٥، في الوقت

Tele: @Arab_Books

الذي بلغ فيه رينزو التاسعة عشرة، لابدّ من أن وفاته فاجأتْها، وشعرت بحاجة إلى التخفّف ممّا يُثقل كاهلها، وهكذا أخبرتْه عن وَلَعها الوجيز بالمسرح في بداية الأربعينيات، كانت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أو السابعة عشرة، وكيف تقاطعت طريقها مع كوتشران في مجموعة مسرحية في نيويورك، وأُغرمت به. كان رجلاً ساحق الوسامة، قالت، أحد أولئك الأيرلنديين الوسيمين، ولكنْ، ما الذي عناه ذلك لم يكن واضحاً تماماً لرينزو. هل فقدت أمّه عذريّتها مع ستيف كوتشران في ١٩٤٢ حين كانت في السابعة عشرة؟ هل كان ثمّة علاقة فعْلية بينهما؟ أم أنه كان مجرّد انجذاب مراهقة بالممثّل الناجح البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً؟ يستحيل معرفة ذلك، ولكنّ ما روتْه أمّه هو أن كوتشران أرادها أن تُرافقه إلى كاليفورنيا، وكانت مستعدّة لذلك، ولكنْ، حين عرف والداها بما يخطّطان له، وضعا فوراً حدّاً للأمر. لن تفعل ابنتهما ذلك، غير مسموح بالفضائح العائلية، انسي الأمر، أنيتا. وهكذا رحل كوتشران، وبقيت أمّه، وتزوّجت من والده، وهكذا وُلد، لأن أمّه لم تفرّ مع ستيف كوتشران. هذه هي الفكرة التي تداعب تفكيره، يقول رينزو، أن يكتب مقالاً حول الأشياء التي لم تحدث، الحيوات التي لم تُعَش، الحروب التي لم تُخَض، العوالم الشبحية التي مضت بالتوازي مع العالم الذي نعدّه العالم الحقيقي، ما لم يُقَل ولم يُفعَل ولم يَحتَلّ موضعاً في الذاكرة. منطقة محفوفة بالمخاطر ربمّا، ولكنها تستأهل الاستكشاف.

بعد عودته إلى البيت، يقول رينزو، أحسّ بفضول كاف، لكي يقوم ببعض البحث عن حياة كوتشران الخاصّة والمهنية. لعب في الغالب دور رجل العصابات، وشارك بمسرحيَّتَيْن في برودواي مع ماي وست، من بين كثيرين، فيلم "قيظ أبيض" مع جايمس كاغني، ودور البطولة في فيلم إل

Tele: @Arab_Books

غريدو لأنطونيوني، وظهر في عدد من البرامج التلفزيونية في الخمسينيات: بونانزا، القاهرون، الطريق ٦٦، منطقة الغروب. وقد أسّس شركة إنتاج خاصّة به، والتي لم تُنتج شيئاً تقريباً (المعلومات شحيحة، ورغم فضول رينزو، فإنه ليس مهتماً بالبحث أكثر في هذه النقطة)، ولكنْ، يبدو أن كوتشران اكتسب صيتاً كزير نساء كبير في زمنه. وهذا يُفسِّر، على الأرجح، لماذا أُغرمت أمّه به، يواصل رينزو، متأمّلاً بحزن كم كان من السهل على زير نساء مُحترف أن يأسر قلب فتاة عديمة الخبرة في السابعة عشرة! كيف كان لها أن تقاوم الرجل الذي أقام لاحقاً علاقات مع جوان كروفورد، وميرل أوبيرون، وكاي كندل، وإيدال لوبينو، وجاين مانسفيلد؟ كما كان هناك مامي فان دورن التي من الواضح كتبت كثيراً عن حياتها الجنسية مع كوتشران في سيرة ذاتية، نُشرت قبل عشرين عاماً، ولكن رينزو لا يعتزم قراءة الكتاب. في النهاية، أكثر ما يفتنه كم أنه كبت واقع موت كوتشران، الذي لابدّ أنه سمع به حين كان في التاسعة عشرة، ولكنْ، حتّى بعد المحادثة مع أمّه (التي نظرياً كان يُفترَض أن تُشكِّل قصّة لا تُنسى)، نسي كل شيء. في ١٩٦٥، أملاً بإنعاش شركة الإنتاج المحتضرة الخاصّة به، طوّر كوتشران مشروعاً لفيلم، تجري أحداثه في أمريكا الوسطى أو الجنوبية. مع ثلاث نسوة بين أعمار الرابعة عشرة والخامسة والعشرين، وُظِّفنَ، على الأرجح، بوظيفة مساعدات، قصد كوستاريكا في يخته البالغ طوله أربعين قَدَماً، لكي يبدأ باستكشاف مواقع التصوير. بعد بضعة أسابيع، جرفت الأمواجُ المركبَ إلى الشاطئ على ساحل غواتيمالا. كوتشران كان قد توفيّ على متنه، بسبب عدوى رئوية حادّة، والشّابّات الثلاث الفزعات، اللواتي لا يعرفنَ شيئاً عن الإبحار في يخت يبلغ طوله أربعين قَدَماً، ظلّت المياه تتقاذفهنّ طوال عشرة أيّام، وحدهنّ مع جثمان كوتشران الآخذ بالتّحلّل.

Tele: @Arab_Books

يقول رينزو إنه لا يستطيع محو الصورة من تفكيره. النسوة الثلاث المرعوبات الضائعات في البحر مع الجسد المتحلّل لنجم سينمائي في الأسفل، مقتنعات بأنهنّ لن يبلغنَ اليابسة ثانية.

وهذه، يقول، قصّتي مع أحلى أيّام عمرنا.

Tele: @Arab_Books

الفصل الثاني

دُعي إلى أربع حفلات رأس سنة في أربعة مواقع مختلفة من مانهاتن، إيست سايد ووست سايد وأبتاون وداونتاون، ولكنْ، بعد الجنازة، والغداء مع رينزو، والساعتَيْن اللتَيْن أمضاهما في شقّة مارتي ونينا، لم تعد لديه رغبة في رؤية أحد. يعود إلى شقّته في دوانينغ ستريت، غير قادر على التوقّف عن التفكير بسوكي، وقصّة رينزو عن الممثّل الميّت على القارب المنجرف. كم جثّة رأى في حياته؟ يتساءل. ليس أولئك المحنّطون في القبور المفتوحة، الشخصيات المتحفية الشمعية التي جفّت فيها الدماء، والتي ما عادت تبدو أنها كانت بشرية يوماً، ولكنْ، الأجساد الميّتة فعلاً، الموتى الجُدُد، قبل أن يلمسهم مبضع الحانوتي؟ والده، قبل ثلاثين عاماً. بوبي، قبل اثنَي عشر عاماً، والدته قبل خمس سنوات. ثلاث. ثلاث جثث فقط خلال أكثر من ستّين عاماً.

يدخل إلى المطبخ، ويسكب لنفسه كأساً من الويسكي. وكان قد شرب اثنَيْن في شقّة مارتي ونينا، ولكنه لا يشعر بأقلّ قدر من الثمالة، تفكيره واضح، وبعد غداء ضخم في المطعم، والذي ما يزال قابعاً في معدته كالحجر، لا شهية له للعشاء. يقول لنفسه إنه سيُنهي العام باللحاق بالمخطوطات التي كان يُفترض به قراءتها في إنجلترا، ولكنه يفهم أن هذا ليس إلا حيلة، لكي يدفع نفسه إلى مقعده المريح في حجرة المعيشة، وما إن يجلس على ذلك المقعد حتّى لا يعود إلى رواية سامنثا جيويت، والتي قرّر سَلَفاً أنه لن ينشرها.

Tele: @Arab_Books

الساعة السابعة والنصف مساء، وبعد أربع ساعات ونصف، يبدأ العام الجديد، الطقس المنهَك من مُحدثي الصخب والأعمال النارية، وضوضاء الأصوات الثملة التي تتردّد في الحيّ في منتصف الليل، دائماً الثوران نفسه في هذه الليلة بالذات، ولكنه الآن بعيد عن هذا، وحيداً مع كأس الويسكي وأفكاره، وإذا أمكنه التّوغّل عميقاً في هذه الأفكار، فلن يسمع حتّى تلك الأصوات وجَلَبَة منتصف الليل. قبل خمس سنوات في مايو الفائت، جاءه اتّصال من مدبّرة منزل والدته، وكانت دخلت الشّقّة بمفتاحها الإضافي. كان في المكتب، يتذكّر، صبيحة يوم ثلاثاء قبالة العاشرة صباحاً يتكلّم إلى جيل هرتزبيرغ عن آخر مخطوط لرينزو، وما إذا كان سيستعمل صورة على الغلاف أم يكتفي بالرسوم الغرافيكية. لماذا يتذكّر تفصيلاً كهذا؟ بلا سبب، لا سبب يخطر بباله، إلا أن المنطق والذاكرة دائماً على تضادّ، ثمّ كان في سيّارة أجرة متّجهاً أعلى برودواي إلى الشارع الثامن والأربعين غرباً، محاولاً أن يستوعب فكرة أن أمّه، التي كانت تمازحه عبر الهاتف يوم السبت، باتت الآن في عداد الموتى.

يتذكّر الآن الجسد. جثمان أمّه المسجى على السرير قبل خمس سنوات، والرعب الذي أحسّ به حين نظر إلى وجهها، الجلد الأزرق الرمادي، العينَيْن نصف المفتوحَتَيْن، الجمود المرعب في ما كان يوماً إنساناً حياً. كانت راقدة هناك منذ قرابة ثمانية وأربعين ساعة قبل أن تكتشفها مدبّرة المنزل. كانت ما تزال بمَنَامتها، تقرأ طبعة الأحد من نيويورك تايمز حين وافتها المنية – لا ريب من أنها كانت نوبة قلبية جائحة ومفاجئة. ساق عارية كانت تتدلّى من طرف السرير، وتساءل ما إذا كانت حاولت النهوض حين بدأت النوبة القلبية (بحثاً عن حبّة دواء؟ لتتّصل طَلَباً للمساعدة؟)، وإذا كان الأمر كذلك، أخذاً في الاعتبار أنها تحرّكت إنشات قليلة، تصدمه حقيقة أنها فارقت الحياة في غضون ثوان معدودات.

Tele: @Arab_Books

نظر إليها نظرة وجيزة، لبضع ثوان، ثمّ أشاح نظره، وذهب إلى حجرة المعيشة. كان ذلك يفوق احتماله؛ أن يراها في هذه الحالة من الانكشاف كان أكثر ممّا يحتمل. لا يستطيع أن يتذكّر ما إذا نظر إليها ثانية لدى وصول الشرطة، إذا كان ضرورياً له أن يتعرّف رسمياً على الجثّة أم لا، ولكنه واثق أنه حين وصل المُسعفون، لكي يحملوا الجثّة في كيس مطّاطي أسود، لم يستطع أن ينظر. بقي في حجرة المعيشة مُطرق الرأس نحو السجّادة، متأمّلاً الغيوم من النافذة، مصغياً إلى صوت تنفُّسه. كان الأمر ببساطة كثيراً عليه، ولم يستطع دفْع نفسه إلى النّظَر أكثر.

علانية ذلك الصباح، الحقيقة الحادّة المفروغ منها التي فهمها أخيراً حين كان المسعفون يحملونها إلى خارج الشّقّة، الفكرة التي ظلّت تطارده منذ ذلك الحين: لا يمكن أن يكون ثمّة ذكريات للرحم، لا له، ولا لأيّ شخص آخر، ولكنه يقبل ذلك كعقيدة إيمانية، أو يجبر نفسه على فَهْمها من خلال قفزة في المخيّلة، أن حياته كإنسان واع بدأت كجزء من الجسد الميّت الآن الذي يدفعونه عبر الباب المفتوح، أن حياته بدأت في داخلها. كانت طفلة حرب، مثل والدة رينزو تماماً، كما أهلهم جميعهم، سواء أقاتل أهلهم في الحرب أم لا، سواء أكنّ أمّهاتهنّ في الخامسة عشرة أو السابعة عشرة أو الثانية والعشرين حين بدأت الحرب. جيل متفائل بصورة غريبة، يفكّر الآن، قوي، جدير بالثقة، كادح، وربمّا أخرق بعض الشيء أيضاً، ولكنهم جميعاً اشتروا خرافة العَظَمَة الأمريكية، وعاشوا بشكوك أقلّ من أطفالهم، فتية وفتيات فييتنام، أطفال ما بعد الحرب الغاضبين الذين رأوا بلدهم يتحوّل إلى وحش مريض مُدمَّر. صنديدة. هذه الكلمة التي تخطر بباله كلّما فكّر بأمّه. صنديدة وصريحة، قوية الإرادة ومُحبّة، مستحيلة. تزوّجت مرَّتَين بعد موت والده في ١٩٨٧، وفَقَدَت الزوجَيْن، بسبب السرطان، أحدهما في ١٩٩٢، والثاني في ٢٠٠٣، وحتّى حينذاك، في العام الأخير

Tele: @Arab_Books

من حياتها، بعمر ٧٩ عاماً، كانت ما تزال تأمل بالتقاط رجل آخر. وُلدت متزوّجة، قالت له مرّة. تحوّلت إلى زوجة باث(*)، وبقدر ما كان ذلك الدور مناسباً لها، فلعب دور ابن زوجة باث، لم يكن بالأمر السارّ تماماً. شقيقاته شاركنه العبء، بالطبع، لكنّ كاثي تعيش في ملبورن، نيوجيرزي، وآن في سكارسدايل، لكنها لم تكن متوفّرة، ولأنه الأكبر سنّاً، ولأن أمّه كانت تثق بالرجال أكثر من ثقتها بالنساء، فقد كان ملاذها في أوقات متاعبها، والتي لم تصنّفها يوماً كمتاعب (كل الكلمات السلبية حُذفت من قاموسها)، ولكنها مسائل صغيرة، كما حين يقول شخص لشخص آخر ثمّة ما أرغب في مناقشته معكَ. العمى الإرادي، هذا ما سمّاه، مثابرة شرسة على البحث عن الجانب المشرق في الحياة، عن انتصارات معنوية، ذلك الموقف الإيجابي تجاه الحياة الذي يرى أن العتمة تكون على أشدّها قبيل بزوغ نور الفجر في وجه أشدّ الحقائق إيلاماً - دفن ثلاثة أزواج، اختفاء حفيدها، حادث موت بوبي - ولكن هذا العالم الذي جاءت منه، العالم الأخلاقي المتماسك من الأقوال المبتذلة في الأفلام الهوليوودية - كنْ جريئاً، مقداماً، ولا تقلْ أبداً موت. أمر مثير للإعجاب على طريقته، صحيح، ولكنه مثير للجنون أيضاً، ومع مضي السنوات فهم أن الكثير منه كان حيلة، أنه في داخل روحها المنيعة تلك كان ثمّة خوف وذعر وحزن ساحق. مَنْ يمكنه أن يلومها؟ وقد عاشت عبر العديد من أمراض أزواجها، كيف يمكنها ألا تتحوّل إلى مُوَسْوَسَة من أعلى طراز؟ إذا علّمتْكَ تجربتكَ أن كل الأجساد يجب وسوف تخون الشخص الذي تنتمي إليه، فكيف لا تفكّر أن ألماً بسيطاً في المعدة هو مقدّمة لسرطان المعدة، أن الصداع مؤشّر على ورم دماغي، أن نسيان كلمة أو اسم يُنبئ بالخرف؟ أمضت سنواتها الأخيرة تزور الأطبّاء،

*) إحدى قصص "حكايات كانتربوري" لجيوفري شوسر، تروي قصّة امرأة عجوز، تشترط على فارس شابّ الزواج منها، لكي تروي له السّرّ المشترك بين النساء كافّة، وهو السيطرة على أزواجهنّ، وهو السّرّ الذي يُفترَض أن يُنجيه من الإعدام، بسبب جريمة، ارتكبها.

Tele: @Arab_Books

عشرات المختصّين الذين تقابلهم بسبب هذا العارض الصّحّيّ أو ذاك، وصحيح أنها كانت تعاني من مشكلات في القلب (عمليّتا رأب الوعاء)، ولكنْ، لم يظنّ أحد أنها في خطر مُحدق حقّاً. تصوّر أنها ستواصل الشكوى حول أمراضها المتخيّلة حتّى تبلغ التسعين من عمرها، أنها ستعيش أكثر منه، أكثر منهم جميعاً، ثمّ، دونما سابق إنذار، بعد أقلّ من أربعة وعشرين ساعة من المزاح معه على الهاتف، ها هي متوفّاة. وما إن تصالح مع الأمر، الأمر المريع حيال موتها كان أنه أحسّ بالراحة، أو على الأقلّ جزء ما منه أحسّ بذلك، وكره نفسه كونه قاسي القلب هكذا ليعترف بذلك، ولكنه يعرف أنه كان محظوظاً بتجنّب قسوة أن يراها في سنّ شيخوخة متطاول. تركت العالم في الوقت المناسب، دون آلام مُمتدّة، أو انحدار إلى الخرف أو الشيخوخة، لا أوراك مكسورة أو حفّاضات للبالغين، لا حملقة فارغة في الهواء. ضوء يُنار. ضوء ينطفئ. يشتاق إليها، ولكنه يستطيع العيش مع حقيقة أنها رحلت.

يشتاق أكثر إلى والده. وقسوته تمنعه من الاعتراف بذلك أيضاً، لكنّ والده متوفّ منذ أكثر من ثلاثين سنة الآن، وقد أمضى معظم حياته ماشياً بمحاذاة شبحه. في الثالثة والسّتّين، أكبر بعام واحد ممّا هو الآن، في وضع جيّد، ما يزال يلعب كرة المضرب أربع مرّات في الأسبوع، ما يزال قوياً كفاية، لكي يهزم ابنه البالغ اثنَيْن وثلاثين عاماً في ثلاث مباريات، وما يزال على الأرجح قوياً كفاية في كباش الأذرع، صارم في عدم التدخين، استهلاكه الكحول يقرب من الصفر، لم يُصَب بأيّ مرض، ولا حتّى نزلات البرد أو الإنفلونزا، ممشوق القامة عريض الكتفَيْن، دون شحم أو بطن أو انحناء، رجل بدا أصغر بعشر سنوات من عمره، ثمّ واجهته مشكلة صغيرة، التهاب التجويف الكيسي في ذراعه الأيسر، الذراع الذي يلعب به كرة المضرب، مؤلم للغاية، صحيح، ولكنه بالكاد يهدّد الحياة، وهكذا قصد الطبيب

Tele: @Arab_Books

للمرّة الأولى منذ سنوات طويلة، مشعوذ وصف له حبوب الكورتيزون بدلاً من مسكّن معتدل، ووالده غير المعتاد على المسكّنات حمل الكورتيزون في جيبه، وكأنها قنّينة أسبرين، متجرّعاً حبّة كلّما آلمه كوعه، وبالتالي عابثاً بعمل قلبه، واضعاً جهداً مفرطاً على جهاز الدوران لديه من دون أن يعلم ذلك، وذات ليلة، كان يمارس الحبّ مع زوجته (فكرة تبعث على الارتياح: أن يعرف أن والدَيْه كانا ما يزالان نشطَيْن جنسياً في تلك المرحلة من زواجهما)، ليلة ٢٦ نوفمبر ١٩٧٨، بينما كان ألفن هيلر يقترب من بلوغ النشوة بين ذراعَي زوجته، كونستانس، المعروفة أكثر باسم كوني، خذله قلبه، منفجراً ومتمزّقاً داخل صدره، وكانت تلك النهاية.

لم تشهد علاقتهما أيّاً من النزاعات التي شهدها غالباً مع أصدقائه وآبائهم؛ أولئك الآباء العدوانيون المعتادون على الصراخ والصفع، الذين يدفعون أطفالهم البالغة أعمارهم ستّ سنوات إلى بركة السباحة؛ الآباء المزدرون الذين يستهزئون بأولادهم المراهقين، لأنهم يحبّون الموسيقى الخطأ، ويرتدون الملابس الخطأ، وينظرون إليهم بطريقة خطأ، الآباء العائدون من الحروب الذين يضربون أولادهم البالغين من العمر عشرين عاماً لمقاومتهم التجنيد العسكري، الآباء الضعفاء الذين يخشون أولادهم البالغين، الآباء الصامتون الذين لا يتذكّرون أسماء أحفادهم. من البداية حتّى النهاية، لم يكن بينهما أيّ من هذه المعاناة أو الدراما، ولم يتجاوز الأمر بعض الاختلاف الحادّ في الرأي، والعقوبات الصغيرة الآلية بسبب انتهاكات صغيرة للقواعد، وتوجيه كلمة قاسية أو اثنتَيْن حين كان غير لطيف مع شقيقَتَيْه أو نسي عيد ميلاد أمّه، ولكنْ، لا شيء مهماً، لا صفعات أو صراخ أو إهانات غاضبة، وعلى العكس من معظم أصدقائه، لم يخجل يوماً بوالده، أو ينقلب ضدّه. وفي الوقت نفسه، من الخطأ الافتراض أنهما كانا مقرَّبَيْن بصورة خاصّة. لم يكن والده واحداً من الآباء الدافئين الذين

Tele: @Arab_Books

يرون أنه يجب أن يكون أولادهم أصدقاءهم المفضَّلين، كان ببساطة رجلاً يشعر بالمسؤولية تجاه زوجته وأولاده؛ رجل هادئ، بل حتّى مزاجيّ، وبارع في جَني المال، وهي موهبة لم يوفّها ابنه حقّها من التقدير حتّى آخر يوم في حياة والده حين أصبح الداعم الأساسي والشريك المؤسّس في هيلر للنشر، ولكنْ، حتّى لو لم يكونا مقرَّبَيْن على نحو ما هم الآباء والأبناء، وحتّى لو كان الشيء الوحيد الذي كانا يتكلّمان حوله بأيّ قدر من الشغف هو الرياضة، فكان يعرف أن والده يحترمه، وأن يحظى بهذا الاحترام الذي لا يتزعزع منذ البداية وحتّى النهاية كان أهمّ من أيّ بوح بالحبّ.

في حداثة سنّه، حين كان في الخامسة أو السادسة، أحسّ بخيبة أمل، لأن والده لم يقاتل في الحرب، على عكس آباء معظم أترابه، وأنهم في حين كانوا في مكان بعيد من العالم يَقتلون اليابانيّين والنازيّين، ويُحوّلون أنفسهم إلى أبطال، كان والده في نيويورك، غارقاً في التفاصيل التافهة لعمله في العقارات، مشترياً الأبنية، ومديراً إيّاها، ومصلحاً إيّاها بلا نهاية، وحيّره أن والده الذي بدا قوياً ولائقاً صحّيّاً، قد رُفض من قِبَل الجيش حين حاول الانضمام إليه. ولكنه كان ما يزال يافعاً جدّاً في تلك المرحلة، فلم يفهم مدى سوء الإصابة في عينَي والده؛ أن الأخير يُعدّ من الناحية القانونية ضريراً بعينه اليسرى منذ عمر السابعة عشرة، ولأن والده أجاد إلى هذا الحدّ فنّ العيش والتعويض عن إعاقته، فقد عجز عن استيعاب إصابة هذا الأب القوي بهذه الإعاقة. لاحقاً، حين كان في الثامنة أو التاسعة، وأخبرته أمّه أخيراً قصّة الإصابة (لم يتكلّم والده عليها قطّ)، أدرك أن إصابة والده لا تختلف عن إصابات الحرب، أن جزءاً من حياته أُصيب في ملعب البرونكس في ١٩٣٢ على نحو ما يفقد جندي ذراعه في ساحة الوغى في أوروبا. كان الرامي الأوّل لفريق البايسبول في الثانوية؛ رام قوي باليد اليسرى، وكان قد بدأ يلفت إليه أنظار كشّافي الفِرَق الكبرى، وحين احتلّ

Tele: @Arab_Books

موضعه في رقعة الرمي مع فريق مونرو في ذلك اليوم في مطلع يونيو، كان لديه سجلّ لا يُبارى، وما بدا أنها ذراع لا تُهزَم. في الرمية الأولى في المباراة قبل أن يتّخذ لاعبو الميدان أماكنهم خلفه، رمى كرة سريعة منخفضة إلى لاعب كلينتون تومي دي لوكا، وارتدت الكرة نحوه بقوّة هائلة، بحيث لم يتسنّ له الوقت لرَفْع قفّازه وحماية وجهه. كانت الإصابة نفسها التي دمَّرت مستقبل هيرب سكور في ١٩٥٧، الضربة القاضية نفسها التي تُغيّر مسار حياة. ولو لم تُصب تلك الكرة عين والده، مَنْ كان ليقول إنه لم يكن ليُقتَل في الحرب، قبل زواجه، قبل ولادة أطفاله؟ الآن هيرب سكور مات هو الآخر، يفكّر موريس، مات منذ ستّة أو سبعة أسابيع، هيرب سكور، مع اسمه الأوسط النبويّ يهوذا، ويتذكر كم تأثّر والده حين قرأ عن إصابة سكور في صحيفة الصباح، وكيف، لسنوات بعد ذلك، حتّى نهاية حياته، كان يشير من وقت لآخر لسكور، قائلاً إن تلك الإصابة كانت من أكثر الأشياء حزناً التي حصلت في تاريخ اللعبة. لم يقل كلمة يوماً عن نفسه، ولا حتّى إشارة إلى الصلة الشخصية. فقط سكور، المسكين هيرب سكور.

من دون مساعدة والده، فإن دار النشر ما كانت لتُولَد. كان قد أدرك أنه لا يتمتّع بالموهبة الكافية ليُصبح كاتباً، ليس وأمامه مثال رينزو الشّابّ، ليقارن نفسه به، زميله في السَّكَن الجامعي لأربع سنوات في آمهيرست، وكم عانى من مشقّة الأمر، ساعات العزلة الطويلة، الشّكّ الدائم والتوق القاهر، وبالتالي فقد آثر الشيء الثاني الأفضل، تعليم الأدب بدلاً من إنتاجه، ولكنْ، بعد عام واحد من التّخرّج في كولومبيا، انسحب من برنامج الدكتوراه، مُدركاً أنه لم يُخلَق للحياة الأكاديمية أيضاً. تحوَّل إلى النشر بدلاً من ذلك، وأمضى أربع سنوات متدرّجاً في صفوف شركَتَيْن مختلفَتَيْن، وفي النهاية، وجد مكاناً لنفسه، رسالة، نداء، أيّاً كان ما ينطبق على حسّه بالالتزام والهدف، ولكنْ، كان ثمّة الكثير من الإحباطات والتسويات في

المستويات العليا من النشر التجاري، وحين، في غضون شهرَيْن قصيرَيْن، سَحَقَ كبير المحرِّرين توصياته بنَشْر رواية رينزو الأولى (تلك التي تلت المسودة التي أضرم النيران بها)، وأيضاً رُفض اقتراح رواية مارتي الأولى. ذهب إلى والده، وقال له إنه يريد الاستقالة من الشركة المهيبة التي يعمل فيها، ويبدأ بدار نشر خاصّة به. لم يكن والده يعرف شيئاً عن الكُتُب أو النشر، ولكنْ، لابدّ من أن شيئاً ما في عينَي ابنه أقنعه بأن يضحّي بقدر صغير من ماله في مغامرة لا توحي إلا بأنها قابلة للخسارة. أو ربّما أحسّ بأن هذا الفشل المحتوم سيعلّم الفتى درساً، يساعده على إخراج هذه الجرثومة من جسمه، وقبل مضي وقت طويل سيعود إلى أمان الوظيفة الطبيعية. ولكنهما لم يُخفقا، أو على الأقلّ، لم تكن الخسائر ضخمة، إلى درجة أن تجعلهما يرغبان في التّوقّف، وبعد لائحة أوّلية من أربعة كُتُب فقط، فتح والده جيوبه ثانية، مراهناً باستثمار جديد، يساوي عشرة أضعاف المبلغ الذي وضعه في البداية، وفجأة كانت هيلر للنشر فوق الأرض، مؤسّسة صغيرة، إنما مربحة، دار نشر حقيقية، لها مكتب في لور وست برودواي (الإيجار الصغير وقتذاك في تريبيكا التي لم تكن تريبيكا بعد)، فريق عمل من أربعة أشخاص، موزّع، وكتيّبات حسنة التصميم، ومجموعة متنامية من المؤلّفين. لم يتدخّل والده يوماً. سمّى نفسه الشريك الصامت، وطوال السنوات الأربع الأخيرة من حياته، استعمل هذه الكلمات، ليُعلن عن نفسه كلّما تكلّما عبر الهاتف. لم يعد هناك، هذا والدك، أو هذا العجوز يتكلّم، ولكنْ، كل مرّة مرحباً، موريس، هذا شريكك الصامت. كيف لا يشتاق إلى هذا؟ كيف لا يحسّ بأن كل كتاب نشره طوال الخمسة والثلاثين عاماً هي نتاج يد والده غير المَرئية؟

إنها التاسعة والنصف. كان يريد الاتّصال بويلا، لكي يقول لها كل عام وأنت بخير، ولكنها الثانية والنصف في إنجلترا الآن، ولا ريب في أنها نائمة

Tele: @Arab_Books

منذ ساعات. يعود إلى المطبخ لكي يسكب لنفسه كأساً أخرى، هي الثالثة منذ عودته إلى الشّقّة، والآن فقط، للمرّة الأولى طوال الأمسيّة، يتذكّر أن يُلقي نظرة على المجيب الآلي، مُتنبّهاً فجأة بأن ويلا ربمّا تكون اتّصلت به، بينما كان في شقّة مارتي ونينا، أو ربمّا في طريقه إلى البيت من الجانب الغربي الشمالي من مانهاتن. يجد اثنَتَي عشرة رسالة. يصغي إليها جميعاً، ولكنْ، لا شيء من ويلا.

إنها تُعاقبه. لذلك قبلت العمل في إكستر لهذا العام، ولهذا السبب لا تتّصل به، لأنها تُعاقبه على الرعونة العديمة المعنى التي ارتكبها قبل عام ونصف العام، عمل أحمق من الضعف الجنسي ندم عليه منذ كان يزحف إلى السرير مع شريكته في الجريمة. في الأوضاع الطبيعية (ولكنْ، متى يكون أيّ شيء طبيعياً؟)، ويلا ما كانت لتكتشف ذلك، ولكنْ، ليس قبل مضي وقت طويل من فعْل ما فعله، ذهبت إلى طبيبها للفَحْص الشامل نصف السنوي، وقيل لها إنها مصابة بشيء، يُدعى المتدثّرة، وهي حال بسيطة، إنما غير سارّة، يمكن الإصابة بها عبر ممارسة الجنس. سألها الطبيب إذا كانت قد مارست الجنس مع أحد سوى زوجها مؤخّراً، ولأن الجواب كان بالنفي، فإن الإثم لا يكون إلا أن يكون من فعْل الزوج، وحين واجهتْه ويلا بهذا الخبر ذلك المساء، لم يكن أمامه من خيار سوى الاعتراف. لم يقدّم لها الاسم أو التفاصيل، ولكنه اعترف أنه حين كان في شيكاغو يقدّم محاضرة عن جورج إليوت، مارس الجنس مع إحداهنّ. لا، لا يقيم علاقة، لقد حصل الأمر مرّة في ذلك الحين، ولا نيّة له بتكرار ذلك. قال لها إنه آسف، بعُمق وصِدْق، كان قد أكثر من الشرب، وكانت غلطة رهيبة، ولكنْ، حتّى مع أنها صدّقتْه، فكيف يسعه لومها على شعورها بالغضب، لا لأنه خانها للمرّة الأولى في زواجهما فحسب، لا، فهذا سيّئ بما فيه الكفاية، ولكنْ، لأنه نقل لها العدوى أيضاً. مرض تناسلي، صرخت

Tele: @Arab_Books

به. هذا مقرف. تذهب وتضع عضوكَ في رحم امرأة أخرى، وينتهي الأمر بأن تعدني! ألا تخجل من نفسكَ، موريس؟ أجل، قال، إنه يشعر بخجل رهيب من نفسه، أكثر خجلاً ممّا كان طوال حياته. تُعذّبه ذكرى تلك الأمسيّة الآن، حماقة الأمر، العلاقة المسعورة الصغيرة التي أدّت إلى هذه الفوضى الدائمة. دعوة عشاء من نانسي غرينوولد، وكيلة أدبية في بداية أربعينيّاتها، شخص كان يعمل معه منذ ستّ أو سبع سنوات، مُطلّقة، لا تفتقر إلى الجاذبية، ولكنْ، حتّى تلك الليلة لم يكن قد فكّر فيها كثيراً. عشاء لستّة في شقّة نانسي في شلسيا، والسبب الوحيد لقبوله هو أن ويلا خارج المدينة، عشاء مملّ إلى حدّ ما كما اتّضح، وحين بدأ الضيوف الآخرون بجَمْع أشيائهم والمغادرة، وافق على البقاء لشرب كأس أخيرة قبل أن يمشي إلى البيت في الفيلاج. وحينئذ حصل الأمر، بعد زهاء عشرين دقيقة من اختفاء بقية الضيوف، مضاجعة سريعة مجنونة، لا تساوي شيئاً لأيّ كان. بعد إعلان ويلا عن المرض، تساءل كم عضواً آخر وجد الراحة في رحم نانسي؟ مع أن الحقيقة هي أنه لم يشعر هو نفسه بكثير من الراحة، وحتّى وهما يخوضان الأمر، أحسّ بحال يُرثى لها لخيانته ويلا، بحيث لم يستسلم لمتعة اللحظة.

بعد هذا الاعتراف، بعد دورة المضادّات الحيوية التي أخرجت الجراثيم التناسلية من جسد يولا، فكّر أن هذه ستكون نهاية الأمر. كان يعرف أنها صدّقتْه حين قال لها إن الأمر حصل مرّة واحدة، ولكن هذه الهفوة الصغيرة، هذا الخرق للتضامن بينهما بعد ما يقارب أربعة وعشرين عاماً من الزواج، قدّ هزّ ثقة ويلا به. لم تعد تثق به. تظنّ أنه يتصيّد بحثاً عن نسوة أصغر وأجمل، وحتّى لو لم يكن يفعل شيئاً في الوقت الراهن، فقد أقنعت نفسها أن هذا سيتكرّر آجلاً أم عاجلاً. فعل كل ما بوسعه لكي يُطمئنها، ولكنّ جدالاتهما تبدو بلا فائدة. إنه مُسنّ جدّاً على المغامرات، يقول، ويريد

Tele: @Arab_Books

أن يعيش بقية حياته معها، ويموت بين ذراعَيْها. وتقول رجل في الثانية والسّتّين ما يزال شابّاً، المرأة في السّتّين عجوز. يقول: في نهاية المطاف لقد كانا معاً في كل شيء، كل الكوابيس والآلام، كل المشكلات التي تحملاها، كل المآسي التي صمدا خلالها، كيف يمكن لأمر صغير كهذا أن يُحدث فَرْقاً؟ وتجيب: ربّما كان هذا كثيراً عليكَ، موريس، ربّما تريد بداية جديدة مع شخص آخر. الرحلة إلى إنكلترا لم تساعد. كانا بعيدَيْن منذ ثلاثة أشهر ونصف الشهر حين ذهب أخيراً إلى هناك في إجازة الميلاد، وفهم أنها تستعمل هذا الانفصال المفروض كاختبار، لترى إذا كانت ستتمكّن من العيش من دونه عبر المسافات البعيدة. حتّى الآن يبدو أن الاختبار يمضي على نحو جيّد. وقد تبدّل غضبها منه إلى نوع من الانفصال الإرادي، لا مبالاة جعلتْه يشعر بالغرابة وهو بجوارها خلال معظم الزيارة، غير واثق البتّة ممّ عليه قولُه أو فعْلُه. في الليلة الأولى، كانت متردّدة في ممارسة الحبّ معه، ولكنْ، وفي اللحظة التي بدأ يبتعد، تواصلت معه في السرير، وبدأت تُقبِّله بألفة، مستسلمة للحميميات القديمة، وكأنه ليس من مشكلة بينهما. وهذا ما حيّره للغاية – رفقتهما الصامتة في السرير ليلاً تبعتْها أيّام مزاجية مُفكَّكة، الرقّة والانزعاج يحلّ أحدهما محلّ الآخر بصور غير متوقّعة البتّة، شعور بأنه تُبعده عنها، وتحاول التّشبّث به، في آن معاً. كان ثمّة انفجار واحد شديد، شجار غاضب واحد. حصل في اليوم الثالث أو الرابع، حين كانا ما يزالان في شقّتها في إكستر، يُخرجان الحقائب تمهيداً للرحلة إلى لندن، وبدأ الشجار كما بدأت شجارات أخرى خلال السنوات القليلة الماضية، حيث هاجمته ويلا لعدم رغبته في أطفال لهما، لأنه كان راضياً بابنه وابنها، بوصفهما عائلتهما الوحيدة، ولكنْ، لا عائلة تخصّهما، فقط هما الاثنان وطفلهما أو طفلتهما، دون وهم كارل أو ماري لي في الخلفية، والآن بما أن بوبي ميّت ومايلز بات مفقوداً، انظرْ إلينا فحسب، قالت،

Tele: @Arab_Books

لسنا شيئاً، ليس لدينا شيء، والذنب ذنبه، لأنه أقنعها بعدم إنجاب طفل آخر قبل سنوات طويلة، وكانت حمقاء لعينة، لأنها أصغت إليه. من حيث المبدأ لم يكن يُعارضها، ولم يُعارضها يوماً، ولكنْ، أنى لهما أن يعرفا ما الذي سيحدث، وفي الوقت الذي رحل فيه مايلز كانا قد أصبحا أكبر من أن يفكّر بالإنجاب. لم يغضب منها لفَتْحها الموضوع ثانية، كان من الطبيعي بالنسبة إليها أن تحسّ بهذا الأسى، هذه الخسارة، فتاريخ الاثنَي عشر عاماً الماضية ما كان ليأتي بنتيجة أخرى، ولكنها حينئذ قالت شيئاً صدمه، جرحه بشدّة، إلى درجة أنه لم يتعافَ منه بعد. ولكن مايلز عاد إلى نيويورك، قال، وسوف يتّصل به في أيّ يوم، أو أيّ أسبوع الآن، وقبل أن يمضي وقت طويل، فإن هذا الفصل البائس برمّته سيُطوى. بدلاً من أن تُجيبه حملت ويلا الحقيبة، ورمتها أرضاً بغضب - حركة شرسة، أكثر عنفاً من أيّ ردّ رآه منها. فات الأوان، صرخت. مايلز مريض. مايلز لا ينفع. مايلز دمّرهما، ومن هذا اليوم فصاعداً لقد أخرجتْه من قلبها. لا تريد أن تراه. حتّى لو اتّصل، لا تريد أن تراه. ليس ثانية. انتهى الأمر، قالت، انتهى الأمر، وكل ليلة ستركع وتصلّي لئلا يتّصل.

كان الأمر أفضل نوعاً ما في لندن. فالفندق شكّل أرضاً محايدة، لا صلة لها بالماضي على الإطلاق، وعاشا أيّاماً طيّبة من زيارة المتاحف والجلوس في الحانات ومقابلة الأصدقاء القدامى على العشاء، وتصفّح الكُتُب في المكتبات العامّة، ناهيك عن الدلال الخفي في عدم فعْل شيء، وهو ما كان له تأثير منعش على ويلا. وفي عصر أحد الأيّام، قرأت له بصوت عالٍ من الفصل الأخير الذي تؤلّفه عن آخر روايات ديكنز. في صباح اليوم التالي، خلال الإفطار، سألتْه عن بحثه عن مستثمر جديد، وقال لها إنه سيلتقي الألمان في معرض فرانكفورت للكتاب في أكتوبر، وعن محادثته مع رجل أعمال إسرائيلي في نيويورك الشهر الماضي، والخطوات التي

Tele: @Arab_Books

اتّخذها للعثور على التمويل الذي يحتاج إليه. العديد من الأيّام الطّيّبة، أو على الأقلّ الأيّام غير السّيّئة، ثمّ وصل البريد الإلكتروني من مارتي وخبر موت سوكي. ويلا لم ترده أن يعود إلى نيويورك، وجادلت بشراسة محاولة إقناعه بأن الجنازة تفوق احتماله، ولكنْ، حين طلب منها مرافقته في الرحلة، لاح التّوتّر على وجهها، وبدا أنها بوغتت بالاقتراح، الذي يمكن أن يكون اقتراحاً منطقياً تماماً، بالنسبة إليه، ثمّ قالت لا، إنها لا تستطيع ذلك. سألها عن السبب. لأنها لا تستطيع، أجابت، مُكرِّرة جوابها، بينما تبحث عن الكلمات المناسبة، في صراع جليّ مع نفسها، غير مُستعدّة لاتّخاذ أيّ قرارات حاسمة في تلك اللحظة، لأنها لم تكن مستعدّة للعودة، قالت، لأنها تحتاج إلى المزيد من الوقت. ثانية، طلبت منه البقاء في لندن حتّى ٣ يناير كما خطّطا في الأصل، وفهم أنها تختبره، تُجبره على اتّخاذ خيار بينها وبين أصدقائه، وإن لم يخترها، فستشعر بالخيانة. ولكنْ، عليه العودة، قال، من غير الوارد ألا يعود.

بعد أسبوع، بينما يجلس في شقّته في نيويورك في ليلة رأس السنة، متجرّعاً الويسكي في حجرة المعيشة المعتمة، ومفكّراً بزوجته، يقول لنفسه إن الزواج لا يمكنه أن يصمد أو ينهار لمجرّد مسألة مغادرة لندن لبضعة أيّام لحضور جنازة. وإذا كان سيصمد أو ينهار لهذا السبب، ربمّا كان مُقدَّراً له أن ينهار في المقام الأوّل. إنه في خطر خسارة زوجته. في خطر خسارة عمله. ما دام ثمّة نَفَس فيه، يقول لنفسه، متذكّراً تلك العبارة المستهلكة الأليفة، التي لطالما كان معجباً بها، ما دام ثمّة نَفَس فيه، فسوف لن يسمح لأيّ من الأمرَيْن بالحدوث.

أين هو الآن؟ يراوح مكانه على الحدود بين الفناء المحتوم واحتمال الحياة المستمرّة. بالإجمال، الوضع كئيب، ولكنْ، ثمّة بعض الإشارات

Tele: @Arab_Books

المشجّعة التي كانت تمنحه سبباً للأمل، أو إن لم يكن الأمل تماماً، يذكّر نفسه بأمّه، كلّما بدأ يفكّر على هذا النحو، بأيّ عناد تواصل العيش في داخله. فلينهر البيت من حوله، فلتشتعل النيران بزواجه، وسيجد ابن كوني هيلر طريقة لإعادة بناء البيت، وإخماد النيران. لاكي لوهركي ماشياً برباطة جأش عبر وابل من الرصاص. أو رقصة الشبح في أوغالا سيوكس، والاقتناع بأن رصاصات الرجل الأبيض ستتبخّر في الهواء قبل أن تلمسهم.

يحتسي كأساً آخر، ثمّ يمضي مترنّحاً إلى السرير. مرهق، بالغ الإرهاق، بحيث إنه يغفو قبل بدء الصراخ والمفرقعات النارية.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الثالث

يعرف سبب رحيل مايلز. حتّى قبل وصول الرسالة، كان متيقّناً تماماً من أن الولد أمضى الليلة في الشّقّة، في الليلة التي سبقت الصبيحة التي تكلّم وويلا بفظاظة بالغة عنه في المطبخ. بعد الإفطار، فتح باب غرفة مايلز، ليجد أنه قد جاء لتمضية عطلة نهاية الأسبوع، وحين رأى السرير فارغاً، مضى ليكتشف المنفضة مليئة بأعقاب السجائر، وأنطولوجيا ورقية مَنسية عن الدراما في العصر اليعقوبي(*)، على الأرض، ووسادة مُسطّحة على السرير المرتّب على عجالة – إشارات أكيدة على أن الصبي أمضى ليلته في الغرفة، ولو أنه تسلّل مبكراً صباحاً دون أن يتجشّم عناء تحيّتهما، دون سلام أو وداع، فإن هذا لا يعني سوى أنه اختلس السمع إلى الأشياء القاسية التي قيلت عنه، وكان بالغ الاستياء لمواجهة والدَيْه. لم يذكر موريس هذا الاكتشاف لويلا، ولكنْ، في تلك المرحلة، لم يجد سبباً يدعوه للشّكّ بأن المحادثة سوف تؤدّي إلى ردّ جذري كهذا من قِبَل مايلز. انتابه شعور رهيب لتلفُّظه بتلك الأشياء، وشعر بالغضب من نفسه، لأنه لم يدافع عن الصبي بقوّة أكبر ضدّ هجمات ويلا القاسية، ولكنه تصوّر أنه سيجد فرصة للاعتذار منه في المرّة التالية التي يراه فيها، أن يصفّي الأجواء نوعاً ما، ويضع الموضوع خلفهما. ثمّ وصلت الرسالة، الرسالة الغاضبة التي تدّعي البهجة التي تتضمّن الأخبار بأن مايلز ترك الجامعة. مُنهَك من الدراسة.

(*) Jacobeean Drama: هي الحقبة الوسيطة بين الإليزابيثية والكارولينية، وقد بدأت بوصول جايمس السادس إلى العرش، وتميّزت بفنونها وآدابها الخاصّة، ومن أشهر كتّابها المسرحيين بن جونسون.

Tele: @Arab_Books

الفتى لم يكن مُنهكَاً. كان يحبّ الدراسة، كان يحصّل أعلى الدرجات، وقبل أسبوعَيْن فحسب، حين التقيا على فطور الأحد في شقّة جو جونيور، كان مايلز يتكلّم على الفصول الدراسية التي ينوي تحصيلها في عامه الأخير. لا، كان ترك الدراسة فعلاً عدوانياً للانتقام وتدمير الذات، انتحار رمزي، ولم يكن من ريب في عقل موريس أنه جاء نتيجة مباشرة للمحادثة التي اختلس مايلز سماعها في الشّقّة قبل أيّام قليلة.

ومع ذلك، لم يكن من سبب للذعر. مايلز سيذهب إلى لوس أنجليس، لكي يمضي أسبوعَيْن مع أمّه، وكل ما على موريس فعْله هو رَفْع سمّاعة الهاتف والاتّصال به، وسيفعل ما بوسعه، لكي يعيد بعض المنطق إليه، وإن لم يُفلح في ذلك، فسيسافر إلى كاليفورنيا، ويحلّ الموضوع معه وجهاً لوجه. ولكنْ، ليس أن مايلز لم يكن في شقّة ماري لي فحسب، بل إن ماري لي هي الأخرى لم تكن في البيت. كانت في سان فرانسيسكو تُصوِّر حلقة أوّلية لسلسة تلفزيونية جديدة، والشخص الذي ردّ عليه كان كورنغولد، الذي قال له إنهما لم يسمعا شيئاً من مايلز منذ أكثر من شهر، وإنه على حدّ علمه ليس مَنْ خطّط لأن يزور كاليفورنيا ذلك الصيف.

منذ تلك اللحظة وصاعداً، كانا في الأمر معاً، أربعتُهم، الوالدان وزوجا الوالدَيْن، وحين وظّفا تحرّ خاصّاً للبحث عن الصبي المفقود، كلٌّ من الزوجَيْن تحمّل نصف الكلفة، ومرّوا معاً بثمانية شهور بائسة من التقارير حول سَيْر البحث التي أشارت إلى عدم حدوث أيّ تقدّم، لا أدلّة، ولا إشارات أمل، ولا نصف معلومة. موريس تشبّث سريعاً بنظرية أن مايلز اختفى متعمّداً، ولكنْ، بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، بدأت ويلا وكورنغولد بالتذبذب، متوصّلين إلى الاستنتاج بأن مايلز قد توفّي. حادثة ما، فكّرا، ربمّا جريمة قَتْل، ربمّا انتحار، كان يستحيل القول. ماري لو اتّخذت موقفاً لا أدرياً من الموضوع، إنها ببساطة لا تعرف. أجل يمكن أن يكون ميّتاً، ولكنْ،

Tele: @Arab_Books

في المقابل، فإن الصبي لديه مشكلاته، وما حصل مع بوبي كان مُدمِّراً تماماً، وقد انطوى مايلز على نفسه منذ ذلك الحين، وكان جلياً أن لديه الكثير ليعمل على حلّه. الفرار كان عملاً غبياً، بالطبع، ولكنْ، ربّما سيُثمر شيئاً جيّداً في النهاية، ربّما كونه وحده لبعض الوقت سيمنحه الفرصة، ليعاود لملمة نفسه.

لم يعارض موريس هذا التحليل. في حقيقة الأمر، وجد موقف ماري لي مثيراً للإعجاب - هادئ، متعاطف وعميق، لا يحكم على مايلز بقدر ما يحاول فَهْمه - والآن بما أنهم معاً في هذه الأزمة، لاحظ أن الأمّ اللامبالية واللامسؤولة، كانت مرتبطة بابنها أكثر بكثير ممّا تصوّر. إذا كان ثمّة شيء إيجابي قد نتج عن اختفاء مايلز، فهو هذا التحوّل في نظرته لماري لي. لم يعودا عدوَّيْن. باتا حليفَيْن، وحتّى ربّما صديقَيْن.

ثمّ اتّصل بينغ ناثان، وكل شيء انقلب رأساً على عقب ثانية. مايلز يعمل طبّاخاً جزئياً في شيكاغو، وأوّل رغبة لدى موريس هي أن يذهب إليه، ويتكلّم معه، لا ليُطالبه بشيء، بل ليعرف ما الذي يجري، ولكن ويلا عارضت الموضوع، وبعد أن اتّصلا بكاليفورنيا لمشاطرة ماري لي وكورنغولد بالأخبار الطّيّبة، انحازا إلى جانب ويلا. كانت حجّتهما هذه: الصبي في الحادية والعشرين الآن، وقادر على اتّخاذ قراراته بنفسه؛ ما دام بصحّة جيّدة، ما دام لم يقع في متاعب قانونية، ما دام ليس في مصحّ عقلي، ما دام لا يطلب منهم المال، فلا حقّ لهم بأن يُجبروه على فعل شيء ضدّ إرادته - ولا حتّى أن يتكلّم إليهم، وهو من الواضح ما لا رغبة لديه في فعْله. امنحْه وقتاً، قالوا له، وسوف يحلّ الموضوع بنفسه.

لكنّ موريس لم يلق بالاً بكلامهم. ركب طائرة إلى شيكاغو في صبيحة اليوم التالي، وعند الساعة الثالثة، ركن سيّارته المستأجرة قبالة مطعم

Tele: @Arab_Books

ديوك، وهو مطعم متهلهل، يكثر روّاده في حيّ قاس في الجانب الجنوبي. بعد ساعتَيْن، خرج مايلز من المطعم مرتدياً سترته الجلدية (تلك التي اشتراها له موريس في عيد ميلاده التاسع عشر)، وبدا بصحّة جيّدة، بل جيّدة جدّاً في حقيقة الأمر، أطول قليلاً وأكثر امتلاء ممّا كان في فطور يوم الأحد ذاك قبل ثمانية شهر ونصف الشهر، وبجانبه امرأة سوداء طويلة جذّابة، تبدو في منتصف العشرينيات، ولحظة خرج الاثنان من الباب، أحاطها مايلز بذراعه، وجذبها إليها، وطبع قُبلة على فمها. كانت قُبلة مرحة، على نحو ما، قُبلة رجل أنهى للتّوّ نوبة عمل من ثماني ساعات، وعاد للتّوّ إلى المرأة التي يحبّها، والمرأة ضحكت لهذه العاطفة المفاجئة، وأحاطتْه بذراعَيْها، وقبّلتْه بدورها على فمه. بعد لحظة، كانا يسيران في الشارع معاً، ممسكين يدَي بعضهما، ومتكلّمين بطريقة انفعالية حميمة، تلك الطريقة التي لا تكون إلا بين أقرب الأصدقاء والعشّاق، وجلس موريس هناك، متجمّداً في مقعد سيّارته المستأجرة، غير متجرّئ على إنزال زجاج النافذة ومناداة مايلز، غير متجرّئ على القفز منها، والجري نحوه، وبعد عشر ثوان، انعطف مايلز والمرأة يساراً عند أوّل منعطف، وتواريا عن أنظاره.

فعل ذلك ثلاث مرّات منذ ذلك الحين، مرّة في أريزونا، ومرّة في نيوهامشر، ومرّة في فلوريدا، دائماً يراقبه من مكان، لا يمكن له رؤيته منه، مرأب المستودع، حيث كان مايلز يحمل الأقفاص في شاحنة، ردهة الفندق، حيث مرّ به الفتى مسرعاً ببزّة خادم الفندق، الحديقة الصغيرة التي جلس فيها الفتى يقرأ غاتسبي العظيم، ثمّ تكلّم إلى طالبة ثانوية ظريفة، حدث أنها تُطالع الكتاب نفسه، شاعراً دوماً بالغواية، لكي يتقدّم منه، ويقول شيئاً، أن يتعارك معه، أن يلكمه، أن يأخذه بالأحضان، أن يأخذ الصبي بالأحضان، ويُقبّله، لكنه لم يفعل يوماً شيئاً، لم يقل شيئاً، وظلّ مختبئاً، مراقباً مايلز، وهو يكبر، مراقباً ابنه يتحوّل رجلاً، بينما حياته

Tele: @Arab_Books

تتأرجح إلى شيء صغير، أصغر من أن يكترث بشأنها بعد الآن، مصغياً إلى خطب ويلا المسهبة في إكستر، كل الضرر الذي وقع لها، حبيبته الشجاعة المسحوقة ويلا، مقتل بوبي على الطريق، رحيل مايلز، ومع ذلك، يتحمّل بصرامة، غير قادر تماماً على ترك الموضوع، ما يزال يظنّ بأن القصّة لم تصل إلى نهايتها بعد، وحين يفكّر في أن القصّة باتت لا تُحتَمَل، أحياناً يستغرق في أحلام يقظة طفولية، متخيّلاً نفسه متنكّراً بملابس حتّى ابنه لن يعرفه بها، تنكُّر شيطاني على طريقة شرلوك هولمز، ليس لناحية الملابس والحذاء فحسب، بل الوجه برمّته، وتغيير الشعر والصوت كُلّيّاً؛ تحوّل كامل من شخص إلى آخر، وكم من عجوز مختلف قد اخترعه منذ خطرت الفكرة بباله؛ سجناء مليئون بالتجاعيد يمشون متثاقلين بعكاكيزهم الألمنيوم، عجائز بشعر أبيض أشعث، ولحى بيضاء شعثاء، والت ويتمان في خريف عمره، عجوز أليف ضلّ طريقه، يوقف الشّابّ، لكي يسأله عن الاتّجاهات، ثمّ يبدآن بالتّحدّث والعجوز يدعو الشاب لشراب، وشيئاً فشيئاً يغدوان صديقَيْن، والآن بما أن مايلز يعيش في بروكلين، في صانست بارك بجوار مقبرة غرينوود، فقد اختلق شخصية أخرى، شخصية نيويوركية، يسمّيها رجل الصفائح، أحد أولئك العجائز المحطّمين الذين يبحثون في مكبّات النفايات وصناديق القمامة بحثاً عن القناني والصفائح، خمسة سنتات مقابل القنّينة، وخمسة أخرى مقابل الصفيحة، طريقة شاقّة للعيش، ولكن الأزمنة شاقّة، وعلى المرء ألا يتذمّر، وفي تفكيره رجل الصفائح هو هندي من الموهوك، متحدّر من الموهوك الذين استقرّوا في بروكلين في بدايات القرن الماضي، الذين جاؤوا إلى هنا، ليعملوا بنّائين في الأبنية الطويلة التي ترتفع في مانهاتن، لأنه لسبب ما الموهوك لا يخشون المرتفعات، ويشعرون بالألفة في الهواء، ويمكنهم الرَّقْص على القضبان الخشب والحمّالات من دون أدنى خوف أو اهتزاز، ورجل الصفائح متحدّر من أولئك الأسلاف الذين

Tele: @Arab_Books

بنوا أبراج مانهاتن، لكنه للأسف شخص مجنون، يعاني خَلَلاً ما في رأسه، عجوز بليد مغفّل يمضي أيّامه دافعاً عربة التّسوّق في الحيّ جامعاً القناني والصفائح التي سوف يبيعها بخمسة سنتات للقطعة، وحين يتكلّم، فإنه غالباً ما يقول ما لديه بشعارات دعائية عجيبة عَبَثية، وغير مناسبة، مثل "مستعدّ لسَيْر ميل من أجل جمل" أو "لا أترك البيت من دونها"، أو "مُدَّ يَدَيْكَ، والمسْ أحدَهُم"، وربّما سيأنس مايلز رجلاً يمشي ميلاً من أجل جمل، وعندما يسأم رجل الصفائح من شعاراته الدعائية، سيبدأ بالاقتباس عن الكتاب المقدّس قائلاً أشياء من قبيل الريح تمضي نحو الجنوب، وتنحرف نحو الشمال، وتحوم باستمرار، أو وما كان هو ما كان يجب أن يكون، ولحظة إشاحة مايلز نَظَرَه واستعداده للمشي مبتعداً عنه، فسوف يواجهه رجل الصفائح، ويصرخ في وجهه: تذكَّرْ، يا فتى! الإفلاس ليس النهاية! إنه مجرّد بداية جديدة!

إنها العاشرة صباحاً، الصباح الأوّل من العام الجديد، وهو جالس في سقيفة في مطعم جو جونيور على ناصية الجادّة السادسة والشارع الثاني عشر، حيث تكلّم للمرّة الأخيرة مع مايلز قبل أكثر من ألفَيْن وسبعمائة يوم، جالس، كما حدث، في المكان نفسه الذي جلس فيه كلاهما صبيحة ذلك اليوم، يتناول البيض المخفوق والتوست بالزبدة، بينما تداعب خياله فكرة تحويل نفسه إلى رجل الصفائح. جو جونيور هو مكان صغير، محلّ محليّ رثّ، يتضمّن منضدة مُقوّسة من الفورمايكا مع حافّة من الكروم، ثمانية مقاعد بلا ظهر، ثلاث مناضد على النافذة في الأمام، وأربع حجيرات على امتداد الجدار الشمالي. الطعام اعتياديّ في أفضل أحواله، الطعام المشحّم نفسه من دزّينَتَيْن من الإفطار، شطائر لحم الخنزير والجبن المشوية، صلصة التونة، الهمبرغر، شطائر الديك الرومي الحارّة، وحلقات البصل المَقليّة. لم يُجرِّب يوماً حلقات البصل، ولكنْ،

Tele: @Arab_Books

تقول الأسطورة إن أحد مرتادي المكان القدماء، كارلتون راب، المتوفىّ الآن، كان مغروماً بها، إلى درجة أنه أضاف إلى وصيّته بنداً، يشترط بوَضْع طَلَبية من محلّ جو جونيور من البصل المقلي، يتمّ وضعها في تابوته قبل مواراة جسده التراب. موريس يدرك تماماً نقائص جو جونيور كمطعم، ولكنْ، من بين ميزاته الغياب الكُلّيّ للموسيقى، فرصة اختلاس السَّمْع إلى أحاديث مشوّقة، وغالباً غريبة، التي يُجريها النطاق الواسع من زبائن المحلّ (من المتسوّلين المتشرّدين إلى مالكي العقارات الأثرياء) والأهمّ من هذا كله هو الدور الذي يحتلّه المكان في ذاكرته. فقد كان هذا المكان هو موضع إفطار السبت الطقوسي، المكان الذي كان يجلب إليه الصبيان كل أسبوع طوال طفولتهما، صباحات السبت الهادئة حين يخرج ثلاثتهم على أطراف الأصابع من الشقّة، بينما تحظى ويلا بساعة إضافية أو ساعتَيْن من النوم، والجلوس في هذا المكان، هذا المطعم الوضيع على ناصية الجادّة السادسة والشارع الثاني عشر، هو عودة إلى أيّام السبت القديمة تلك، واستذكار الجنّة التي كان يعيش فيها يوماً.

فَقَدَ بوبي اهتمامه في المجيء إلى المكان حين كان في الثالثة عشرة (كان الصبيّ يحبّ النوم)، ولكنّ مايلز واصل التقليد حتّى نهاية الثانوية. ليس صباح كل سبت، بالطبع، على الأقلّ، ليس بعد أن بلغ السابعة، وبدأ يلعب مع فريق البايسبول المتشكِّل من فتية الحيّ، ولكنه كثيراً ما يشعر أن المكان ما يزال مُشبَعاً بحضوره. يا له من شابّ لامع، شابّ جادّ، القليل من الضحك في وجهه الجادّ ذاك، ولكنْ، تحت السطح مباشرة نوع من الجذل الداخلي، والمتعة التي كان يعيشها حين كانا يشكِّلان الفِرَق من أسماء لاعبين حقيقيّين، الفريق المكوَّن من قِطَع الغيار، على سبيل المثال مع لاين ب من بيل هاندز وباري فوتي ورولي فينغرز وإلروي فايس وإد هيد ووالت نو نيك وليامز، مع لاعبي احتياط مثل توني أرماس (أرم)،

Tele: @Arab_Books

وجيري هايرستون (هاير)، أو الفريق المترف بالكامل المكوَّن من دايف كاش ودون ماني وبوبي بوندز وباري بوندز وإنري بانكس وإلمر بنس، وبيل باوندز، ووس ستوك. أجل، أحبّ مايلز العَبَثَ في فتوّته، وحين كان يضحك، فكان يضحك ضحكات قوية، لا تتوقّف، يحمرّ وجهه، وينقطع نَفَسُهُ، وكأن شبحاً غير مَرئي، يدغدغه في كل أنحاء جسده. ولكنْ، غالباً ما كانت الإفطارات شأناً مكبوتاً، محادثات هادئة حول رفاقه في المدرسة، مَيْلُه إلى دروس البيانو (التي تخلّى عنها في النهاية)، خلافاته مع بوبي، فروضه المدرسية، الكُتُب التي يقرؤها، حظوظ الميتس والجاينتس، أفضل نقاط الرمي. من بين أشكال الندم كلها التي راكمها موريس على امتداد حياته، ثمّة الحزن الدائم، لأن والده لم يعشْ كفاية، لكي يلتقي حفيده، ولكنْ، لو التقاه، ولو أنه بمعجزة ما عاش حتّى سني مراهقته، لكانت أسعدتْه رؤية حفيده وهو يرمي الكرة بذراعه اليمنى التي ستُذكّره بذراعه هو، الدليل الحيّ على أن الساعات كلها التي أمضاها في تعليم ابنه على الرمي السليم لم تذهب سُدى، أنه حتّى ولو أن موريس لم يُطوّر مهارته في اللعب شخصياً، فقد مرّر دروس والده إلى ابنه، وحتّى ترك مايلز لعامه الأوّل في الجامعة، فإن النتائج كانت واعدة، بل أكثر من واعدة – ممتازة. الرمي كان المكان المثالي له. التّوحّد والقوّة، التركيز والإرادة، وقفة الذئب الوحيد في وسط الملعب الداخلي، حاملاً المباراة برمّتها على كاهله. الكُرات البطيئة والسريعة في ذلك الحين، رميتان وعمل لا ينتهي على رَمْيه، الحركة الرشيقة، الذراع وهي تندفع قُدُماً في الزاوية نفسها كل مرّة، الرِّجْل اليمنى المَطوية، والتي تدفع عنها المطّاط حتّى لحظة الإطلاق، ولكنْ، لا كريات منحنية، ولا منزلقة، في السادسة عشرة كان ما يزال ينمو، ويمكن للذراعَيْن الفتيَّيْن أن يفسدا بالفَتْل غير الطبيعي المطلوب لردّ كرة جيّدة. شعر بخيبة الأمل، أجل، ولكنه لم يَلُمْ مايلز يوماً على تَرْكه اللعب. جلد الذات، لأنه عاش بعد

Tele: @Arab_Books

وفاة بوبي، تطلّبت تضحية من نوع ما، وبالتالي تخلّى عن أكثر ما يحبّه في تلك المرحلة من حياته. ولكنْ، أن تُخرج نفسكَ من شيء، ليس هو ذاته التنازل عنه في وجدانكَ. قبل أربع سنوات حين اتّصل بينغ، ليُخبره بوصول رسالة أخرى – من ألباني بكاليفورنيا، خارج بيركلي تماماً – ذكر أن مايلز يلعب رامياً مع فريق الهواة في منطقة الخليج، متبارياً ضدّ لاعبَيْن سابقَيْن في الكُلّيّات الذين لم يكونوا مَهَرَة كفاية، ليغدوا مُحترفين، ولكنها منافسة جدّيّة مع ذلك، وكان يتشبّث بموضعه، قال مايلز، فائزاً ضعف المباريات التي خسرها، وقد علّم نفسه أخيراً كيف يرمي كرة مُقوّسة. وواصل، ليقول إن فريق سان فرانسيسكو جاينتس يُموِّل اختباراً مفتوحاً في وقت لاحق من ذلك الشهر، ورفاقه في اللعب يحثّونه على أن يُجرِّب، موصين إيّاه بأن يكذب حيال سنّه، ويقول لهم إنه في التاسعة عشرة لا الرابعة والعشرين، ولكنه لن يفعل ذلك. تخيّله يُوقّع عقداً، ليلعب في فِرَق الشباب، قال: هذا محال.

رجل الصفائح يفكّر، مُتذكّراً، مُتنقّلاً بين صباحات السبت التي لا تنتهي التي تناول فيها الإفطار مع الصبيّ، والآن، بينما يرفع يده مطالباً بالحساب، قبل دقيقة أو اثنتَيْن من خروجه إلى الهواء البارد ثانية، يتعثّر بشيء، لم يخطر له قبل سنوات، فخّارة غير منبوشة، قطعة لمّاعة من الزجاج، ليضعها في جيبه، ويأخذها معه إلى البيت. كان مايلز في العاشرة أو الحادية عشرة. كانت من أوائل المرّات التي يأتي فيها معه إلى هذا المكان من دون بوبي، كلاهما فقط يجلسان قبالة واحدهما الآخر في إحدى الحجيرات، ربمّا هذه الحجيرة، وربمّا غيرها، لا يمكنه أن يتذكّر ذلك الآن، والصبيّ أحضر معه تقريراً عن كتاب كتبه لصفّه الخامس أو السادس، لا، ليس تقريراً على وجه الخصوص، بل بحثاً قصيراً من ستّمئة أو سبعمئة كلمة، تحليل للكتاب الذي كلّف به المعلّم طَلَبَته، الذي كانوا يقرؤونه،

Tele: @Arab_Books

ويناقشونه منذ عدّة أسابيع، والآن على كلّ تلميذ تقديم ورقة، تأويل للرواية التي أنهوا قراءتها، وهي "أن تقتل الطائر المحاكي"، كتاب ممتع، أحسّ موريس، كتاب جيّد للأولاد في ذلك العمر، وأراد الولد من أبيه أن يراجع له ما كتبه. رجل الصفائح يتذكّر كم بدا الصبي متوتّراً وهو يُخرج من حقيبة ظهره الوريقات الثلاث أو الأربع، منتظراً حكم والده على ما كتبه، محاولته الأولى في النقد الأدبي، مهمّته الأولى كبالغ، ومن نظرات الصبي، فهم والده كم من الجهد والتفكير استغرقتْه هذه القطعة الصغيرة. كانت الورقة عن الجروح. والد الطفلَيْن، المحامي، أعمى بعين واحدة، كتب الصبي، والرجل الأسود الذي يدافع عنه ضدّ التهمة الزائفة بالاغتصاب، لديه ذراع مشلولة، ولاحقاً في الكتاب، عندما يقع ابن المحامي عن الشجرة يكسر ذراعه، الذراع نفسها التي للرجل الأسود البريء، اليمنى أو اليسرى، لا يذكر رجل الصفائح، والنقطة من هذا كله، كتب مايلز الشّابّ، هو أن الجروح هي جزء، لا يُجتزأ من الحياة، وإلى أن تجرح على نحو ما، لا يمكنك أن تغدو إنساناً. تساءل والده كيف أمكن لصبيّ في العاشرة أو الحادية عشرة أن يقرأ كتاباً بهذا الدأب، أن يستخلص مثل هذه العناصر اليائسة غير الجَليّة من قصّة، ويرى النمط، وهو يتطوّر على امتداد المئتَي صفحة، أن يسمع الملاحظات المتكرّرة، ملاحظات ضاعت بسهولة في الفوغات والكادنزات التي تشكِّل كُلّيّة الكتاب، وليس أنه أعجب فحسب بالعقل الذي انتبه إلى أصغر تفاصيل الرواية، بل بالقلب الذي وصل إلى مثل هذا الاستنتاج العميق. إلى أن تجرح لا يمكنك أن تغدو إنساناً. أخبر الصبي أنه قام بعمل مذهل، وأن معظم القرّاء في ضعف أو ثلاثة أضعاف عمره لا يمكنهم كتابة شيء بنصف جودة هذا المبحث، ووحده شخص يتمتّع بروح عظيمة، يمكنه أن يقرأ الكتاب على هذا النحو. تأثّر كثيراً، قال لابنه في تلك الصبيحة قبل سبعة أو ثمانية عشرة عاماً، وحقيقة أنه ما يزال متأثّراً

Tele: @Arab_Books

في الأفكار التي تضمّنها المبحث الصغير، وبينما يأخذ الفكّة من عامل الصندوق، ويخرج إلى البرد، يواصل استذكار هذه الأفكار، وقبل أن يصل إلى منزله، يتوقّف رجل الصفائح، ويقول لنفسه: متى؟

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الرابع

جاءت إلى نيويورك، لكي تلعب دوراً في مسرحية صموئيل بيكيت "الأيّام السعيدة". سوف تلعب دورويني، المرأة المدفونة حتّى خاصرتها في المشهد الأوّل، ثمّ المدفونة حتّى العنق في المشهد الثاني، والتّحدّي الكبير الماثل أمامها، هو أن تؤدّي دورها في هذه البيئة المحصورة لساعة ونصف الساعة، مُقدِّمة مونولوجاً، يصل إلى ستّين صفحة، مع مقاطعات من وقت لآخر من ويلي المنحوس غير المرني أغلب الأحيان، ولا يسعها التفكير في دور مسرحي، لعبته في الماضي، لا نورا ولا السيدة دولي، ولا بلامس ولا ديدمونة، أكثر تطلُّباً من هذا الدور. لكنها تحبّ ويني، وتتجاوب بعُمق مع التوليفة الصعبة من المراثي والكوميديا والرعب في المسرحية، وحتّى لو أن بيكيت بالغ الصعوبة، وفكريّ، وأحياناً مستغلق على الفَهْم، فاللغة نظيفة دقيقة، مدهشة في بساطتها، بحيث إنها تمنحها اللّذّة الجسدية بأن تحسّ الكلمات تخرج من فمها. اللسان، الحنك، الشفتان، والحَلْق، كلها متناغمة وهي تتلفّظ بهذيانات ويني الطويلة، والآن بعد أن تمكّنت من النصّ، وحفظتْه، فإن التمارين كانت تتحسّن بصورة ثابتة، وحين تبدأ المراجعات النقدية بعد عشرة أيّام من الآن، تأمل بأنها ستكون مستعدّة، لأن تُقدِّم الأداء الذي يرتقي إلى طموحاتها. توني جيلبرت كان قاسياً عليها، وكل مرّة يُوقفها المخرج لقيامها بالحركة الخطأ، أو لعدم التّوقّف فترة كافية بين الجُمل، فإنها تُعزّي نفسها بفكرة أنه رجاها المجيء إلى نيويورك، لتلعب دور ويني، أنه أخبرها مرّة بعد مرّة أنه ليس من ممثّلة

Tele: @Arab_Books

على قيد الحياة يمكنها تقديم أداء أفضل منها لهذا الدور. صحيح أنه كان قاسياً عليها، ولكن المسرحية قاسية، وعليها أن تعمل بجِدّ بسببها، وحتّى أن تدع جسدها يذهب إلى الجحيم، لكي تكتسب عشرين باونداً إضافية التي شعرت أنها بحاجة إليها، لكي تصبح ويني، لكي تسكن ويني (في نحو الخمسين، حسنة البنية، يفضّل أن تكون شقراء، ممتلئة الجسم، الذراعان والكتفان عاريان، صدر مترهّل، نهدان كبيران ...)، وقد قامت بالكثير من الدراسات التمهيدية، قارئة عن بيكيت، دارسة حواره مع آلان شنايدر، المخرج الأوّل للعمل، وباتت تعرف أن "البامبر" هي الكأس المُترعة، وأن اللحاء هو ضفيرة من الألياف، يستعملها البستنجيون، وأن العبارة التي تقولها ويني في بداية الفصل الثاني، "يحيا الضوء المجيد"، مُقتَبَسَة من الكتاب الثالث من "الفردوس المفقود"، وأن الزان الأخضر مصدره قصيدة "تحية إلى عندليب"(*)، وأن طائر الفجر يأتي من هاملت. أيّ عالم تجري فيه أحداث المسرحية، لم يكن بالأمر الجليّ بالنسبة لها، عالم بلا ظلمة، عالم من الضوء الحارّ الدائم، نوع من المطهر ربمّا، برية ما بعد البشرية من الاحتمالات المتلاشية دوماً، الحركة المتلاشية دوماً، ولكنها تظنّ أيضاً أن هذا العالم قد لا يكون سوى الخشبة التي ستؤدّي عليها، وحتّى لو كانت ويني وحيدة بالضرورة، تتكلّم إلى نفسها، وإلى ويلي، فإنها تعي أيضاً أنها في حضور الآخرين، أن ثمّة جمهوراً ينظر إليها من العتمة. أحدهم ينظر إليّ مع ذلك. هذا ما أجده رائعاً جدّاً، عينان على عينَيّ. يمكنها أن تفهم هذا. حياتها برمّتها كانت تدور حول هذا، هذا فحسب.

إنه اليوم الثالث من السنة، عشية السبت، الثالث من يناير، وموريس يتناول العشاء مع ماري لي وكورنغولد في الأوديون، ليس بعيد عن منزل ترايبيكا الذي استأجراه لفترة بقائهما لأربعة أشهر في نيويورك. وصلا إلى

---

*) Ode to a Nightingale قصيدة معروفة لجون كيتس.

Tele: @Arab_Books

المدينة، بينما كان يستعدّ لمغادرة إنجلترا، وعلى الرغم من أنهما تكلّما مرّات عدّة خلال الشهور القليلة الماضية، فإنهما لم يتقابلا منذ وقت طويل، منذ العام ٢٠٠٧، يفكّر، ربمّا ٢٠٠٦. ماري لي قد بلغت للتّوّ الرابعة والخمسين، وزواجهما الجدالي الوجيز لم يعد أكثر من ذكرى بعيدة. ليس في نفسه أيّ ضغينة تجاهها، أو سوء نيّة، بل بات معجباً بها، ولكنها ما تزال أحجيّة، بالنسبة إليه، خليط محيّر من الدفء والنأي، ذكاء حادّ مختبئ وراء سلوكيات مزاجية متقلّبة، بالتناوب، طيّبة القلب وأنانية، مسلّية ومُضجرة (تميل إلى الثرثرة أحياناً)، مغرورة وغير مُبالية بالمرّة بنفسها. شهد الثقل المتزايد لدورها الجديد. لطالما افتخرت بجسدها النحيف المُعتنى به، وقلقت من كلّ دِهْن يدخل إلى فمها، وجعلت ديدنها أن تأكل أكْلاً صحّيّاً، ولكنْ، الآن، من أجل عملها، أطاحت بحميّتها الغذائية. موريس أكثر اهتماماً بهذه النسخة الأكثر امتلاء ورحابة من طليقته، ويقول لها إنها تبدو رائعة، وهو ما تردّ عليه، ضاحكة، ثمّ نافخة خدَّيْها: هبية ضخمة رائعة. ولكنها رائعة، يفكّر، ما تزال جميلة حتّى الآن، وعلى العكس من كل ممثّلات جيلها، لم تخرّب وجهها بالجراحات التجميلية أو حقن إزالة التجاعيد، لسبب بسيط، وهو أنها تنوي مواصلة العمل ما دام في مقدورها ذلك، حتّى شيخوختها، لو أمكن ذلك، وكما عبّرت عن الأمر ممازحة ذات مرّة، إذا كانت كل الممثّلات السّتّينيّات سيبدين بصورة غريبة بسنّ الثلاثين، فَمَنْ سيلعب أدوار الأمّهات والجَدّات؟

كانت تمثّل بصورة ثابتة منذ أمد طويل، منذ كانت في مطلع العشرينيات، وليس ثمّة شخص في المطعم المكتظّ لا يعرف مَنْ هي، نظرة بعد أخرى تُصوِّب نحو طاولتهم، عيون على عينَيْها، ولكنها تزعم اللامبالاة، فهي معتادة على ذلك، ولكن موريس يشعر أنها تستمتع بذلك سرّاً، تلك المداهنة الصامتة من هذا النوع هي بركة لا تشيخ أبداً.

Tele: @Arab_Books

ليس الكثير من الممثّلين يحتفظون بها طوال ثلاثين عاماً، خاصّة النساء، ولا سيما اللواتي يُمثّلنَ في الأفلام، ولكن ماري لي كانت ذكية وطيّعة، مُستعدّة لإعادة اختراع نفسها مع كلّ خطوة على الطريق. حتّى خلال البداية المبكرة الناجحة لها في السينما، كانت تأخذ وقتاً منها للعمل في المسرحيات، لاسيما الجيّدة منها، الأفضل، شكسبير وَوَرَثَته المعاصرين من إبسن وتشيخوف ووليامز وألبي، ثمّ، حين كانت في وسط الثلاثينيات، وتوقّفت الاستوديوهات الكبيرة عن إنتاج أفلام للبالغين، لم تتردّد في قبول أدوار في أفلام مستقلّة منخفضة الميزانية (الكثير منها من إنتاج كورنغولد)، ثمّ، بعد سنوات أخرى، حين بلغت نقطة، بدأت فيها بلعب دور الأمّ، انتقلت إلى التلفزيون، وبدأت بمسلسل أسبوعي، بعنوان مارثا كاين، محامية الادّعاء، وهو مسلسل كان موريس وويلا يشاهدانه من وقت لآخر، وخلال السنوات الخمس من عمر ذلك المسلسل بدأت تلفت أنظار ملايين المشاهدين، واكتسبت شعبية كبيرة. الدراما والكوميديا، المرأة الصالحة والشرّيرة، السكرتيرة المفعَمَة حيوية، والعاهرة المدمنة على المخدّرات، الزوجة والعشيقة والحبيبة، المغنّية والرسّامة، الشرطية المتخفّية وعُمدة مدينة كبيرة، لعبت شتّى أنواع الأدوار في مختلف الأفلام، الكثير منها جيّد النوعية، مع عدد من الأدوار المؤثّرة التي أثّرت به على نحو ما تأثّر حين رآها للمرّة الأولى في دور كورديليا عام ١٩٧٨. وهو مسرور لِلَعبِهَا مسرحية لبيكين، يظنّ أنه من الحكمة منها أنها قبلت دوراً متطلّباً كهذا، وبينما ينظر إليها قبالته على الطاولة الآن يتساءل كيف هذه السّيّدة الجذّابة والاعتيادية بالكامل، هذه المرأة ذات المزاج المتقلّب والشغف المُبتذَل بالنُكات الجنسية، تملك المقدرة على تحويل نفسها إلى شخصيات كثيرة متباعدة كُلّيّاً، لتجعل المرء يشعر أنها تحمل الإنسانية برمّتها في داخلها. أيتطلّب الأمر شجاعة للوقوف، وتقلّب أحشاءك أمام جمهور من الغرباء

Tele: @Arab_Books

أم أن هذا أمر قَسْري، حاجة لِلَفْت أنظار الآخرين، افتقار لا يسكن لحسّ مراقبة الذات، يقود المرء إلى القيام بما تقوم به؟! لم يكن قادراً على وَضْع إصبعه على الخطّ الفاصل بين الحياة والفنّ. رينزو مثل ماري لي تماماً، كلاهما أسير ما يقوم به، لسنوات حافظ كلاهما على الاندفاع قُدُماً من مشروع إلى آخر، كلاهما أنتج أعمالاً فنّيّة، ومع ذلك، كانت حياته مُدمّرة، كلاهما طُلّق مرّتَيْن، كلاهما يتمتّع بموهبة فائقة للإشفاق على الذات، كلاهما مُستغلَق على الآخرين – ليسا بالكائنَيْن المخفقَيْن تماماً، ولكنهما ليسا بالناجحين كذلك. روح محطّمة. المجروح الذي يمشي، يفتح شرايينه، وينزف أمام العموم.

يشعر بغرابة وجوده معها الآن، جالسا قبالة طليقته وزوجها، في حجيرة أخرى في مطعم نيويوركي آخر، ذلك أن مشاعر الحبّ التي كان يكنّها لها في السابق قد زالت كُلّيّاً، ويعرف أن كورنغولد زوج أفضل بكثير لها، ممّا كان سيكونه هو يوماً، وهي محظوظة لحصولها على رجل مثله، يعتني بها، ويحملها كلّما بدأت تترنّح، ويمنحها النصح الذي كانت تسمعه وتتبعه منذ سنوات، ويحبّها بطريقة، هدّأت نوازعها القلقة، وأمزجتها المسعورة، بينما هو موريس، لم يرتقِ أبداً إلى مستوى أن يحبّها على النحو الذي تحتاج إليه، لم يستطع تقديم النصح لها حول مهنتها، لم يستطع دَعْمها أو فَهْم ما يعتمل في داخل رأسها الرائع. إنها أفضل بكثير ممّا كانت عليه قبل ثلاثين سنة، وهو يعزو لكورنغولد كل الفضل في ذلك، يكنّ له الإعجاب لأنه أنقذها بعد زواجَيْن سيّئَيْن، لأنه رمى زجاجات الفودكا والمسكّنات التي بدأت تجمعها بعد طلاقها الثاني، لأنه بقي معها خلال بعض اللحظات المرعبة في حياتها، وأبعد ممّا فعله كورنغولد لماري لها، فإن موريس يُكنّ له الإعجاب الصافي شخصياً، لا لأنه كان طيّباً مع ابنه خلال السنوات التي سبقت اختفاء الولد، ولا لأنه عانى جرّاء غياب مايلز كفرد حقيقي

Tele: @Arab_Books

من العائلة فحسب، ولكنْ، لأنه اكتشف قبل سنوات طويلة أن سيمون كورنغولد شخص مُحبّب بالكامل، وأكثر ما يحبّه سيمون فيه هو حقيقة أنه لا يتذمّر البتّة. الجميع يعاني بسبب الأزمة الاقتصادية أو التدهور أو أيّاً ما يُسمّي الناس هذه الأيّام الكساد الاقتصادي الجديد، دون استثناء الناشرين بالطبع، ولكن سيمون في حال أسوأ بكثير منه. السينما المستقلّة دُمِّرَتْ، شركات الإنتاج والتوزيع تتهاوى كالكراسي القابلة للطّيّ كل يوم من أيّام الأسبوع، وقد مضت سنوات منذ أن أنتج فيلماً، وهو ما يعني بصورة غير رسمية أنه متقاعد هذا الخريف، متقبّل وظيفة تعليم السينما في جامعة نيويورك بدلاً من إنتاج الأفلام، لكنه لا يعبّر البتّة عن المرارة حيال ذلك، أو على الأقلّ، لا يظهر ذلك، والشيء الوحيد الذي يقوله إشارة إلى ما وقع له هو أنه في الثامنة والخمسين من عمره، وأن مجال السينما المستقلّة هو للشباب. البحث المجهد عن المال يمكن أن يحطّم معنويات المرء، ما لم يكن مصنوعاً من الفولاذ، يقول، وقصارى الأمر أنه لم يعد مصنوعاً من الفولاذ. ولكنّ هذا يأتي لاحقاً. الحديث عنويني وهايل، النور المقدّس والرجال الفولاذيّين لا يبدأ حتّى ما بعد الحديث عن سبب اتّصال ماري لي به قبل ثلاث ساعات، ودعوته إلى الغداء في مثل هذا الوقت القصير. ثمّة أخبار. هذا هو الموضوع الأوّل على الأجندة، وبعد لحظات من دخولهم المطعم واتّخاذهم مقاعدهم، تُخبره ماري لي عن الرسالة التي وجدتْها على مجيبها الآلي عند الساعة الرابعة من عصر اليوم.

كان مايلز، قالت. لقد تعرّفتُ صوته.

صوته؟ يقول موريس، أتعنين أنه لم يُفصح عن اسمه؟

لا. فقط الرسالة – رسالة قصيرة مربكة، كالتالي كلها: أممم، صمت طويل. عذراً. صمت طويل. سأُعاود الاتّصال.

Tele: @Arab_Books

أأنت واثقة من أنه مايلز؟

كل الثقة.

يقول كورنغولد: ما أزال أحاول أن أتخيّل ما الذي يعنيه بهذا الاعتذار. أهو عن الاتّصال؟ أم لأنه كان مُربَكاً إلى هذا الحدّ، بحيث لم يترك رسالة مناسبة؟ أم على كلّ ما فعله؟ يصعب التحديد، يجيب موريس، ولكنني أميل إلى أنه مُربك.

ثمّة شيء سيحدث، تقول ماري لي، عمّا قريب، في أيّ لحظة.

تكلّمت إلى بينغ هذا الصباح، يقول موريس، فقط لأطمئنّ إلى أن كلّ شيء على ما يرام. قال لي إن مايلز له حبيبة، فتاة كوبية يافعة من فلوريدا، وإنها كانت في نيويورك خلال الأسبوع الماضي في زيارة له. أظنّ أنها عادت اليوم. وفقاً لبينغ، كان مايلز يخطّط للاتّصال بنا ما إن تغادر. هذا يفسّر أمر الرسالة.

ولكنْ، لمَ يتّصل بي، وليس بكَ؟ تسأله ماري لي.

لأن مايلز يظنّ أنني ما أزال في إنجلترا، وأنه لن يتمكّن من الوصول إليّ قبل الاثنين.

وكيف يعرف ذلك؟ يسأل كورنغولد.

من الواضح أنه اتّصل بالمكتب قبل أسبوعَيْن أو ثلاثة، وقيل له إنني سأعود إلى العمل في الخامس من الشهر. هذا ما أخبرني به بينغ، على أيّة حال، ولا أرى سبباً ليكذب مايلز عليه.

إننا مَدينون بالكثير لبينغ ناثان، يقول كورنغولد.

Tele: @Arab_Books

ندين له بكل شيء، يقول موريس. حاولْ أن تتخيّل السنوات السبع الماضية من دونه.

يجب أن نُكافئه على نحو ما، تقول ماري لي. اكتبْ له شيكاً، أرسله في رحلة حول العالم، أو ما شابه.

لقد حاولتُ، يقول موريس، لكنه لن يقبل أيّ مال مني. لقد شعر بإهانة كبيرة المرّة الأولى التي عرضتُ عليه ذلك، وشعر بإهانة أكبر في المرّة الثانية. يقول: المرء لا يأخذ المال لتصرّفه ككائن بشريّ. شابّ ذو مبادئ. يمكنني أن أحترم ذلك.

ماذا أيضاً؟ تسأل ماري لي. أيّ كلمة عن أحوال مايلز؟

ليس الكثير. موريس يجيب. بينغ يقول إنه منكفئ في الغالب على نفسه، ولكن الآخرين في البيت يحبّونه، وهو يتماشى جيّداً معهم. هادئ كعادته. منخفض المعنويات بعض الشيء كالعادة، ولكنه انتعش لدى وصول الفتاة.

والآن رحلت، تقول ماري لي، وقد ترك رسالة على مجيبي الآلي يقول إنه سيُعاود الاتّصال. لا أعرف ماذا سأفعل حين أراه، هل أصفعه على وجهه؟ أم أعانقه وأُقبّله؟

افعلي الاثنَيْن، يقول موريس. الصفعة أوّلاً، ثمّ القُبلة.

يتوقّفون عن التّكلّم على مايلز بعد ذلك، وينتقلون إلى المسرحية، ومستقبل السينما المستقلّة، والموت الغريب لستيف كوتشران، ومزايا ورزايا العيش في نيويورك، بدانة ماري لي الجديدة (التي ألهمت الخدَّيْن المنتفخَيْن، وتعليق الهبية الرائعة)، الروايات التي ستُنشر قريباً في دار هيلر وويلا، لا داعي إلى القول ويلا، إنه السؤال المهذّب الذي يجب

Tele: @Arab_Books

أن يُسأل، ولكن موريس لا يرغب في قول الحقيقة لهما، لا رغبة لديه في أن يتحرّر من العبء، ويصارحها بخشيته من أنه ربّما يخسرها، أنه قد خسرها بالفعل، وبالتالي يقول إنها في أحسن أحوالها، وإن الرحلة إلى إنجلترا كانت بمثابة شهر عسل ثان، وهو يشعر بصعوبة، ليتذكّر وقتاً، كان فيه أسعد من ذلك. جوابه يأتي وينتهي في ثوان معدودات، ثمّ ينتقلون إلى أمور أخرى، استطرادات أخرى عن عدد من المواضيع ذات الصلة أو عديمة الصلة، ولكنّ ويلا بباله الآن، لا يمكنه التّحرّر من التفكير بها، وإذ ينظر إلى كورنغولد وطليقته قبالة الطاولة، والراحة والألفة في تفاعلهما مع بعضهما، والتواطؤ الخفيّ بينهما، يفهم كم أنه وحيد، كم بات وحيداً، والآن بما أن الغداء شارف على الانتهاء، يمقت العودة إلى الشّقّة الفارغة في داونينغ ستريت. ماري لي شربت ما يكفي من النبيذ، لتكون في أحد أمزجتها الجذلة المعطاءة، وحين يخرج ثلاثتهم، ليفترقا أمام المطعم، تبسط ذراعَيْها، وتقول له، أعطنا عناقاً، موريس. عناق طويل لطيف للمرأة السمينة المُسنّة. يعانق المعطف الشتوي الضخم بقوّة كافية، ليحسّ باللحم الذي يكتنفه، جسد والدة ابنه، وبينما يفعل ذلك، تتشبّث به بقوّة مماثلة، ثمّ، بيسراها، تبدأ بتربيت قفا رأسه، وكأنه تقول له ألا يقلق بعد الآن، الأوقات السود ستنتهي عمّا قريب، وكل شيء سيُغتفر.

يمشي عائداً إلى داونينغ ستريت في البرد، وشاحه الأحمر حول عنقه، ويداه في عمق جيبَي معطفه، والريح التي تهبّ من نهر هادسون قوية بصورة خاصّة الليلة، بينما يرتقي شارع فاريك باتّجاه وست فيلاج، ولكنه لا يتوقّف، ليؤشّر لسيّارة أجرة، يريد أن يمشي هذا المساء، إيقاع خطواته يُهدّئه على نحو ما تفعل الموسيقى أحياناً، على نحو ما يُسكّن الأطفال حين يُهدهدهم أهلُهم للنوم. إنها العاشرة ليلاً، ليس الوقت متأخّراً، وما تزال هناك ساعات قبل أن يكون مستعداً للنوم، وبينما يفتح باب الشّقّة، يتخيّل

Tele: @Arab_Books

أنه سيرتاح على كرسي مريح في غرفة المعيشة، ويُمضي الساعات الأخيرة من يومه قارئاً كتاباً، ولكنْ، أيّ كتاب؟ يسأل نفسه، أيّ كُتُب من بين آلاف الكُتُب التي تعجّ بها رفوف شقّته الدوبلكس؟ ربّما مسرحية بيكيت، إذا استطاع إيجادها، يفكّر، تلك التي ستمثّلها ماري لي الآن، التي تكلّموا عنها الليلة، أو ربّما مسرحية لشكسبير، المشروع الصغير الذي بدأ به في غياب ويلا، إعادة قراءة جميع أعمال شكسبير، الكلمات التي ملأت الساعات بين العمل والنوم خلال الشهور الماضية، وقد شرع بقراءة العاصفة، كما يظنّ، أو حكاية شتوية، وإذا كانت القراءة تفوق احتماله هذه الليلة، إذا كانت أفكاره مسكونة بمايلز وماري لي وويلا، بحيث لا يمكنه التركيز على الكلمات، فسوف يشاهد فيلماً على التلفزيون، المهدّئ الوحيد الذي يمكنه دوماً الاعتماد عليه، الوميض المهدّئ للصور والأصوات والموسيقى، وتلاحق القصص، دائماً القصص، آلاف القصص، ملايين القصص، ومع ذلك لا يسأم المرء منها، ثمّة دوماً مجال في الرأس لقصّة أخرى، لكتاب آخر، لفيلم آخر، وبعد أن يسكب لنفسه كأساً في المطبخ، يذهب إلى حجرة المعيشة مفكّراً بالفيلم، سوف يختار الفيلم، إذا وجد شيئاً يستحقّ المشاهدة الليلة.

قبل أن يتمكّن من الجلوس على مقعده الوثير، ويضيء التلفزيون، يسمع رنين الهاتف في المطبخ، فيعود أدراجه، مُتعجّباً من الوقت المتأخّر للمكالمة، متسائلاً مَنْ يمكن أن يرغب في التّكلّم إليه في العاشرة والنصف من ليلة سبت؟ أوّل مَنْ يخطر بباله هو مايلز، مايلز يتبع اتّصاله بأمّه باتّصال بأبيه، لكنْ، لا، لا يعقل أن يكون ذلك، فمايلز لن يتّصل به قبل الاثنين على الأقرب، إلا إذا افترض ربّما أن والده قد عاد من إنجلترا، ويمضي عطلة الأسبوع في البيت، أو إن لم يكن هذا يريد ببساطة أن يترك رسالة على المجيب الآلي، على نحو ما فعل بعد الظهر مع أمّه.

Tele: @Arab_Books

إنها ويلا، تتّصل من إكستر عند الثالثة والنصف فجراً، ويلا تبكي مبتئسة، وتقول إنها على وشك الانهيار، إن عالمها خرب، إنها ما عادت تريد أن تكون على قيد الحياة. دموعها لا تهدأ، والصوت الذي يتكلّم عبر الدموع بالكاد مفهوم، لكنه حادّ، صوت طفل، وهذا انهيار حقيقيّ، يقول لنفسه، حالة تتجاوز الغضب، والأمل، شخص مُدمَّر كُلّيّاً، مُزْرٍ، مسحوق تحت وطأة العالم، حزن ثقيل كما العالم. لا يعرف ماذا يفعل سوى أن يكلّمها بأكثر صوت مريح ممكن، وأن يقول لها إنه يحبّها، وإنه سيكون على أوّل طائرة متّجهة إلى لندن صباحاً، وإنها يجب أن تتماسك حتّى يصل إليها بعد أقلّ من ٢٤ ساعة، يوم واحد فقط، ويذكّرها بالانهيار العصبي بعد زهاء عام من موت بوبي، الدموع نفسها، الصوت الواهي نفسه، الكلمات نفسها، وقد تمكّنت من الصمود في الأزمة حينذاك، وسوف تتجاوز هذه أيضاً، ثقي بي، فهو يعرف عمّ يتكلّم، سوف يعتني بها، سوف يعتني بها دوماً، وعليها ألا تلوم نفسها على أمور لا ذنب لها فيها. يتكلّمان لنحو ساعة، ساعتَيْن، وفي النهاية تتنحّى الدموع، وتدريجياً تبدأ بالهدوء، ولحظة يبدأ بالإحساس بأنه سيكون من الآمن أن يقفل الخطّ، تبدأ الدموع ثانية. إنها بمساس الحاجة إليه، تقول، لا يمكنها العيش من دونه، لقد كانت رهيبة معه، شرّيرة جدّاً، وانتقامية، وفظّة، لقد تحوّلت إلى شخص رهيب، إلى وحش، وهي تكره نفسها الآن، ولا يمكنها مسامحة نفسها، ومجدّداً يحاول أن يُسكنها، قائلاً لها إنها يجب أن تنام الآن، إنها مرهقة، ويجب أن تنام، وإنه سيكون معها صباحاً، وأخيراً، أخيراً تعده بأن تؤوي إلى النوم، وحتّى لو جافاها النوم، فقد وعدته بألا تُقدِم على فعْلة حمقاء، سوف تُحسن التّصرّف، تعدُه. يقفلان الخطّ أخيراً، وقبل أن يهبط ليل آخر على نيويورك سيتي، يكون موريس هيلر في طريق العودة إلى لندن، حيث سينتقل من هناك إلى إكستر لرؤية زوجته.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الجميع

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

مايلز هيلر

كان هذا أفضل ما يمكن أن يحدث له، وأسوأ ما يمكن أن يحدث له. اثنا عشر يوماً مع بيلار في نيويورك، ثمّ عذاب وَضْعها في الحافلة العائدة إلى فلوريدا.

ثمّة أمر مؤكّد. إنه يحبّها أكثر من أيّ شخص في العالم، وسوف يظلّ يحبّها حتّى الموت.

بهجة النظر إلى وجهها ثانية، بهجة معانقتها، بهجة سماع ضحكتها، بهجة سماع صوتها، بهجة مشاهدتها وهي تأكل، بهجة النَّظَر إلى يَدَيْها، إلى جسدها العاري ثانية، بهجة لمس جسدها العاري ثانية، بهجة تقبيل جسدها العاري ثانية، بهجة رؤيتها تتجهّم ثانية، رؤيتها وهي تُسرّح شعرها ثانية، وهي تضع طلاء الأظافر، بهجة الوقوف معها في الدوش ثانية، بهجة التّكلّم إليها عن الكُتُب ثانية، بهجة رؤية عينَيْها تغرورقان بالدمع ثانية، بهجة رؤيتها تمشي ثانية، وسماعها تشتم أنجيلا ثانية، والقراءة لها ثانية، وسماعها تتجشّأ ثانية، وتفرش أسنانها ثانية، بهجة تعريتها ثانية، بهجة وَضْع فمه على فمها ثانية، بهجة إحاطتها بذراعَيْه ثانية، بهجة لعق نهدَيْها ثانية، بهجة دخول جسدها ثانية، بهجة الاستيقاظ بجانبها ثانية، بهجة مناقشة الرياضيات معها ثانية، بهجة شراء الملابس لها ثانية، بهجة تدليكها، وأن تُدلّكه ثانية، بهجة أن تقول له إنها تحبّه ثانية، وأن يقول لها إنه يحبّها ثانية، بهجة العيش تحت قوّة نظرات عينَيْها السوداوَيْن، ثمّ عذاب مشاهدتها

Tele: @Arab_Books

تستقلّ الحافلة في محطّة بورت أوثوريتي عصر الثالث من يناير مع المعرفة الأكيدة أنه لن يراها مجدّداً قبل أبريل، أكثر من ثلاثة شهور من الآن، حيث سيحظى بفرصة أن يكون معها ثانية.

كانت رحلتها الأولى إلى نيويورك، أوّل مرّة تخرج فيها من فلوريدا، رحلتها الأولى إلى أرض الشتاء. ميامي هي المدينة الكبرى الوحيدة التي تألفها، لكنّ ميامي ليست بالكبيرة مقارنة بنيويورك، وقد أمل أنها لن تشعر بالخوف من جَلَبَة المدينة، وضخامتها، أن أملها لن يخيب بسبب الضّجّة والقذارة، وقطارات الأنفاق المكتظّة، والطقس السّيّئ. تخيّل أنه سيحتاج إلى أن يقودها عبر المدينة بحذر مثل شخص يدخل إلى بحيرة باردة مع سبّاح يافع، مانحاً إيّاه الوقت ليتأقلّم مع المياه المتجلّدة، تاركاً إيّاها تُخبره متى تكون مستعدّة لأن تخوض في الماء حتّى الخاصرة، ثمّ العنق، وإذا كانت تريد ومتى تريد أن تغطس رأيها بالماء. الآن وقد رحلت، لا يستطيع أن يفهم لماذا شعر بمثل هذا الخوف نيابة عنها، لماذا أو كيف أمكنه أن يقلّل من شأن عزيمتها. بيلار هُرعت إلى البحيرة بيدَيْن تصفّقان، صارخة بحماسة، بينما تتلاطم المياه الباردة على جلدها، وبعد ثوان، كانت تسبح، مغطسة رأسها تحت السطح، ومنزلقة بسلاسة شخص ذي خبرة. الصغيرة قامت بفروضها المنزلية. خلال الرحلة الطويلة على ساحل الأطلسي، هضمت محتويات ثلاثة كُتُب أدلّة وتاريخ نيويورك، وبوقت وصول حافلتها إلى المحطّة، كانت قد وضعت قائمة بالأمكنة التي ترغب في رؤيتها، والأشياء التي تودّ فعْلها. كما أنها لم تُهمل نصيحته بأن تعدّ نفسها للحرارة المنخفضة، وربّما للعواصف. فقد ذهبت واشترت جزمة للثلج، وسترتَيْن دافئتَيْن، ووشاحاً، وقفّازات صوفية، وسترة فرو مع قبّعة. كانت نانوك الشمال، قال، حبيبته فتاة الأسكيمو الباسلة المسلّحة ضدّ هجمات أعتى أنواع الطقس، وأجل، بدت رائعة في تلك الملابس، ومرّة

Tele: @Arab_Books

بعد مرّة قال لها إن المزيج الكوبي الأمريكي الأسكيمو في مظهرها سيصبح الموضة الدارجة لسنوات وسنوات.

زارا قمّة الإمباير ستايت، والقاعات الرخامية في المكتبة العامّة في الجادّة الخامسة والشارع ٤٢، وموقع البرجَيْن التوأمَيْن، وأمضيا يوماً بين متحف متروبوليتان ومتحف مجموعة فريك(*) ومتحف موما(**)، واشترى لها فستاناً وزوج أحذية في ماكيز، وسارا على جسر بروكلين، وتناولا المحار في أويستر بار في جراند هوتيل ستايشن، وشاهدا المتزلجين على الجليد في مركز روكفلر، ثمّ، في اليوم السابع من زيارتها، ركبا قطار الأنفاق أعلى الشارع ١١٦ وبرودواي، وزارا حَرَمَ جامعة برنارد، وحَرَمَ جامعة كولومبيا قبالته، والحلقات الدراسية ومعاهد الموسيقى المنتشرة في مرتفعات مورنينغسايد، وقال لها انظري، كل هذا متاح لك الآن، أنت لا تقلّين مهارة عن أيّ واحد من الذين يدرسون هنا، حين يُرسلون لكِ رسالة القبول هذا الربيع، وأنا واثق من أنهم سيُرسلونها، ثمّة فرصة تتجاوز الثمانين بالمئة من أنهم سيرغبون في انضمامكِ إليهم، فكّري طويلاً وجيّداً قبل أن تقرّري البقاء في فلوريدا، صح؟ لم يكن يُملي عليها ما تقوم به، كان يطلب منها فحسب أن تُفكّر ملياً بالأمر، أن تزن عواقب قبول أو رفض ما سيعرض عليها، ولمرّة كانت بيلار صامتة، غير راغبة في مشاركته أفكارها، ولم يصرّ عليها لتقول شيئاً، لأنه كان جلياً من نظرات عينَيْها أنها كانت تفكّر في هذا الأمر بالتحديد، محاولة أن تنقل نفسها إلى المستقبل، لتتخيّل ما الذي سيعنيه لها الذهاب إلى جامعة في نيويورك، أو ما الذي لن يعنيه لها، وبينما مشيا في الأراضي المهجورة، ودرسا واجهات المباني، شعر كأنها

---

*) Frick Collection متحف في مانهاتن بنيويورك، يضمّ مقتنيات رجل الأعمال الأمريكي من القرن التاسع عشر هنري كلاي فريك.

**) Moma: مختصر "متحف الفن الحديث" في نيويورك.

Tele: @Arab_Books

تتغيّر أمام ناظرَيْه، تنمو أمامه، وفجأة فهم كيف ستكون بعد عشر سنوات من الآن، بعد عشرين سنة، بيلار في خضمّ نضجها المتنامي، بيلار وقد صارت نفسها تماماً، وما تزال تمشي مع ذلك في ظلّ الفتاة الطموحة التي تمشي بجواره الآن، الشّابّة اليافعة التي تسير معه الآن.

يتمنّى لو أمكنهما أن يكونا وحدهما طوال الأحد عشر يوماً، أن يعيشا ويناما في غرفة أو شقّة، لا يتشاركانها مع أحد آخر، لكنّ الخيار الوحيد المتاح لهما كان المنزل في صانست بارك. الفندق كان ليكون ممتازاً، ولكنه لا يملك المال لذلك، ناهيك عن مسألة سنّ بيلار، وحتّى لو تمكّن من تحمُّل الكلفة، فثمّة المجازفة نفسها في نيويورك، كما في فلوريدا، ولم يكن مستعدّاً للقيام بها. قبل زهاء أسبوع من الميلاد، ناقش وإيلين احتمال استعارة مفاتيح إحدى الشقق الفارغة في قائمة الشقق التي تديرها مؤسّستها، إلا أنهما شيئاً فشيئاً تخلّيا عن هذه الفكرة العَبَثية. ليس فقط لأنه يمكن أن يُوقِع إيلين في متاعب خطيرة، مع صَرْف فوري من عملها، كونه مجرّد شيء من أشياء كثيرة سيّئة، يمكن أن تقع لها، ولكنْ، حين تخيّلا كيف سيكون أن يعيشا في مكان بلا أثاث ولا ستائر ولا كهرباء ولا سرير، أدرك كلاهما أن البقاء في هذا المنزل الصغير المتهلهل قبالة مقبرة غرينوود سيكون أفضل بكثير.

بيلار تعرف أنهم يقيمون هناك بصورة غير شرعية، ولا توافق على ذلك. ليس فقط من الخطأ خَرْق القانون، تقول، لكنها تخشى أن يحدث شيء لهما، شيء سيّئ، شيء لا يمكن معالجة نتائجه، وأيّ مفارقة ستكون، تقول (خاضا هذا الحديث عبر الهاتف أكثر من مرّة)، أن يكون غادر فلوريدا ليتجنّب السجن، فقط ليحطّ في سجن آخر شمالاً. ولكنه لن يذهب إلى السجن لاحتلاله منزلاً، يقول لها، أسوأ ما يمكن أن يحدث هو الطّرْد في

Tele: @Arab_Books

وقت غير مناسب، وعليها ألا تنسى أن العيش هناك ليس إلا ترتيباً مؤقّتاً، بالنسبة إليه، وما إن يعود إلى فلوريدا في الثاني والعشرين من مايو، حتّى تكون قد انتهت مغامرته الصغيرة هذه. في هذه المرحلة من الحديث، تبدأ بيلار الحديث عن أنجيلا، شاتمة أختها الجشعة الشّرّيرة، لأنها فعلت هذا بهما، الظُّلم في الأمر، السقم الذي فيه، والآن تعيش في خوف دائم من أن شيئاً سيقع له، وأنجيلا هي المُلامَة كُلّيّاً على ذلك.

وبسبب خوفها من البيت، أرادت أن تمضي أقلّ وقت ممكن فيه. لأسباب مختلفة تماماً كان شعوره مثلها، وهو ما عنى أن يتسكّعا خارج البيت خلال معظم مدّة زيارتها، غالباً في مانهاتن، غالباً يأكلان في المطاعم، المطاعم الرخيصة، كيلا يهدرا أموالهما، في المطاعم الصغيرة ومحلات البيتزا والزلابية الصينية، وتسعون بالمئة من الوقت الذي أمضياه في المنزل كان في غرفتهما، إمّا يمارسان الحبّ، وإمّا نائمَيْن. ومع ذلك، كان ثمّة اللقاءات التي لا يمكن تجنّبها بالآخرين، الإفطارات في الصباح، واللقاءات العَرَضية أمام الحمّام، الليلة التي عادا فيها قرابة العاشرة، ودعتْهما أليس إلى غرفتها لمشاهدة فيلم، وصفتْه بأنه هَوَسُها في الوقت الحالي، فيلم يُدعى "أحلى أيّام عمرنا"، بما أنها أرادت أن تعرف رأيهما به (منحه تقييم جيّد، وممتاز للتصوير الفوتوغرافي، وبيلار أعطتْه ممتاز لكل شيء)، ولكنْ، كان هدفه إبقاء اتّصالها ببقية أفراد البيت ضمن الحدّ الأدنى. ليس أنهم لم يكونوا ودودين معها، ولكنه رأى وجوههم حين عرّفهم بها في الليلة الأولى، وواحداً بعد واحد، لاحظ برهة الصدمة الوجيزة حين فهموا كم أنها صغيرة، وأحسّ بالتّردّد لتعريضها إلى موقف، يمكن أن يتفضّل فيه الآخرون عليها، أو يستخفّ بها، أو تُجرح. كان ليختلف الأمر لو أنها كانت أطول من خمس أقدام وأربعة إنشات، ولو كان ثدياها أكبر، أو ردفاها أعرض، ولكنْ، لابدّ من أنهما صُدما بمدى ضآلة بيلار ومظهرها الطفولي،

Tele: @Arab_Books

تماماً كما استوقفه ذلك في المرّة الأولى التي رآها هو فيه، ولم يكن من جدوى لمحاولة إزالة انطباعهم الأوّل عنها. الزيارة ستكون قصيرة على أيّة حال، وهو يريدها له خلال هذا الوقت. لكي يكون منصفاً معهم، على أيّة حال، لم يحدث أيّ شيء مزعج. وافقت أليس على أن تتولّى طهي طعام العشاء، بينما بيلار في المدينة، وبالتالي كانت مهمّته شراء البقالة، وهو كان أوّل ما يهتمّ به صباحاً، وبينما هو في المتجر، أليس وبيلار تبادلتا على طاولة المطبخ الأحاديث الثنائية. لم يتطلّب طويلاً لكي ترى أليس مدى ذكاء بيلار، ولاحقاً، بعد مغادرتهما البيت، تقول له بيلار كم هي معجبة بأليس، كم تُقدّر العمل الذي تقوم به، كم هي معجبة بها شخصياً. ولكن أليس كانت الوحيدة التي تواصلت بفعالية مع بيلار. بينغ بوصفه مشدوهاً، مذهولاً بعض الشيء، مُربَكاً بحضورها، وبحلول اليوم التالي، كان قد تقمّص شخصية خفيف الدم، لكي يتواصل معها (بينغ محاولاً أن يكون طريفاً)، مُتكلّماً بصوت الكاوبوي في الأفلام، ومخاطباً إيّاها بالآنسة بيلا، وكيف حال سيّدتنا الجميلة هذا الصباح؟ كانت إيلين مهذّبة، إنما بعيدة، والمرّة الوحيدة التي كان جايك حاضراً فيها، تجاهلها.

إنها تتأقلم مع الظروف المتحوِّلة في فلوريدا، ولكنْ، هذه أوّل مرّة تعيش فيها وحدها، وكان ثمّة أيّام صعبة قاتمة، كان عليها أن تُكابد فيها الرغبة في البكاء لساعات وساعات. ما تزال علاقتها جيّدة بتريزا وماريا، ولكن الصدع مع أنجيلا نهائي وأبدي، وهي تتجنّب الذهاب إلى البيت حين تكون أختها الكبرى هناك. ماريا ما تزال تواعد إدي مارتينز، وزوج تريزا كارلوس سيصل إلى نهاية خدمته، ويتوقّع أن يخرج من العراق في مارس. ضجرت من المدرسة، تكره الذهاب إلى هناك كل صباح، ويتطلّبها إرادة هائلة لكيلا تتغيّب عن بعض الصفوف، أو ألا تتغيب يوماً كاملاً، ولكنها تواصل ذلك، لأنها لا تريد أن تخيب أمله. تجد الطَّلَبَة الآخرين حمقى،

Tele: @Arab_Books

خاصّة الفتية، ولديها صديقتان أو ثلاث فحسب، فقط ثلاث أو أربع فتيات في صفّ الإنجليزية اللواتي تشعر أنها قادرة على التّحدّث إليهنّ. كانت حريصة بشأن المال، مُنفقة القدر الأقلّ منه، والإنفاق الوحيد غير المتوقّع جاء قبل رحلتها إلى نيويورك، حين اضطرّت إلى استبدال المكربن وولاعة الإشعال في سيّارة التويوتا. ما تزال طبّاخة بائسة، ولكنها أقلّ بؤساً من ذي قبل، ولم تفقد شيئاً من وزنها، ممّا لابدّ يعني أنها في أحسن أحوالها على الرغم من بعض التقصير. الكثير من الفواكه والخضار، الأرز والحبوب، ومن وقت لآخر كستليتة الدجاج أو الهمبرغر (كلاهما سهل التحضير)، وإفطار حقيقي صباح كلّ يوم - الشمام واللبن والتوت، وحبوب سباشيل ك. كان وقتاً غريباً، قالت له صبيحة اليوم الأخير لها في نيويورك، أغرب وقت مرّ عليها، وتتمنى أن تمرّ الأيّام بصورة أسرع هناك، ألا تطول إلى هذا الحدّ، ولكن كل ساعة تمرّ تزحف مثل سمين متعب، يصعد أدراج مئة طابق، والآن بما أنه عليها الرحيل، فمن المحتّم أن الأمر سيكون أسوأ، لأنه من قبل كان هناك نيويورك لتنتظر الذهاب إليها بعد رحيله، ولكنهما الآن ينظران إلى ثلاثة أشهر، ولا يمكنها استيعاب هذه الفكرة، ثلاثة أشهر قبل أن تراه ثانية، وسيكون الأمر أشبه بالعيش في المطهر، مثل الذهاب إلى إجازة في الجحيم، وهذا كله بسبب تاريخ غبي على شهادة ميلادها، رَقْم اعتباطي، رَقْم لا منطقي، لا يعني أحداً بشيء.

طوال فترة زيارته، كانت تحدوه الرغبة لكي يُخبرها، أن يفتح لها قلبه، ويُخبرها القصّة كاملة - والداه وبوبي، طفولته في نيويورك، السنوات الثلاث في براون، السنوات السبع ونصف السنة من المنفى الذاتيّ المجنون، كل شيء. صبيحة تنزُّههما في الفيلاج(*)، مرّا بمستشفى سان

(*) Greenwich Village: حيّ شهير بمانهاتن، يشير إليه السّكّان المحلّيّون عادة بكلمة فيلاج فقط.

Tele: @Arab_Books

فنسنت التي وُلد فيها، ومرّا بمدرسة "بي أس ٤١" التي درس فيها صبياً، ومرّا بالبيت في داونينغ ستريت، حيث ما يزال يعيش والده مع زوجته، ثمّ تناولا الغداء في مطعم جو جونيور، مطعم العائلة خلال العشرين سنة الأولى من حياته، صبيحة كاملة وجزء من العصرية في قلب أماكن لعبه، وكان ذلك اليوم الذي اقترب فيه أكثر ما يكون من إخبارها، ولكنْ، بقدر ما كان توّاقاً لذلك، فقد أمسك نفسه. لم يكن الخوف. كان يمكنه أن يُخبرها حينذاك، ولكنه لم يرد أن يُفسد وقتهما الجميل معاً. بيلار كانت تعاني في فلوريدا، والرحلة إلى نيويورك أحيت فيها الأمل، ورفعت معنوياتها، ولم تكن ببساطة اللحظة المناسبة للاعتراف بأكاذيبه لها، أن يروي لها قصّة عائلة هيلر الكئيبة. سيفعل ذلك في الوقت المناسب، وهذا الوقت سيكون فقط بعد أن يُكلّم والدَيْه، بعد أن يقابلهما، بعد أن يطلب منهما أن يُعيداه إلى حياتهما. إنه مستعدّ لمواجهتهما الآن، مستعدّ لمواجهة فظاعة ما اقترفه بحقّهما، وبيلار مسؤولة فقط عن مَنْحه القوّة لفعل ذلك – لأنه لكي يكون مستحقّاً لها، يجب أن يمتلك هذه الشجاعة.

رحلت إلى فلوريدا في الثالث من الشهر، قبل يومَيْن اثنَيْن. وداع كئيب، عذاب النَّظَر إلى وجهها عبر النافذة، ثمّ الحافلة وهي تمضي وتتوارى عن الأنظار. ركب قطار الأنفاق عائداً إلى صانست بارك، ولحظة دخل إلى غرفته، جلس على سريره، وأخرج موبايله، واتّصل بأمّه. لن يكون قادراً على التّكلّم إلى والده قبل الاثنين، ولكنْ، عليه أن يفعل شيئاً ما الآن، فبعد أن شاهد الحافلة وهي تبتعد، بات مستحيلاً عليه ألا يفعل شيئاً، وإن لم يكن والده متوافراً، فيمكنه البدء بأمّه. كان سيتّصل أوّلاً بالمسرح، اعتقاداً منه أن هذه ستكون الطريقة المُثلى للوصول إليها، ولكنْ، حينئذ خطر بباله أن رَقْم جوالها ربّما ما يزال هو نفسه الذي كان لديها قبل سبع سنوات. اتّصل بها، ليكتشف ذلك، وها هو صوتها يُخبر العالم أنها

Tele: @Arab_Books

ستكون في نيويورك خلال الشهور الأربعة التالية، وإذا أردتَ الاتّصال بها هناك، فهذا هو الرَّقْم. كان بعد ظهر يوم سبت، يوم سبت بارد في بداية يناير، وافترض أنها ستكون في المنزل في يوم كهذا، مُدفِئَة أصابع قَدَمَيْهَا، ومبدّدة الوقت بحلّ الكلمات المتقاطعة على الكنبة، وحين اتّصل برَقْم نيويورك، كان واثقاً من أنها سترفع السمّاعة عند الرنّة الثانية أو الثالثة. ولكنها لم تفعل. رنّ الهاتف أربع مرّات، ثمّ جاءت الرسالة، رسالة أخرى بصوتها، تقول فيها إنها في الخارج، ورجاء انتظار الرنّة قبل ترك رسالتكَ. شعر بحيرة شديدة أمام هذا التحوّل غير المتوقّع، بحيث إن الكلام اختفى فجأة من رأسه، وكل ما أمكنه التفكير به كان: أممم. وقفة طويلة. عذراً. وقفة طويلة. سأعاود الاتّصال.

قرّر أن يعكس المسار، يعود إلى خطّته الأصلية، ويُكلّم والده أوّلاً.

إنه صباح الاثنين، الخامس من يناير، وقد اتّصل للتّوّ بمكتب والده، ليعلم فقط أن والده عاد بالأمس إلى إنجلترا في أمر عاجل. يسأل متى سيعود السّيّد هيلر إلى نيويورك. ليس واضحاً، يُخبره الصوت. اتّصلْ في نهاية الأسبوع. قد يكون ثمّة أخبار حينئذ.

بعد تسع ساعات، يتّصل برَقْم أمّه النيويوركي. هذه المرّة يجدها في البيت. هذه المرّة ترفع السماعة، وتردّ.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

إيلين برايس

اثنان أفضل من واحد. وواحد أفضل من أربعة. ثلاثة قد يكون كثيراً جداً، أو كافياً تماماً. خمسة أكثر ممّا ينبغي. ستّة هذيان.

إنها تتقدّم الآن، تسافر أعمق وأعمق إلى عالم عَدَمها السفلي، ذلك المكان في داخلها الذي يتطابق مع كل ما ليست عليه. السماء فوقها رمادية أو زرقاء أو بيضاء، شيء أصفر أو أحمر، وفي بعض الأحيان أرجواني. الأرض تحتها خضراء أو بنّيّة. جسدها يقف على مفترق الأرض والسماء، وهو ينتمي إليها، وليس لشخص آخر. أفكارها تخصّها وحدها. رغباتها تخصّها وحدها. عالقة في مجال الواحد، تستحضر الاثنَينْ والثلاثة والأربعة والخمسة. أحياناً السّتّة. أحياناً حتّى السّتّة.

بعد الحادث سيّئ الذِّكْر مع أليس الشهر الماضي، فهمت أنه سيكون عليها المضي قُدُماً في حياتها وحدها. بسبب عملها هي أكثر انشغالاً من الالتحاق بصفّ دراسيّ ما، أن تهدر ساعات ثمينة متنقّلة بقطارات الأنفاق بين "برات" أو "كوبر يونيون" أو "أس في أيه"(*) والعودة. العمل هو ما يهمّ، وإذا ما كانت تنوي إنجاز أيّ تقدّم، فعليها العمل على نحو متواصل، مع أو من دون معلّم، مع أو من دون موديلات حيّة، ذلك أن جوهر العمل يكمن في يدها، وأيّاً كان ما تحقّقه لكي تُخرج نفسها من نفسها، لكي تُعطّل تفكيرها، فإنها يمكنها أن تجعل تلك اليد ترى. علّمتْها التجربة أن النبيذ

*) معاهد لتدريس الفنون في نيويورك.

Tele: @Arab_Books

يساعد. كأسان من النبيذ يجعلانها تنسى مَنْ تكون، ثمّ يمكنها الاستمرار لساعات، غالباً متوغّلة في الليل.

الجسد البشري غريب ومليء بالعيوب، ولا يمكن التّنبّؤ به. فهو ينطوي على الكثير من الأسرار، وهو لا يكشف نفسه لأحد، إلا أولئك الذين تعلّموا الانتظار. الجسد البشري له أذنان. الجسد البشري له يدان. الجسد البشري يُخلق داخل جسد بشريّ آخر، والجسد البشري الذي يخرج من ذلك الجسد البشري صغير بالضرورة، وضعيف، وعاجز. الجسد البشري يُخلَق على صورة الربّ. الجسد البشري له قَدَمَان. الجسد البشري له عينان. الجسد البشري وافر الأشكال والتعبيرات والأحجام والألوان، والنَّظَر إلى جسد بشري هو فَهْم ذلك الجسد بالتحديد، وليس سواه. الجسد البشري يمكن فَهْمه، ولكنْ، لا يمكن احتواؤه. الجسد البشري له كتفان. الجسد البشري لا يمكن أن يُرَى. الجسد البشري ينمو من الطفولة إلى البلوغ، ثمّ يبدأ بالموت. الجسد البشري له وركَان. الجسد البشري له مرفَقَان. الجسد البشري يعيش في عقل مَنْ يمتلك جسداً بشرياً، وأن تعيش داخل جسد بشريّ، يمتلكه العقل الذي يتصوّر جسداً بشرياً آخر، هو العيش في عالم من الآخرين. الجسد البشريّ له شَعْرٌ. الجسد البشريّ له فمٌ. الجسد البشري له أعضاء تناسلية. الجسد البشري خُلق من التراب، وحين لا يعود موجوداً، يعود إلى التراب الذي جاء منه.

صارت ترسم اعتماداً على مصادر عدّة: نسخ من لوحات فنّانين آخرين، صور بالأبيض والأسود للعُري البشريّ، صور طبّيّة للرّضّع والأطفال والعجائز، المرآة بطول الجسد التي علّقتْها على الجدار قبالة سريرها، لكي تتمكّن من مشاهدة كامل جسدها، مجلات البورنو الموجّهة لمختلف الأذواق والميول (من صور جميلة للنسوة العاريات إلى صور الاتّصال الجنسي بين اثنَيْن،

Tele: @Arab_Books

إلى الاتّصال بين ذكَرَيْن، إلى الاتّصال بين امرأتَيْن، إلى العلاقات الثلاثية والرباعية والخماسية، في كلّ احتمالاتها الرياضية)، ومرآة اليد الصغيرة التي تستعملها، لكي تدرس مهبلها. باب انفتح في داخلها، وقد عبرت الحافة إلى طريقة تفكير جديدة. الجسد البشري هو أداة للمعرفة.

لا وقت للتلوين الآن. الرسم أسرع وأكثر حسّيّة، يلائم أكثر إلحاحية مشروعها، وقد ملأت دفاتر إسكتشات بعد الأخرى طوال الشهر الفائت، بمحاولاتها للتّحرّر من أساليبها القديمة. خلال الساعة الأولى من بدء العمل، تحمّي بالتركيز على التفاصيل، المناطق المعزولة من الجسد المستقاة من مجموعة الصور، أو التي تجدها في إحدى المرآتَيْن. صفحة من الأيدي. صفحة من العيون. صفحة من الأرداف. صفحة من الأذرع. ثمّ تنتقل إلى الأجساد الكاملة، بورتريهات منفردة في وضعيات مختلفة: امرأة عارية، تقف مديرة ظهرها للمُشاهد، رجل عار، يقتعد الأرض، رجل عار مُمدّد على السرير، فتاة عارية تبول على الأرض، امرأة عارية على سرير وقد أرجعت رأسها إلى الخلف، بينما تحضن ثديها الأيسر بيدها اليمنى، وتضغط حلمة ثديها الأيسر بيدها اليمنى. هذه بورتريهات حميمة، تقول لنفسها، ليست رسومات إيروتيكية، الأجساد البشرية تفعل ما تفعله الأجساد البشرية حين لا يكون أحد يراقبها، وإذا كان الكثير من الرجال في تلك البورتريهات الفردية لديهم انتصابات، فهذا لأن الرجل الاعتيادي لديه خمسون انتصاباً وشبه انتصاب يومياً – أو هذا ما قيل لها. ثمّ، في الجزء الأخير من التمرين، تجمع هذه الأشكال معاً. امرأة عارية تحمل رضيعاً عارياً بين ذراعَيْها. رجل عار يقبّل عنق امرأة عارية. عجوزان عاريان يتعانقان على السرير. امرأة عارية تُقبِّل عضو رجل عار. اثنان أفضل من واحد، متبوعاً بلُغز الثلاثة: ثلاث نسوة عاريات، امرأتان عاريتان ورجل عار؛ امرأة عارية ورجلان عاريان؛ ثلاثة رجال عراة. مجلات لبورنو واضحة فيما يجري

Tele: @Arab_Books

في هذه الوضعيات، وصراحتها تُلهم عملها دونما وَجَل، أو كبت. أصابع دخلت أرحاماً. أفواه أحاطت أعضاء ذكَرية منتصبة. أعضاء ذكَرية تلجُ أرحاماً. شروج تُولَج. إلا أنه من المهمّ لحظ الفَرْق بين الصورة الفوتوغرافية والرَّسْم. إذا كان أحدهما لا يترك مجالاً للمخيّلة، فالثاني يقيم حصرياً في مجال الخيال، وبالتالي فإن كينونتها برمّتها تشتعل حين تعمل على هذه الرسومات، بما أنها لا تنسخ ببساطة الصور الفوتوغرافية التي تنظر إليها، بل تستعملها لتتخيّل مشهداً آخر من اختراعها هي. أحياناً يُثيرها ما يخطّه قلمها على الورق أمامها، تُثار لأن الصور تزدحم في رأسها وهي ترسم، وهو يشبه الصور التي تضطرم في رأسها حين تمارس العادة السّرّيّة ليلاً، ولكن الإثارة ليست إلا نتاجاً جانبياً صغيراً للجهد، وغالباً ما تحسّ به هو تطلّبات عملها نفسه، الرغبة الدائمة الضاغطة دماً لإنجاز العمل على نحو صحيح. الرسومات أوّلية، وغالباً تُترَك غير ناجزة. تريد لهذه الأجساد البشرية أن تعكس الغرابة الإعجازية في أن يكون المرء على قيد الحياة - لا أكثر من ذلك، بقدر ما إنه كل ذلك. لا تريد أن تشغل نفسها بفكرة الجمال. الجمال يمكنه الاعتناء بنفسه.

قبل أسبوعَيْن، حدث تطوّر مشجّع، تطوّر غير متوقَّع، ما يزال في طور التعبير عن نفسه. قبل أيّام من وصول الفتاة من فلوريدا إلى بروكلين وتحطّم آمالها في أن تغزو مايلز، طلب منها بينغ أن تُريه أعمالها الجديدة. أخذتْه إلى غرفتها في الأعلى بعد العشاء، والرجفة تتصاعد فيها مع كل خطوة يخطوانها، متأكّدة من أنه سيضحك منها، مثلما يفعل وهو يتصفّح دفاتر إسكتشاتها، ثمّ يصرفها بابتسامة مهذّبة وتربيتة على الكتف، ولكنها أحسّت أنه عليها المجازفة بالتّعرّض لهذا الإذلال المُحتمَل، كانت تغلي من الداخل، الرسومات كانت تستنفدها الآن، ويجب أن يراها أحد سواها. في الأحوال الطبيعية، كانت لتطلب ذلك من أليس، ولكنّ أليس خذلتْها

Tele: @Arab_Books

في ذلك اليوم من ديسمبر حين غطّى الضباب المقبرة، وعلى الرغم من أنهما سامحتا بعضهما منذ وقت طويل على سوء التفاهم الهزليّ هذا، فقد كانت تخشى أن تطلب من أليس لأنها ظنّت أنها ستشعر بالحرج من الصور، تصدم بها، تنفر منها حتّى، لأنها وعلى الرغم من كونها صديقة طيّبة ووفية لها، فإنها لطالما كانت تقليدية. بينغ أكثر انفتاحاً وصراحة (وإن غالباً ما يكون فظّاً)، في مناقشة المسائل الجنسية، وبينما صعدت معه الأدراج وفتحت الباب، أدركت أنه ثمّة الكثير من الموادّ الجنسية في هذه الرسومات، أمور قذرة تماماً إذا أردتَ النَّظَر إليها على هذا النحو، وربّما هذا الهَوَس بالأجساد البشرية يخرج عن سيطرتها بعض الشيء، ربّما يظهر أنها بدأت تتداعى ثانية. الإشارة الأولى على تصدّع آخر. ولكنّ بينغ أحبّ الرسومات، وقال إنه يراها اختباراً جبّاراً وجريئاً واستثنائياً، ولأنه نهض قافزاً عن السرير، وقبّلها بصورة عفوية بعد أن شاهد اللوحة الأخيرة، عرفت أنه لا يكذب عليها.

رأي بينغ لا يعني شيئاً، بالطبع. فهو لا يفهم الفنون البصرية، ولا معرفة لديه بتاريخ الفنّ، ولا مقدرة على تقييم ما يراه. حين أرتْه إعادة للوحة كوربيه أصل العالم، فتح عينَيْه مشدوهاً، ولكنْ، حين أرتْه صورة مماثلة للأعضاء النسوية الخاصّة في إحدى مجلاتها، فتح عينَيْه على النحو ذاته، وشعرت بالحزن لكونها مع شخص معوّق جمالياً إلى هذا الحدّ، رجل لا يميّز الفَرْق بين عمل فنّيّ ثوري وشجاع وقطعة من القذارة التافهة. ومع ذلك، فقد تشجّعت بحماسته، دُهشت لمدى شعورها بالسعادة، وهي تسمع تقريظه لها. غير مثقّف أم لا، فإن تجاوبه مع اللوحات كان أصلياً ومحسوساً، وقد تأثّر بما أنجزتْه، ولم يستطع التّوقّف عن التّكلّم عن مدى صِدْق العمل وقوّته، وطوال السنوات التي كانت خلالها ترسم وترسم، لم يتكلّم أحد عن عملها على هذا النحو. ولا مرّة واحدة.

Tele: @Arab_Books

الحرارة التي انبعثت من بينغ تلك الليلة أشعرتْها بما يكفي من الثقة بالنفس، لكي تطرح سؤالاً، السؤال، السؤال الذي لم تجرؤ على طَرْحه على أحد منذ رفضت أليس دعوتها الشهر الماضي. هل هو مستعدّ للتموضع لها؟ العمل من المرايا والصور ثنائية الأبعاد لن يقودها أبعد من ذلك، قالت، ولكنْ، إذا كانت تريد أن تُنجز شيئاً فعْلياً في تفحّصها للجسد البشري، فيجب عليها البدء بالعمل مع موديلات جية في مرحلة ما، أناس ثلاثيّو الأبعاد، أحياء ويتنفّسون. بينغ بدا أنه يشعر بالإطراء من طَلَبها هذا، ولكنه بدا منزعجاً بعض الشيء أيضاً. نحن لا نتكلّم على الجسد الجميل هنا، قال لها. هراء، أجابت. أنت تجسّد نفسكَ، ولأنكَ لا تريد أن تكون شخصاً سواكَ، عليكَ ألا تكون خائفاً.

شرب كلاهما كأساً من النبيذ، أي أنهيا قنّينة، ثمّ نزع بينغ ملابسه، وجلس على الكرسي وراء المكتب، بينما استقرّت هي على السرير على الطريقة الهندية واضعة دفتر الرَّسْم في حضنها. بصورة رائعة بما فيه الكفاية، لم يبدُ مذعوراً. جسد متكتّل، وما إلى ذلك، مع البطن المنتفخة، والفخذَيْن السمينَيْن، والصدر المليء بالشَّعر، والعجز العريض الرخو، جلس هناك بهدوء، بينما ترسمه، دون أن يُظهر إشارة على القلق أو الانزعاج، وبعد عشر دقائق من الإسكتش الأوّل، حين سألتْه كيف حاله، قال إنه بخير، إنه يثق بها، وإن لم يكن يعرف كم سيكون منظره هذا مصدر متعة لأيّ كان. كانت الغرفة ضيّقة، ولم تكن المسافة بينهما تتجاوز الأربع أقدام، وحين بدأت برَسْم عضوه للمرّة الأولى، خطر لها أنها لا تنظر إلى عضو، بل إلى ذكَر، أن العضو هو ذلك الذي يظهر في الرسم، أما الذَّكَر، فهو الكلمة المناسبة لوصف ما يبعد أربع أقدام عنها، وبموضوعية، عليها أن تعترف بأن له ذكَراً جميلاً، ليس أطول أو أقصر من معظم ما رأتْه في حياته، ولكنه أغلظ من معظمها، حسن البنية، وبلا غرابة أو عيوب، مثال

من الطراز الأوّل على الآلة الذُّكُورية، ليس ما يسمّونه العضو القلم الرصاص (أين سمعتْ تلك العبارة؟)، ولكنه قلم حبر ضخم، سدّاد مهمّ لأيّ ثقب. عند الرَّسْمة الثالثة سألتْه ما إذا كان يمانع اللعب مع نفسه قليلاً لبعض الوقت، لكي ترى ماذا يحدث حين ينتصب، وقال لا مشكلة، فالتموضع لها يُشعرِه بالتّهيّج، على أيّة حال، ولا يمانع ذلك على الإطلاق. وعند الرَّسْمة الرابعة، طلبت منه أن يستمني من أجلها، ومجدّداً وافق بكل رضى، ولكنْ، فقط لكي يتأكّد سألها ما إذا كانت تُفضِّل أن تخلع ملابسها، وينضم إليها في السرير، ولكنها قالت لا، تُفضِّل أن تبقى بملابسها، وتواصل الرَّسْم، ولكنْ، إذا في اللحظة الأخيرة رغب في النهوض من السرير، والمجيء إلى السرير، وإنهاء ما كان يقوم به في فمها، فإنها لا تمانع ذلك.

حصلت خمس جلسات منذ ذلك الحين. الشيء نفسه تكرّر في المرّات الخمس، لكنها ليست أكثر من مقاطعات وجيزة، هدايا صغيرة أسبغاها على أحدهما الآخر لدقائق معدودات، ثمّ يتواصل العمل كالسابق. إنه ترتيب ممتاز، تحسّ. الرسومات قد تحسّنت فعلاً بفضل بينغ، وهي واثقة أن احتمال المجيء في فمها، سيجعله يظلّ مهتماً بالتموضع لها، على الأقلّ الآن، في المدى المنظور، وإن لم تكن ترغب في التّعرّي من أجله، فإن الاتّصال مريح له، وهي تستمتع به أيضاً. تُفضِّل أن ترسم مايلز بالطبع، وإن كان مايلز مَنْ يتموضع لها لا بينغ لما تردّدت في أن تخلع ملابسها له، وتتركه يفعل بها ما يشاء، لكنّ هذا لن يحدث قطّ، تعرف ذلك الآن، ولا يجب أن تجعل خيبة أملها تُفقدها توازنها. مايلز يُخيفها. القوّة التي لديه تُخيفها بقدر أيّ شيء أخافها منذ سنوات، ومع ذلك، لا تستطيع مَنْع نفسها من أن ترغب فيه. ولكنّ مايلز يريد الفتاة من فلوريدا، إنه يعبد تلك الفتاة، وحين جاءت الفتاة إلى بروكلين، ورأت كيف يعتني بها، عرفت أن هذه نهاية الموضوع. إيلين المسكينة، تُدمدم، متكلّمة للا أحد في الغرفة

Tele: @Arab_Books

الفارغة، إيلين برايس المسكينة التي تخسر دوماً أمام شخص آخر، لا تأسفي على نفسكِ، واصلي رسوماتكِ، واصلي تركَ بينغ يصل في فمكِ، وآجلاً أو عاجلاً ستغادرون جميعاً صانست بارك، هذا البيت الصغير الرثّ سوف يُهدَم، ويُنسَى، والحياة التي تعيشينها الآن سيكون مصيرها النسيان، ولن يتذكّر أحد أنكِ كنتِ هنا يوماً، ولا أنتِ حتّى، ومايلز هيلر سيختفيان من قلبكِ على نحو ما اختفيتِ أنت أيضاً من قلبه، على نحو ما لم تكوني في قلبه يوماً، أو في قلب أحد، ولا حتّى في قلبكِ أنت. هذا هو الرَّقْم الوحيد المهمّ. الواحد يعرّف الحقيقي، ربمّا، ولكنّ كلّ الآخرين مجرّد وَهْم، خطوط بقلم الرصاص على ورقة بيضاء فارغة.

يوم الأحد في الرابع من يناير، تذهب لزيارة شقيقتها في غرب مانهاتن، وواحداً بعد الآخر تحمل الجسدَيْن العاريَيْن لابنَي أختها العاريَيْن، نيكولاس وبرونو. يا لهما من اسمَيْن ذُكُوريَّيْن لهذَيْن الوَلَدَيْن الصغيرَيْن، تفكّر، يبلغان الشهرَيْن فقط، وكل شيء ما يزال أمامها في عالم يتداعى، وبينما تحمل الأوّل، ثمّ الثاني بذراعَيْها، فإنها تتألم لنعومة جلدَيْهما، نعومة جَسَدَيْهما، وهي تضغطهما على رقبتها وخدَّيْها، تحسّ بالجلد اليافع في راحتَي يَدَيْها وذراعَيْها العاريَيْن، ومجدّداً تتذكّر العبارة التي كانت تُكرّر نفسها لها منذ دخلت رأسها الشهر الماضي: غرابة أن يكون المرء على قيد الحياة. فكِّري فحسب، تقول لشقيقتها، لاري يضع عضوه فيكِ ذات ليلة، وبعد تسعة أشهر، يأتي هذان الرجلان الصغيران. شيء غير معقول، صح؟ تضحك شقيقتها. هذه هي الصفقة، حبيبتي، تقول. دقائق قليلة من البهجة، تتبعها حياة من المشقّة. ثمّ بعد صمت قليل، تنظر إلى إيلين، وتقول: ولكنْ، لا، الفكرة غير معقولة، غير معقولة على الإطلاق.

عائدة بقطار الأنفاق إلى البيت مساء ذلك اليوم، تفكّر بطفلها هي،

Tele: @Arab_Books

الطفل الذي لم يُولَد، وتتساءل ما إذا كانت تلك فرصتها الوحيدة أم سيأتي وقت يبدأ طفل بالنموّ في داخلها ثانية. تُخرج دفتر ملحوظاتها، وتكتب:

الجسد البشري لا يمكن أن يكون موجوداً دون أجساد بشرية أخرى.

الجسد البشري يحتاج إلى أن يُلمَس - ليس فقط الأجساد البشرية الصغيرة، بل الكبيرة أيضاً.

الجلد البشري له جلد.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

أليس برغستروم

أيّام الاثنين والأربعاء والخميس تستقلّ قطار الأنفاق إلى مانهاتن، حيث تعمل بدوام جزئي في مركز منظّمة "بن أمريكان"، في ٥٨٨ برودواي، إلى الجنوب من شارع هيوستن. بدأت العمل هناك في الصيف الماضي، بعد أن تركت عملها كمساعد بروفسور في جامعة كوينز، لأن ذلك العمل استغرق الكثير من وقتها، ولم يترك لها وقتاً كافياً لإنجاز لأطروحتها. الإنجليزية المتوسّطة، والإنجليزية للمبتدئين، صفّان فحسب، ولكنْ، ثمّة خمسون طالباً يكتبون بحثاً كل أسبوع، ثمّ هنالك ثلاثة اجتماعات إلزامية، مع كل طالب في كل من الفصلَيْن، مئة وخمسون اجتماعاً بالإجمال، سبعمائة بحث، لتقرأها، وتُصحّحها، وتضع لها العلامات، إضافة إلى التحضير للصّفّ، ووَضْع قوائم القراءة، والفروض، وتحدّي الاستحواذ على اهتمام الطَّلَبَة، والحاجة إلى التّأنّق، رحلة الذهاب والإياب الطويلة من حيّ فلاشينغ، وهذا كله من أجل راتب مُتدنٍّ على نحو مهين، وبلا أيّ منافع إضافية، راتب يكاد يكون أقلّ من الحدّ الأدنى (قامت بالحسابات مرّة، وحسبت كم تكسب بالساعة)، ما يعني أن الراتب الذي تتلقّاه لعمل يمنعها من القيام بعملها الحقيقي أقلّ ممّا يمكن أن تُحصّله لو كانت تعمل في مغسل سيّارات، أو نادلة في مطعم همبرغر. منظّمة "بن" لا تدفع أكثر أيضاً، ولكنها تعمل خمس عشرة ساعة في الأسبوع فقط، واستأنفت التّقدّم في كتابة أطروحتها، وهي تؤمن برسالة المنظّمة، المنظّمة الوحيدة في العالم من بين المنظّمات التي تعنى بحقوق الإنسان المكرَّسة للدفاع

Tele: @Arab_Books

عن الكتّاب – الكتّاب المعتقلون من قِبَل حكومات جائرة، الكتّاب الذين يعيشون مُهدَّدين بالموت، الكتّاب الممنوعون من نَشْر أعمالهم، الكتّاب المَنفيّون. بن. شعراء وناشرون، كتّاب مقالات ومُحرّرون وروائيون. ربمّا يدفعون لها اثنَي عشر ألفاً وسبعمائة دولار في العام لقاء عملها الجزئي هذا، لكنها كلّما دخلت إلى مبنى المنظّمة في ٥٨٨ برودواي، وركبت المصعد إلى الطابق الثالث، تعرف على الأقلّ أنها لا تضيع وقتها.

كانت في العاشرة من عمرها حين صدرت الفتوى ضدّ سلمان رشدي. كانت قارئة دؤوبة حينئذ، فتاة تعيش في أرض من الكُتُب، منغمسة في سلسلة روايات "آن أوف جرين غابلز"(*)، حالمة بأن تغدو كاتبة يوماً ما، ثمّ جاءت أخبار الرجل المقيم في إنجلترا الذي نشر كتاباً، أغضب الكثيرين في نواحي بعيدة من العالم، بحيث إن قائداً مُلتحياً في أحد البلدان أعلن أن الرجل في إنجلترا يجب قَتْله على ما كتبه. كان هذا غير مفهوم بالنسبة إليها. الكُتُب ليست خطيرة، قالت لنفسها، فهي لا تجلب سوى المتعة والسعادة لمَنْ يقرؤونها، تجعل الناس يشعرون بأنهم أكثر حياة وأكثر اتّصالاً ببعضهم بعض. وإذا كان القائد الملتحي في ذلك البلد على الطرف الآخر من العالم ضدّ كتاب الإنجليزي، فكل ما عليه فعله هو التّوقّف عن قراءته، أن يُخفيه في مكان ما، وينسى أمره. التهديد بقَتْل أحد ما لكتابته رواية، قصّة مُختَلَقَة، تقع في عالم مُتوهَّم، كان أغبى ما سمعت به. الكلمات غير مؤذية، لا تملك القوّة على إيذاء أحد، وحتّى لو كانت بعض الكلمات مهينة بالنسبة إلى بعض الناس، فإنها ليست خناجر، ولا رصاص، إنها ببساطة علامات سود على قِطَع من الورق، ولا يمكنها أن تقتل أو تجرح أو تسبّب أيّ ضرر ملموس. كان هذا جوابها على الفتوى حين كانت في العاشرة،

(*) Anne of Green Gables : سلسلة روايات، وضعتْها الكاتبة الكندية لوسي مود مونتغومري في ١٩٠٨.

Tele: @Arab_Books

جوابها الساذج، إنما الحماسي على الإجحاف العَبَثي الذي ارتُكب، وما زاد من غضبها هو الخوف الذي شاب ذلك الغضب، إذ تلك كانت المرّة الأولى التي تواجه فيها بشاعة الكراهية الفظّة اللاعقلانية، المرّة الأولى التي ترى فيها عيناها الصغيرتان ظلمة العالم. استمرّ الأمر بالطبع، وتواصل لسنوات بعد التجريم في يوم عيد العشّاق عام ١٩٨٩، ونشأت مع قصّة سلمان رشدي – تفجير المكتبات، السّكّين في قلب المترجم الياباني(*)، الرصاص في ظهر الناشر النروجي – القصّة لم تفارق تفكيرها خلال انتقالها من الطفولة إلى المراهقة، وكلّما كبرت فهمت أكثر خطر الكلمات، التهديد الذي يمكن أن تمثّله الكلمات للسلطة، وفي دول يحكمها الطُّغاة ورجال الشرطة، كل كاتب يجرؤ على التعبير عن نفسه بحُرّيّة معرّض للخطر.

برنامج "بن" لحُرّيّة الكتابة يُديره رجل يُدعى بول فاولر، وهو شاعر في أوقات فراغه، وناشط في مجال حقوق الإنسان كمهنة له، وحين أعطى أليس الوظيفة في الصيف الماضي، قال لها إن الفلسفة الضمنية في عملهم بسيطة: إحداث الكثير من الجَلَبَة، أكبر جَلَبَة ممكنة. بول له نائب بدوام كامل، هي ليندا نيكولسون، امرأة وُلدت في اليوم نفسه الذي وُلدت فيه أليس، وثلاثتهم يُشكّلون فريق عمل القسم الصغير المكرّس لإنتاج الجَلَبَة. زهاء نصف ما يقومون به يُركّز على القضايا الدولية، الحملة لإصلاح المادّة ٣٠١ من قانون العقوبات التركي، على سبيل المثال، قانون الإهانة الذي هدّد حيوات وأمن أعداد كبيرة من الكتّاب والصحافيين لإبدائهم ملاحظات نقدية حول بلدهم، وأيضاً المحاولات لإطلاق سراح كتّاب سُجنوا في أمكنة عدّة من العالم مثل بورما والصين وكوبا، والعديد منهم يعانون

*) إشارة إلى هيتوشي إيغاراشي: باحث في الأدب والتاريخ العربي والفارسي ومترجم ياباني، ترجم كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدي. بعدما أفتى آية الله الخميني بقَتْل كاتب الكتاب سلمان رشدي وكل مَنْ شارك في طباعة الكتاب، ويعلم بما يحتويه. طُعن هيتوشي حتّى الموت في مكتبه بجامعة تسكوبا، وذلك في ١١ يوليو ١٩٩١.

Tele: @Arab_Books

من مشكلات صحّية بسبب المعاملة القاسية و/ أو الإهمال، وبالضغط على العديد من الحكومات المسؤولة عن هذه الانتهاكات للقانون الدولي، كاشفين هذه القصص أمام الصحافة العالمية، وتوزيع العرائض الموقّعة من قِبَل مئات الكتّاب المشهورين، "بن" نجحت كثيراً في إحراج تلك الحكومات، لكي تُطلق سراح المعتقلين، ليس بالقدر الذي يودّونه، ولكنْ، بما يكفي لمعرفة أن هذه السُّبُل تُفلح، بما يكفي للاستمرار في المحاولة، وفي الكثير من الحالات لمواصلة المحاولة لسنوات. النصف الثاني من العمل متعلّق بالقضايا الداخلية: منع الكُتُب في المدارس والمكتبات على سبيل المثال، أو الحملة المتواصلة للحُرّيّة العلمية، التي أطلقتْها "بن" عام ٢٠٠٤ ردّاً على قانون الوطنية الذي أصدرتْه إدارة بوش، والذي أعطى الحكومة الأمريكية سلطة غير مسبوقة لمراقبة أنشطة المواطنين الأمريكيين وجَمْع المعلومات حول علاقاتهم الشخصية، وعادات القراءة لديهم وآرائهم. في التقرير الذي ساعدت أليس بول على وَضْعه ليس بعد وقت طويل من بدئها العمل، طالبت "بن" بالآتي: توسيع الضمانات التي تحمي المكتبات والسجلات المكتبية التي أضعفها قانون الوطنية، الكفّ عن استعمال رسائل الأمن القومي؛ الحدّ من برامج الاستقصاء السّرّيّ؛ إقفال معتقل غوانتانامو والسُّجون السّرّيّة الأخرى المتبقّيةكلها؛ إنهاء التعذيب، والاعتقال التعسّفي، ونقل المعتقلين عبر البلدان؛ توسيع برامج إعادة توطين اللاجئين بالنسبة إلى الكتّاب العراقيين المُعرّضين للخطر. في يوم توظيفها، أخبرها بول وليندا ألا تقلق من صوت التكتكة الذي يمكن أن تسمعه لدى استعمال الهاتف. فالخطوط الهاتفية في "بن" مراقبة، وكلا الحكومتَيْن الأمريكية والصينية تسلّلتا إلى حواسيبهم.

إنه يوم الاثنين الأوّل في العام الجديد، الخامس من يناير، وقد وصلت إلى مانهاتن، لكي تبدأ دورة عمل جديدة من خمس ساعات في مقرّ

Tele: @Arab_Books

المنظّمة. وستعمل من التاسعة صباحاً وحتّى الثانية ظهراً، ثمّ ستعود إلى صانست بارك، وتعمل ساعات إضافية على أطروحتها، مُجبرة نفسها على الجلوس إلى مكتبها حتّى السادسة والنصف، محاولة إضافة فقرة أو اثنتَيْن عن "أحلى أيّام عمرنا". السادسة والنصف هو الوقت الذي اتّفقت ومايلز على الالتقاء فيه في المطبخ، ليبدآ بإعداد العشاء. سوف يطهوان معاً للمرّة الأولى منذ عودة بيلار إلى فلوريدا، وهي تتطلّع قُدُماً لذلك، لأن تكون وحدها مع السنيور هيلر لبعض الوقت، لأن هيلر أثبت أنه مثير تماماً للاهتمام، مثلما أعلن بينغ، وهي تستمتع بالوقت الذي تمضيه بجواره، بالتّحدّث إليه، بمشاهدته وهو يتحرّك. لم تقع في غرامه على نحو ما فعلت المسكينة إيلين، لم تفقد رأسها أو تلعن البريئة بيلار سانشيز لسرقة قلبه، وتجد من الصعوبة أن تتذكّر كيف كانت الأمور في المنزل قبل أن ينتقل إليه. للّيلة الرابعة على التوالي لن يأتي جايك، ويؤلمها أن تدرك أنها مسرورة بذلك.

ما تزال تفكّر بجايك، بينما تخرج من المصعد في الطابق الثالث، متسائلة ما إذا كانت قد جاءت أخيراً اللحظة لإنهاء علاقته بها أم إذا أنها ستتريّث لبعض الوقت، حتّى تغدو الباوندات الأربعة التي فقدتْها في ديسمبر ثمانية، أو اثنا عشر باونداً، أيّ قدر يتطلّبها الأمر قبل أن تبدأ بعدّ الباوندات؟ بول جالس في مكتبه، يتكلّم إلى أحدهم عبر الهاتف، ويلوّح لها من الطرف الآخر من الواجهة الزجاجية التي تفصل مكتبه عن الغرفة الخارجية، حيث يقع مكتبها الصغير الفوضوي، حيث تجلس الآن، وتشغّل حاسوبها. ليندا تأتي بعد ذلك بدقيقَتَيْن، وجنتاها متضرّجتان من الطقس الصباحي البارد، وقبل أن تخلع معطفها، وتبدأ بالعمل، تقترب من أليس، وتطبع قُبلة كبيرة على خَدّها الأيسر، وتتمنّى لها عاماً سعيداً.

بول يُصدر صوت نخر من مكتبه، صوت يمكن أن يؤشّر إلى المفاجأة

Tele: @Arab_Books

أو خيبة الأمل أو الامتعاض، لا شيء واضحاً، غالباً ما يُصدر بول أصواتاً مُربِكَة بعد أن يُقفل سمّاعة الهاتف، وبينما تلتفت أليس وليندا للنَّظَر عبر الواجهة الزجاجية السميكة، يكون بول واقفاً على قَدَمَيْه، ويتّجه نحوهما. ثمّة تطوُّر جديد. في الحادي والثلاثين من ديسمبر، سمحت السلطات الصينية لزوجة لو كسيابو بزيارته. هذه هي قضيّتهم الجديدة، القضية الأكثر إلحاحاً في الوقت الراهن، ولا مرّة منذ اعتقاله في بداية ديسمبر عملوا على شيء آخر. بول وليندا متشائم بالمستقبل القريب، كلاهما واثق من أن مكتب الأمن العام في بكّين سوف يعتقل لو حتّى جمع أدلّة كافية ضدّه للقيام باعتقال رسمي بتُهمة الحضّ على تخريب سلطة الدولة، وهو ما يمكن أن يزجّ به في السجن لخمسة عشر عاماً. التهمة: المشاركة في كتابة وثيقة تُدعى "الفصل صفر ثمانية"، إعلان يدعو إلى الإصلاح السياسي، وحقوق إنسان أكبر، ونهاية حكم الحزب الواحد في الصين.

بدأ لو كسيابو كناقد أدبي، وبروفسور في جامعة بجين الطبيعية، شخصية مهمّة بما فيه الكفاية، لكي يتمكّن من العمل كأستاذ زائر في عدد من المنظّمات الأجنبية، ولاسيما جامعة أوسلو وجامعة كولومبيا في نيويورك، وجامعة كولومبيا التي تدرس فيها أليس، المكان الذي تسعى للحصول على دكتوراه منه، ونشاط لو يعود إلى العام ١٩٨٩، سيّد الأعوام، عام سقوط جدار برلين، عام الفتوى، عام ميدان تيانمين، وفي ذلك الحين بالضبط، في ربيع ١٩٨٩، استقال لو من عمله في كولومبيا، وعاد إلى بجين، حيث قام بإضراب عن الطعام في ميدان تيانمين دَعْماً للطَّلَبَة، وتأييداً للوسائل اللاعنفية لمَنْع المزيد من سَفْك الدماء. أمضى عامَيْن في السجن لهذا السبب، ثمّ، في العام ١٩٩٦، حكم عليه بثلاث سنوات من إعادة التثقيف من خلال العمل لاقتراحه أن تقوم الحكومة الصينية بفَتْح النقاش مع الدالاي لاما من التيبت. وقد تبع ذلك المزيد من المضايقات،

Tele: @Arab_Books

وكان يعيش مُراقَباً من الشرطة منذ ذلك الحين. اعتقاله الأخير حصل في الثامن من ديسمبر ٢٠٠٨، بالتزامن أو دون تزامن مع الذكرى السادسة عشرة للإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وهو معتقل في مكان غير محدّد، دون محام، ولا موادّ كتابة، ولا طريقة تواصل مع أحد. هل زيارة زوجته على رأس السنة تشير إلى تحوُّل مهمّ؟ أم أنه عمل صغير فارغ من أعمال الرحمة التي لن يكون لها تأثير على ما ستؤول إليه القضية؟

أمضت أليس فترة الصباح وبداية بعد الظهر في كتابة رسائل البريد الإلكتروني إلى مراكز "بن" حول العالم، حاثّة على الدَّعْم للاحتجاج الضخم الذي يريد بول إطلاقه دفاعاً عن ليو. تعمل بحماسة مُدرَكَة أن رجالاً مثل ليو كسيباو هم حجر أساس الإنسانية، أن رجالاً أو نسوة قلّة شجعان، بما فيه الكفاية للوقوف والمخاطرة بحياتهم من أجل الآخرين، ومقارنة به نحن البقية لا شيء، نمشي في سلاسل ضعفنا، ولامبالاتنا، وامتثالنا البليد، وحين يكون رجل كهذا على وشك أن يُضحَّى به لإيمانه بالآخرين، فعلى الآخرين أن يفعلوا كلّ ما في وسعهم لإنقاذه، ومع أن أليس تشتاط غضباً، وهي تعمل، فإنها تعمل بنوع من اليأس أيضاً، شاعرة بلا جدوى الجهد الذي سيبذلونه، مستشعرة أنه مهما بلغت النقمة، فإنها لن تُغيّر خطط السلطات الصينية، وحتّى لو تمكّنت "بن" من تحريض مليون شخص، لكي يقرعوا الطبول في أنحاء المعمورة، فالحظّ قليل بأن هذه الطبول ستُسمَع.

تتخلّى عن الغداء، وتعمل مباشرة حتّى وقت مغادرتها، وحين تخرج من المبنى، وتتّجه إلى قطار الأنفاق، تكون ما تزال تحت تأثير قضية لو، محاولة تصوُّر طريقة لتفسير زيارة زوجته له عشية رأس السنة، الليلة نفسها التي أمضتْها مع جايك وعدد من أصدقائهما في غربي مانهاتن، الجميع يتبادلون القُبل عند منتصف الليل، تقليد سخيف، ولكنها استمتعت به

Tele: @Arab_Books

على أيّة حال، إذ تحبّ أن يُقبّلها الجميع، وتتساءل الآن، وهي تهبط الدرج إلى قطار الأنفاق، إذا كانت الشرطة الصينية سمحت لزوجته بالبقاء معه حتّى منتصف الليل، وإذا فعلوا ذلك، ما إذا كانت وزوجها تبادلا القُبل عن الثانية عشرة، على افتراض السماح لهما أساساً بأيّ قُبل، وإذا سمح لهما، فكيف يكون تقبيل زوجكِ في ظلّ هذه الظروف بوجود شرطيّ يراقبكما، ولا ضمانة بأنكِ سترينه ثانية.

عادة، تحمل كتاباً لتقرأه في قطار الأنفاق، ولكنها نامت أكثر نصف ساعة هذا الصباح، وفي عجالتها للخروج من البيت على الوقت للوصول إلى العمل، نسيت أن تُحضر كتاباً. ولأن القطار شبه فارغ في الثانية والربع بعد الظهر، ليس ثمّة ما يكفي من الناس على متنه، لكي تُمضي الأربعين دقيقة في تأمّل الركّاب الآخرين، وهي تزجية نيويوركية مُفضّلة للوقت، خاصّة بالنسبة إلى شخص منتقل إلى نيويورك، وهو في الأصل من وسط الغرب، وفي غياب ما تقرؤه والوجوه الكافية لتنظر إليها، فإنها تُخرج من حقيبة يدها دفتراً، وتبدأ بتدوين الملحوظات حول الفقرة التي تنوي كتابتها حين تصل إلى البيت. ليس فقط أن الجنود العائدين كانوا غرباء عن زوجاتهم، سوف تُناقش، ولكنهم ما عادوا يعرفون كيف يتكلّمون مع أبنائهم. ثمّ مشهد في بداية الفيلم يحدّد إيقاع هذه الهوّة بين الأجيال، وهذا ما تنوي معالجته اليوم، ذلك المشهد بالتحديد، والذي يعرض فيه فردريك مارش على ابنه طالب الثانوية ميداليات الحرب التي حصل عليها، سيف ساموراي وراية يابانية، وتجد من غير المتوقّع، ولكنْ، المناسب تماماً أن الصبي لا يُبدي اهتماماً بهذه الأشياء، أنه يُفضِّل التّكلّم على هيروشيما، واحتمال الانفجار النووي أكثر من الهدايا التي قدّمها له والده. عقله مُنصبّ سَلَفَاً على المستقبل، الحرب التالية، وكأن الحرب التي وقعت للتّوّ باتت في الماضي البعيد، وبالتالي لا يسأل والده أيّ أسئلة، ليس

Tele: @Arab_Books

فضولياً بما فيه الكفاية، ليعرف كيفية الحصول على هذه التذكارات، ومشهد يتوقّع فيه المرء أن يرغب الولد بسماع والده يتكلّم على مغامراته في ساحات الوغى، ينتهي بالصبي وقد نسي أن يأخذ السيف والراية معه حين يخرج من الغرفة. الأب ليس بطلاً بنَظَر ابنه – إنه شخص مُحَالٌ على التقاعد من عصر غابر. بعد قليل، عندما يكون مارش وميرنا لوي وحدهما في الغرفة، يلتفت إليها قائلاً: هذا رهيب. لوي: ما هو؟ مارش: الشباب! لوي: ألم تقابل أيّ شباب في الجيش؟ مارش: لا. كانوا جميعاً رجالاً مُسنّين مثلي.

مايلز هيلر مُسنّ. تخطر ببالها الفكرة من العَدَم، ولكنْ، ما إن تدخل عقلها، حتّى تعرف أنها اكتشفت حقيقة جوهرية، الشيء الذي يفصله عن جايك باوم وبينغ ناثان وكل الشّبّان الآخرين الذين تعرفهم، جيل الفتية المتكلّمين، صفّ الثرثرة من العام ٢٠٠٩، في حين أن السنيور هيلر يكاد لا يقول شيئاً، غير قادر على إجراء حديث اجتماعي، ويرفض مشاركة أسراره مع أحد. مايلز كان في حرب، وكل الجنود عجائز في الوقت الذي عادوا فيه إلى الحرب، رجال مُقفلين، لا يتكلّمون على المعارك التي خاضوها. أيّ حرب ذهب إليها مايلز هيلر، تتساءل، أيّ حركة رآها، كم من الوقت مضى على رحيله؟ من المستحيل معرفة ذلك، ولكنْ، لا ريب في أنه أُصيب، أنه يتنقّل بجرح داخلي، لن يُشفى أبداً، وربّما هذا هو سبب احترامها له إلى هذا الحدّ، لأنه متألم، ولا يقول شيئاً عن ذلك. بينغ يتشدّق، وجايك يتأوّه، ولكنّ مايلز يُمسك لسانه. ليس واضحاً لها حتّى ما الذي يفعله في صانست بارك. ذات يوم مبكر الشهر الماضي، بعد انتقاله مباشرة، سألتْه لماذا ترك فلوريدا؟ ولكن جوابه كان غامضاً – لديّ عمل غير مُنته عليّ الاهتمام به – وهذا يمكن أن يعني أيّ شيء. أيّ عمل غير مُنته؟ ولماذا ينتقل بعيداً عن بيلار؟ من الواضح أنه مُغرَم جدّاً بالفتاة، فلماذا بحقّ الرّبّ يضطرّ إلى المجيء إلى بروكلين؟

Tele: @Arab_Books

لولا بيلار، لكانت قلقت بجدّيّة على مايلز. صحيح، من المربك بعض الشيء التّعرّف إلى شخص يافع إلى هذا الحدّ، طالبة ثانوية في سترتها الفرو الخضراء الطريفة ذات القبّعة وقفّازاتها الصوف الحمر، ولكنْ، سرعان ما زال هذا الشعور حين فهمت كم أنها لامعة الذكاء، وكم تمتلك من رباطة الجأش، وأفضل ما في الفتاة الحقيقة البسيطة في أن مايلز مخلص لها، ومن ملاحظات أليس خلال زيارة بيلار، تعتقد أنها كانت تنظر إلى ما قد يكون على الأرجح حبّاً استثنائياً، وإذا كان بمقدور مايلز أن يحبّ شخصاً على نحو ما يحبّ هذه الفتاة، فلابدّ من أن يعني ذلك أن الضرر في داخله ليس منهجياً، أن جراحه محدّدة، في مناطق محدّدة من روحه، ولا تنزف إلى أجزاء أخرى منه، وبالتالي فالظلمة التي فيه لم تعد تُقلقها كما قبل أن تعيش بيلار بينهم خلال هذه الأيّام العشرة أو الأحد عشر. كان من الصعب عليها ألا تشعر ببعض الغيرة بالطبع، وهي ترى كيف ينظر مايلز إلى محبوبته، وكيف يتكلّم معها، وكيف يلمسها، لا لأنها أرادت أن ينظر إليها بهذه الطريقة، ولكنْ، لأن جايك ما عاد يفعل ذلك، ورغم حماقة المقارنة بين جايك والسنيور هيلر، فثمّة أوقات حين لا يمكنها مَنْع نفسها من ذلك. جايك لديه عقل وموهبة وطموح، في حين أن مايلز، على الرغم من كل مزاياه العقلية والجسدية، يفتقر كُلّيّاً للطموح، يبدو راضياً تماماً بأن يُمضي أيّامه دون شغف أو هدف، ومع ذلك، فمايلز رجل، في حين أن جايك ما يزال ولداً، لأن مايلز ذهب إلى الحرب، وصار مُسنّاً. ربّما هذا يفسّر لماذا كلاهما ينفران من بعضهما إلى هذا الحدّ. حتّى في العشاء الأوّل عندما بدأ جايك يتكلّم على مقابلة رينزو ميكالسون، أحسّت أن مايلز موشك على لَكْمه، أو سَكْب الشراب على رأسه. مَنْ يعرف لماذا استفزّ مايكلسون ردّة الفعل هذه، ولكنّ الضغينة استمرّت - إلى درجة أن مايلز بالكاد يكون في البيت حين يأتي جايك للعشاء. جايك يواصل الضغط

Tele: @Arab_Books

على بينغ لمساعدته في تدبير لقاء مع مايكلسون، ولكن بينغ يخيب رجاءه دوماً، قائلاً إن مايكلسون شخص حرون متوحّد، والطريقة الفضلى لذلك هي انتظار أن يأتي إلى المتجر ثانية لتنظيف طابعته. أليس يمكنها على الأرجح تدبير الأمر، لو أرادت. فمايكلسون هو عضو منذ زمن طويل في بن، ونائب سابق لرئيس المنظّمة، وله صلة خاصّة ببرنامج حُرّيّة الكتابة، وقد تكلّمت إليه عبر الهاتف الأسبوع الماضي حول قضية ليو كسيابو. يمكنها بسهولة الاتّصال به في الغد، وسؤاله إن كان لديه الوقت للتّكلّم إلى صاحبها، ولكنها لا تريد أن تفعل ذلك. جايك طعنها في الظهر، وليست مستعدّة لتقديم أيّ خدمات له.

تعود إلى البيت الفارغ بُعيد الثالثة تماماً. بحلول الثالثة والنصف تكون جالسة إلى مكتبها، تطبع ملاحظاتها حول حوار الأب وابنه في "أحلى أيّام عمرنا". عند الثالثة وخمسين دقيقة، يقرع أحدهم الباب. تنهض أليس، وتذهب إلى الأسفل لترى مَنْ. حين تفتح الباب، تجد رجلاً طويلاً مترهّلاً في زيّ كاكي غريب، يكشّر في وجهها، وينقر قبّعته. لديه أنف مائل ضخم، وخدّان مجدوران، وفم كبير الشَّفَتَيْن، سمات وجه مثيرة للاهتمام، تُذكّرها إلى حدّ ما بطبق من البطاطس المهروسة. كما تلاحظ، بشيء من الحزن أنه يحمل مسدّساً. حين تسأله عمّنْ يكون، يقول إنه نستور غونزاليس، مارشال مدينة نيويورك، ثمّ يسلّمها ورقة مَطوية، وثيقة ما. ما هذا؟ تسأله أليس. أمر محكمة، يقول غونزاليس. لماذا؟ تسأله، مُدّعية أنها لا تعرف. أنت تنتهكين القانون، سيّدتي. أنتِ وأصدقاؤكِ يجب أن ترحلوا من هنا.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

بينغ ناثان

مايلز قلق بشأن المال. فهو لم يكن لديه ما يكفي، والآن بعد أن أمضى زهاء أسبوعَيْن متجوّلاً في المدينة مع بيلار، متناولاً الطعام مرَّتْين في المطاعم، مشترياً لها الملابس والعطور، وتذاكر المسرح الباهظة، فإن مدّخراته تتبخّر بسرعة أكبر ممّا تخيّل. يتكلّمان على ذلك في الثالث من يناير، بعد ساعات قليلة من ركوب بيلار الحافلة المتّجهة إلى فلوريدا، بعد دقائق معدودة من ترك مايلز الرسالة المتلعثمة على مجيب أمّه الآلي، وبينغ يقول إن ثمّة حلاً بسيطاً للمشكلة إذا كان مستعداً لأن يقبل عرضه. يحتاج إلى المساعدة في مستشفى الأشياء التالفة. فرقة "موب رول" عثرت أخيراً على وكيل عروض وسوف تكون خارج المدينة لأسبوعَيْن منذ نهاية يناير ولأسبوعَيْن آخرين في فبراير، حيث ستعزف في جامعة ولاية نيويورك وبنسلفانيا، ولا يمكنه تحمّل كلفة إغلاق متجره خلال ابتعاده. يمكنه أن يعلّم مايلز تأطير الصور، وتنظيف الطابعات وإصلاحها، وتصليح كل ما يرغب الزبائن في إصلاحه، وإذا وافق مايلز على العمل بدوام كامل بهذا المقدار من الدولارات بالساعة، فيمكنهما استلحاق الأعمال غير المنتهية التي تراكمت خلال الشهور القليلة الماضية، ويمكن لبينغ الخروج مبكراً، لكي يتمرّن مع فرقته، كلّما رغب في ذلك، وكلّما كانت فرقته مسافرة سوف يكون هو المسؤول عن المحلّ. يستطيع بينغ أن يغطي راتباً إضافياً الآن بسبب المال الذي وفّره من خلال العيش بلا إيجار في صانست بارك خلال الشهور الخمسة الماضية، ثمّ – فوق هذا كله – يبدو أن موب رول

Tele: @Arab_Books

سوف تحقّق ربحاً، يفوق ما حقّقته في كل تاريخها. ما رأي مايلز؟ مايلز ينظر إلى حذائه، ويقلّب الاقتراح في تفكيره لبضع ثوان، ثمّ يرفع رأسه، ويقول إنه موافق، وإن العمل في المستشفى سيكون أفضل من تمضية الأيّام متسكّعاً في المقبرة، وملتقطاً الصور الفوتوغرافية، وقبل أن يخرج، لكي يتبضّع من أجل الغداء، يشكر بينغ على إنقاذه ثانية.

ما لا يفهمه مايلز هو أن تشارلز بينغهام ناثان يمكن أن يفعل كلّ شيء من أجله، وحتّى لو أنه رفض العرض الذي قدّمه له لقاء ذلك الأجر بالساعة، فكان ليسرّ بأن يسلفه قدر ما يريد من المال، دون إلزام بردّ المبلغ قبل نهاية القرن الثاني والعشرين. يعرف أن مايلز ليس إلا نصف شخص، أن حياته قد بُترت، ولن تصلح ثانية بالكامل، ولكنّ النصف المتبقّي منه أكثر إقناعاً من أيّ جزأيْن مكتملَيْن من أيّ شخص آخر. وقد بدأ ذلك حين التقيا قبل اثنَي عشر عاماً، في الخريف الذي تلا مباشرة موت شقيق مايلز، وكان الأخير قد بلغ السادسة عشرة للتّوّ، وبينغ يكبره بعام واحد، الأوّل يمضي في طريق الفتى الألمعي في سوتيفسانت، والثاني يدرس الموسيقى في لاغوارديا، وكلاهما حانق وجد قضيّته المشتركة مع الآخر متمثّلة في ازدراء نفاق الحياة الأمريكية، وكان مايلز مَنْ علمه قيمة المقاومة، وكيف من الممكن رفض المشاركة في الألعاب عديمة المعنى التي يطالبهما المجتمع بلعبها، وبينغ يعرف أن الكثير ممّا صار إليه خلال السنوات التي تلت ذلك كانت نتيجة مباشرة لتأثير مايلز عليه. إلا أن الأمر كان أكثر ممّا قاله مايلز، أكثر من مئات الملاحظات الحادّة التي أطلقها حول السياسة والاقتصاد، الوضوح الذي فكّك به النظام، بل كان ما قاله مايلز بالتوافق مع من هو مايلز، وكيف بدا أنه يجسّد الأفكار التي يؤمن بها، عظم تحمّله، الصبي المثقل بالحزن، والذي لا أوهام لديه، ولا آمال زائفة، وحتّى لو لم يغدوا صديقَيْن مقرَّبَيْن، فإنه يشكّ أن ثمّة بين أبناء جيله مَنْ يُقدّره أكثر ممّا يُقدِّر مايلز.

Tele: @Arab_Books

ولم يكن الوحيد الذي لديه هذا الإحساس. فبقدر ما يمكنه العودة إلى الوراء والتّذكّر، بدا مايلز مختلفاً عن الجميع، أنه يمتلك قوّة جاذبية حيوانية، غيّرت الأجواء، كلّما دخل إلى غرفة ما. أكانت قوّة صمته التي جعلتْه يجذب إليه هذا القدر من الاهتمام، تلك الطبيعة المنطوية الغامضة لشخصيّته التي حوّلتْه إلى نوع من المرآة، يعكس عليها الآخرون ذواتهم، ذلك الإحساس الغريب بأنه موجود هناك، وغير موجود، في آن معاً؟ كان ذكياً ووسيماً، أجل، ولكنْ، ليس جميع الأذكياء والوسيمين يفرزون مثل هذا السِّحْر، وحين تضيف إلى ذلك حقيقة أن الجميع يعرف أنه ابن ماري لي سوان، بل ابنها الوحيد، ربمّا هالة الشهرة ساعدت على تعزيز الشعور بأن مايلز هو واحد من المبارَكين. وقد كرهه بعضهم بالطبع، ولاسيما الفتية، ولكنْ، ولا مرّة الفتيات، ولكنْ، كيف لا يمقته الفتية، وهو يمتلك هذا الحظّ مع الفتيات، لكونه مَنْ يرغبنَ فيه؟! وحتّى الآن، بعد هذه السنوات كلها، يبدو أن لمسة هيلر السِّحْرية قد نجت من الرحلة الطويلة إلى اللامكان والعودة منها. انظر إلى أليس وإيلين. أليس تجده مثيراً للإعجاب كُلّيّاً (اقتباس مباشر منها)، وإيلين، العزيزة الصغيرة إيلين، مهووسة به.

مايلز يعيش في صانست بارك منذ شهر الآن، وبينغ سعيد بوجوده، سعيد لأن الثلاثي الهزيل، قد عاد ثانية، ليكون الرباعي الصلب، وإن كان ما يزال متحيرّاً من تغيير مايلز المفاجئ لرأيه، والمجيء إلى بروكلين. في البداية، كان الجواب بالرفض، والرسالة الطويلة التي يشرح له فيها لماذا يودّ البقاء في فلوريدا، وحين رنّ الهاتف الطارئ في المستشفى، في وقت متأخّر من يوم جمعة، في الوقت الذي كان يستعدّ فيه بينغ للإغلاق والعودة إلى المنزل في صانست بارك، ومايلز يُخبره بأن شيئاً ما قد طرأ، وأنه إذا كان المكان ما يزال متوافراً له، فسوف يكون على مَتْن الحافلة التي ستُقلّه إلى نيويورك في عطلة نهاية الأسبوع تلك. مايلز لن

Tele: @Arab_Books

يبرّر تصرّفه أبداً، بالطبع، وسوف يكون السؤال عديم الجدوى، ولكنْ، الآن وقد بات هنا، فإن بينغ متشجّع، لأن السّيّد المتجهّم القديم مستعدّ أخيراً للتصالح مع والدَيْه، ويضع حدّاً للحماقة التي يقترفها منذ زمن طويل جدّاً، أطول بكثير ممّا يلزم، وأن دوره كعميل مُزدوَج وكذّاب قد شارف على الانتهاء. لا يشعر بالذنب لخداعه مايلز. بل يشعر بالفخر بما قام به، وحين اتّصل موريس هيلر به في المستشفى صبيحة هذا اليوم سائلاً إيّاه عن آخر الأخبار، أحسّ بنوع من الانتصار حين تمكّن من أن ينقل له أن مايلز اتّصل بمكتبه، بينما كان في إنجلترا، وأنه سوف يُعاود الاتّصال يوم الاثنين، والآن قد أخبره مايلز لتوّه بأنه اتّصل بأمّه أيضاً. فالنصر يكاد يكون مكتملاً. لقد أفاق مايلز أخيراً من غيبوبته، وعلى الأرجح أنه أمر طيّب أنه مغرم ببيلار، ولو بدت هذه العلاقة غريبة بعض الشيء، بل أكثر بقليل من مقلقة في حقيقة الأمر، فهي فتاة يافعة جدّاً، آخر مَنْ يتوقّع من مايلز أن يتورّط معه، غير أنها بلا ريب ساحرة وجميلة، وتبدو أكبر من سنّها، وبالتالي فليحصل مايلز على حبيبته بيلار، وليكفّ هو عن الانشغال بهذا الأمر. الأخبار الطّيّبة تعمّ المكان، أمور إيجابية تحدث على العديد من الجبهات، ومع أنه كان شهراً صعباً عليه، أحد أكثر شهور حياته تعذيباً، وحين لم يكن يتمرّغ في ممرّات الإرباك والتشوّش الموحلة، فقد كان على شفير اليأس. بدأ الأمر لدى عودة مايلز إلى نيويورك، في اللحظة التي رأى فيها مايلز واقفاً في المتجر، ورمى ذراعَيْه حوله، وقبّله، ومنذ ذلك الحين، وجد من شبه المستحيل ألا يلمسه، ألا يرغب في لمسه. يعرف أن مايلز لا يحبّ ذلك، وأنه ينزعج من عناقاته العفوية، وتربيتاته على ظهره، وعصره لرقبته، وعصره لكتفَيْه، ولكنّ بينغ لا يمكنه مَنْع نفسه، ويعرف أنه عليه أن يتوقّف، لكنه يعجز عن ذلك، ولأنه خائف من أن يكون أُغرم بمايلز، فإنه يعيش في حال من اليأس.

Tele: @Arab_Books

يتذكّر جولة صيفية قبل أحد عشر عاماً، الصيف الذي أعقب تخرّجه في الثانوية، حيث قام ثلاثة صبية وفتاتان بتوضيب أغراضهم في سيّارة صغيرة، واتّجهوا شمالاً إلى كاتسكيلز. كان والد أحدهم يمتلك كوخاً في تلك البقعة المعزولة في قلب الغابات مع بحيرة وملعب تنس، وكان مايلز في السّيّارة مع حبيبته في ذلك الحين، وهي فتاة تُدعى آني، وكان هنالك جوف تايلور مع أحدث انتصاراته، وهي فتاة نسي اسمها، وأخيراً وليس آخراً هو، الصبي دون صاحبة، الشّابّ الغريب غير المحسوب كالعادة. وصلوا في وقت متأخّر ما بين الثانية عشرة والواحدة بعد منتصف الليل، وبسبب شعورهم بالحَرّ، وتيبّس الأعضاء بعد الرحلة الطويلة، فقد اقترح أحدهم أن يبرّدوا أنفسهم في البركة، وفجأة كان الجميع يجري إلى الماء، متجرّداً من ملابسه، وخائضاً في الماء. يتذكّر كم كان ذلك جميلاً، طرطشة الماء في ذلك المكان النائي والقمر والنجوم فوقهم، والجداجد تغنّي في الغابات، والنسيم الدافئ يهبّ على ظهره، مع متعة مشاهدة جسدَي الفتاتَيْن، آني الممشوقة الساقَيْن والمعدة المُسطّحة، والمؤخّرة ذات التضاريس الدقيقة، وصاحبة جوف، القصيرة الممتلئة، ذات النهدَيْن الكبيرَيْن، وخصل الشَّعر المتجعّدة السوداء المضفورة على كتفَيْها. ولكنها لم تكن بالمتعة الجنسية، فلم يكن من شيء إيروتيكي في ما كانوا يفعلونه، بل كان استرخاء جسدياً، متعة الإحساس بالماء والهواء على جلدكَ، أو الاسترخاء في الهواء الطلق في ليلة صيفية قائظة، أن تكون مع أصدقائكَ. كان أوّل مَنْ خرج من الماء، وبينما وقف على ضفّة البركة، رأى أن الآخرين قد تضامَوا إلى بعضهم أزواجاً، أن الزوجَيْن يقفان متعانقَيْن حتّى الصدر في الماء، وبينما شاهد مايلز وآني وقد لفّا أذرعهما حول واحدهما الآخر، والتصقت أفواههما في قُبلة طويلة، خطرت له الفكرة الأغرب، شيء أخذه كُلّيّاً على حين غرّة .. كانت آني، بلا ريب، فتاة جميلة، واحدة من أجمل الفتيات

Tele: @Arab_Books

اللواتي التقاهنّ، ومنطق الوَضْع تطلّب أن يشعر بالغيرة من مايلز لحصوله على مثل هذه الفتاة الجميلة بين ذراعَيْه، لكونه جذّاباً بما فيه الكفاية، ليظفر بإعجاب كائن مرغوب به كهذا، ولكنْ، بينما أخذ يتفرّج عليهما، يقبّلان بعضهما في الماء، فهم أن الغيرة التي أحسّ بها كانت موجّهة نحو آني، لا مايلز، وأنه رغب في أن يكون في مكان آني، وأن يكون هو مَنْ يُقبّل مايلز. بعد لحظات، بدؤوا بالسير على طرف البركة، يمشيان مباشرة نحوه، وبينما برز جسد مايلز من الماء، رأى أنه لديه انتصاب، انتصاب ضخم مكتمل، ومنظر العضو المنتصب أثاره على نحو، لم يكن يحسبه ممكناً، وقبل أن يلامس مايلز اليابسة، كان بينغ قد انتصب هو الآخر، تحوُّل في الأحداث بَلْبَلَهُ بشدّة، بحيث إنه جرى عائداً إلى البحيرة، وغطس عميقاً، لكي يخفي حَرَجَهُ.

كَبَتَ ذكرى تلك الليلة لسنوات، ولم يعد إليها حتّى في أكثر ركن خصوصية من مخيّلته، ولكنّ مايلز عاد ومعه عادت الذكرى، وخلال الشهر الماضي، كان بينغ يستعيد ذلك المشهد في رأسه خمس مرّات في اليوم، عشر مرّات، وبحلول هذا الوقت، ما عاد يعرف ما أو مَنْ هو. أيكون تجاوبه مع ذلك الانتصاب على ضوء القمر قبل أحد عشر عاماً يعني أنه يُفضِّل الرجال على النساء، أنه أكثر انجذاباً إلى الأجساد الذُّكُورية من الأنثوية؟ وإن كان الأمر كذلك، أيمكن أن يكون هذا سبب سلسلة إخفاقاته مع النساء على مرّ السنين؟ لا يعرف الجواب. الشيء الوحيد الذي يمكنه قوله بقدر ما من اليقين هو أنه ينجذب نحو مايلز، وأنه يفكّر بجسده، وبذلك الانتصاب كلّما كان برفقته، وهذا ما يحدث كثيراً، وأنه يفكّر في لمس جسد مايلز، وبذلك الانتصاب كلّما لم يكن معه، وهو ما يحدث أكثر، ومع ذلك، فإن التّصرّف انطلاقاً من هذه الرغبات سيكون خطأً جسيماً، خطأً قد يؤدّي إلى أشنع العواقب، ذلك أن مايلز لا رغبة لديه بالرجال الآخرين، وإن اقترح

Tele: @Arab_Books

بينغ مثل هذا الاحتمال، ولو همساً في كلمة واحدة ما يفكّر به، فسيخسر صداقة مايلز إلى الأبد، وهو أمر لا يريده على الإطلاق.

مايلز محظور، مُعار دوماً لعالم النساء. ولكنّ القوّة المعذّبة لذلك الانتصاب دفعت بينغ للتفكير في خيارات أخرى، التفكير في البحث عن أمكنة أخرى، لكي يُشبع فضوله، ذلك أنه على الرغم من أن مايلز هو الرجل الوحيد الذي يشتهيه، فإنه يتساءل ما إذا كان الوقت قد حان لكي يختبر مع رجال آخرين، وهي الطريقة الوحيدة التي سيكتشف من خلالها ميوله – رجل خُلق للرجال، أم للنساء، أم لكلَيْهما، أم رجل خُلق وحده فحسب. المشكلة هي أين يبحث. كل أعضاء فرقته متزوّجون، أو يعيشون مع صاحباتهم، وليس لديه صديق لوطيّ، يمكنه التفكير به، وفكرة البحث عن أحد في حانات اللوطيّين لا تلقى حماسة في نفسه. فكّر في جايك باوم بضع مرّات، واضعاً خططاً عدّة حول كيف ومتى يتقرّب منه، من دون أن يكشف أوراقه؛ ويُعرّض نفسه للإذلال في حال الرَّفْض، ولكنه يظنّ أن ثمّة ناحية غامضة في صاحب أليس، وحتّى لو كان مع امرأة الآن، فمن المحتمل أنه كان مع رجال في الماضي، وليس منيعاً ضدّ مفاتن الحبّ الذُّكُوري. بينغ يأسف لكونه ليس أكثر جاذبية بالنسبة لجايك، ولكنْ، في خضم اكتشافه العلمي لذاته قد يكون مستعدّاً لأن يجرّب معه، ليرى إذا كان لديه أيّ نزوع كهذا. غير أنه لم يفعل شيئاً بعد، ذلك أنه في اللحظة التي كان يستعدّ فيها لمدالسة باوم لممارسة الجنس معه من خلال وعده بتدبير مقابلة مع رينزو ميكالسون (ربمّا لا تكون الفكرة الأقوى، ولكنْ، كان من الصعب العثور على فكرة أخرى)، طلبت منه إيلين أن يتموضع لها، وسعيه إلى المعرفة تعطّل مؤقّتاً.

لا فكرة لديه عمّا هما مقبلان عليه. يحسّ أنه شيء منحرف، ولكنه

Tele: @Arab_Books

في الوقت نفسه أمر بريء، وبلا خطر. عهد صامت إلى حدّ ما، تفاهم متبادل، يسمح لهما بمشاركة وحدتهما وإحباطهما، ولكن، حتّى حين اقتربا من بعضهما في ذلك الصمت، ما يزال وحيداً ومُحبَطاً، ويحسّ أن إيلين ليست بأفضل حالاً منه. هي ترسم وهو يعزف على الطبول. لطالما كان العزف طريقته في الصراخ، ورسومات إيلين الجديدة تحوّلت إلى صراخ أيضاً. ينضو عنه ملابسه من أجلها، ويفعل كلّ ما تطلبه منه. لا يعرف لماذا يشعر بهذا القدر من الارتياح معها، بهذا القدر من اللاتهديد من نظراتها، ولكنّ التّبرّع بجسده لقضية الفنّ هو تضحية لا تُذكَر، في نهاية المطاف، وهو ينوي الاستمرار في القيام به حتّى تطلب منه التّوقّف عن ذلك. يوم الأحد، في الرابع من يناير، أمضى ثماني ساعات مع مايلز في مستشفى الأشياء التالفة، مُقدِّماً له أوّل الدروس في العمل الدقيق المتطلّب عناية خاصّة، عمل تأطير الصور، مُعرّفاً إيّاه على آليات عمل الطابعات اليدوية، وعلى الموادّ والأدوات في الغرفة الخلفية من المتجر الصغير. وفي صباح اليوم التالي، الاثنين، الخامس من يناير، يعودان للمزيد من ذلك، ولكنْ، هذه المرّة يبدو مايلز قلقاً، وحين يسأله بينغ ما الخطب، يُخبره مايلز بأنه اتّصل للتّوّ بمكتب والده، وقيل له إنه عاد إلى إنجلترا يوم أمس لأمر طارئ، وهو قلق من أن يكون ذلك مرتبط بزوجة أبيه. بينغ هو الآخر قلق ومشدوه أيضاً بهذه الأنباء، ولكنه لا يستطيع التعبير عن مدى قلقه أمام ابن موريس هيلر، ولا أن يُخبره بأنه تكلّم إلى موريس هيلر قبل ٤٨ ساعة فقط، وأنه لم يبد حينئذ أن ثمّة خطباً ما. يعملان بثبات حتّى الخامسة والنصف، وحينئذ يقول مايلز له بأنه يريد أن يُجرّب ثانية الاتّصال بأمّه، وبينغ ينسحب احتراماً إلى حانة في الشارع، متفهّماً أن اتّصالاً كهذا يتطلّب خصوصية تامّة. بعد خمس عشرة دقيقة، يدخل مايلز إلى الحانة، ويقول له إنه اتّفق وأمّه على اللقاء على العشاء ليلة غد. ثمّة مئة سؤال يرغب بينغ في طرحها،

Tele: @Arab_Books

لكنه يكتفي بواحد: كيف بدت؟ جيّدة جدّاً، يجيب مايلز، وصفتْه بأشنع الصفات: سافل عديم النفع، معتوه، جبان متعفّن، ولكنها بكت بعدئذ، كلاهما بكى، وبعد ذلك، غدا صوتها دافئاً وعاطفياً، وتكلّمت معه بلطف أكبر ممّا يستحقّ، وسماع صوتها ثانية بعد كل هذه السنوات كان يفوق احتماله. يندم على كلّ شيء، يقول، ويظنّ أنه أحمق شخص في العالم. لو كان ثمّة أيّ عَدْل في العالم، فيجب اقتياده إلى العراء، وإعدامه بالرصاص.

لم يرَ بينغ مايلز مبتئساً على هذا النحو كما يراه الآن. لبضع ثوان، يفكّر أن مايلز قد ينفجر بالبكاء، وناسياً تعهده بأنه لن يلمسه ثانية، يحيط صديقه بذراعَيْه، ويشدّه إليه. ابتهجْ، أيّها السافل، يقول له، على الأقلّ، أنت تعرف أنك أغبى مَنْ عاش يوماً. كم شخصاً يتمتّعون بالذكاء الكافي للاعتراف بذلك؟ يستقلان الحافلة عائدَيْن إلى صانسِت بارك، ويدخلان إلى البيت قبل دقيقَتَيْن من السادسة والنصف، قبل دقيقَتَيْن من موعد مايلز مع أليس في المطبخ. كما هو متوقّع، أليس جاهزة هناك، كما هي إيلين، وكلاهما جالس إلى الطاولة، لا تحضران الطعام، ولا تفعلان شيئاً سوى النَّظَر في عينَي واحدتهما الأخرى. أليس تربّت يد إيلين اليمنى، ويد إيلين اليسرى تربّت وجه أليس، وكلتاهما يبدو مبتئساً. ما الخطب؟ يسأل بينغ. هذا، تقول أليس، ثمّ تسلّمه ورقة.

كان بينغ يترقّب هذه الورقة منذ يوم انتقالهم إلى الشّقّة في أغسطس الماضي. عرف أنها ستأتي، وعرف ماذا سيفعل حين تأتي، وهو بالتحديد ما يفعله الآن. من دون حتّى أن يتجشّم عناء قراءة أمر المحكمة بإخلاء الشّقّة، يمزّق الورقة مرّة ومرّتَيْن، ثمّ مرّة ثالثة، ثمّ يرمي القصاصات الثماني على الأرض.

لا تقلقوا، يقول، هذا لا يعني شيئاً. لقد اكتشفوا أننا هنا، ولكن إخراجنا

سيتطلّب أكثر من مجرّد ورقة خرقاء. أعرف كيف تمضي هذه المسائل. لقد أعطونا إشعاراً، والآن سينسون أمرنا لبعض الوقت. بعد شهر أو نحوه سوف يأتون بإشعار آخر، وسوف نمزّقه، ونرميه أرضاً ثانية، ومرّة بعد مرّة بعد مرّة رابعة ربمّا. لن يفعل لنا مارشالات البلدية شيئاً. لا يريدون المتاعب. مهمّتهم هي تسليم الإشعار، وهذا كل ما في الأمر. ليس علينا أن نقلق حتّى يأتوا مع رجال الشرطة. حينئذ يغدو الأمر جدّيّاً، ولكننا لن نرى أيّ رجال شرطة هنا قبل وقت طويل – إن رأيناهم في المقام الأوّل. إننا أهداف صغيرة، ورجال الشرطة لديهم أمور أهمّ من مجرّد أربعة أشخاص هادئين، يعيشون في منزل صغير هادئ في حيّ هادئ تافه. لا تذعروا. ربمّا نضطرّ إلى الرحيل يوماً ما، لكنْ، ليس اليوم، وحتّى يظهر رجال الشرطة، فإنني لن أتخلّى عن إنش من البيت وحتّى حين يأتون، فسيُضطرّون إلى ضربي على رأسي وجَرّي خارج البيت مُكبّلاً بالأصفاد. البيت لنا الآن، وأُفضِّل الدخول إلى السجن على التخلّي عن حقّي بالعيش هنا.

هذه هي المعنويات، يقول مايلز.

إذن، أنتَ معي؟ يسأله بينغ.

بالطبع، يجيب مايلز، رافعاً يده اليمنى في الهواء، وكأنه يُدلي بقَسَم. الشيف مايلز لن يتزحزح من الخيمة.

وأنتِ، إيلين؟ أتودّين الرحيل؟ أم البقاء؟

سأبقى، تقول إيلين.

وأنتِ، أليس؟

سأبقى.

Tele: @Arab_Books

ماري لي سوان

سيمون غادر ليلة البارحة عائداً إلى لوس أنجليس لكي يدرّس صفّ تاريخ السينما، وهكذا تبدأ مشقّات المجيء والرحيل، المسكين سيتنقّل جيئة وذهاباً عبر البلاد كل أسبوع طوال الشهور الثلاثة التالية، السَّفَر الوحشيّ، فارق التوقيت، الثياب المتعرّقة، والقَدَمان المتورّمَتان، الهواء الرهيب في المقصورة، الهواء الاصطناعي، ثلاثة أيّام في لوس أنجليس وأربعة في نيويورك، وهذا كله لقاء الملاليم التي يدفعونها له، ولكنه يؤكّد أنه يستمتع بالتعليم، وبالتأكيد من الأفضل له أن يبقى مشغولاً، أن يفعل شيئاً بدلاً من لا شيء، ولكن التوقيت ما كان ليكون أسوأ، فكم تحتاج إليه الآن بجانبها، وكم تكره النوم وحيدة، وهذا الدور، شخصية ويني، شديد الصعوبة والإرهاق، وتخشى ألا تتمكّن من الارتقاء إلى مستواه، تخاف من السقوط، وأن تغدو مَضْحَكَة الناس، نوبات التّوتّر، ألم المعدة الذي يسبق ارتفاع الستارة، وأنىّ لها أن تعرف أن الإيميت هي النملة، مرادف أثريّ للنملة، من الأطرف قول إيميت بدلاً من نملة، صحيح، لا ريب في أنه أطرف، أو على الأقلّ غير مُتوقَّع، وبالتالي غريب، إيميت! وهو ما يؤدّي إلى الكلمة الوحيدة التي يلفظها ويلي، النملان، مَسْخَرَة للغاية، بحيث تحسبه يُخطئ في لفظ كلمة فحشاء، ولكنها يجب أن تستخرج معنى هذه الكلمة من القاموس أيضاً قبل أن تفهم النكتة، وخز في الجسد يشبه ذلك الذي يُحدثه زحف النمل على الجسد، و"فريد" يلفظ الكلمة بصورة رائعة، إنه جيّد في دور ويلي، وروحه في العمل جيّدة أيضاً، ويا لجمال قراءته

Tele: @Arab_Books

الصحيفة باكراً في المشهد الأوّل، افتتاحية للشباب الغرّ، صبيّ ألمعيّ مطلوب، تنفجر بالضحك خلال القراءة الأولى حين تلفظ بهذه الأسطر، فريد دير، الاسم نفسه الذي لإحدى شخصيات الفيلم الذي شاهدتْه مع سايمون ليلة أوّل من أمس، ذلك الذي سيعرضه في الصّفّ اليوم، "أحلى أيّام عمرنا"، فيلم كلاسيكي ممتاز، وقد كادت تختنق في النهاية، وبكت، وحين ذهبت إلى التمارين في اليوم التالي، وسألت فريد إذا كان والداه سمّياه تيمّناً بتلك الشخصية في الفيلم، ابتسم زوجها على خشبة المسرح، وقال للأسف، أيّتها المرأة العزيزة، لا، أنا ضرّاط قديم، زحف إلى هذا العالم قبل صُنع هذا الفيلم بخمس سنوات.

للأسف، أيّتها السّيّدة العزيزة. تشكّ في أنها كانت يوماً عزيزة. يمكن وصفها بكلمات أخرى كثيرة خلال الرحلة الطويلة من اليوم الأوّل وحتّى الآن، ولكنْ، ليس العزيزة، أبداً. في فترات متقطّعة لطيفة، أو محبوبة، أو طيّبة، أو غير أنانية، ولكنها لا تتمتّع غالباً بما يكفي، لتُصنَّف عزيزة.

تشتاق إلى سايمون، المكان يبدو فارغاً مُسقماً من دونه، ولكنْ، ربّما من الجيّد أنه ليس هنا الليلة، هذه الليلة فحسب، ليلة الثلاثاء في بداية يناير، الليلة السادسة من العام، لأنه في غضون ساعة، سيرنّ مايلز الجَرَسَ في الأسفل، في غضون ساعة، سيكون صاعداً إلى الشّقّة في الطابق الثالث في فرانكلين ستريت، وبعد سبع سنوات من انعدام الاتّصال بابنها (سبع سنوات ونصف السنة تحديداً)، لعلّه من الأفضل أن تراه، وتتحدّث إليه بمفردها. لا فكرة لديها عمّا سيحدث، وتجهل تماماً ما يجب أن تتوقّعه من الأمسيّة، وبسبب خوفها الشديد من أن تُلازمها هذه الحيرة، فقد ركّزت اهتمامها على العشاء، الوجبة نفسها، ماذا تقدِّم، وماذا لا تقدِّم، ولأن التمرين المسرحيّ سيستمرّ حتّى وقت متأخّر ممّا لا يمكّنها من إعداد

الوجبة بنفسها، فقد اتّصلت بمطعَمَيْن مختلفَيْن لإيصال الطعام إلى الشّقّة عند الساعة الثامنة تماماً، وقد اختارت مطعَمَيْن، لأنها بعد أن طلبت الستايك من الأوّل، ظنّاً منها أنه خيار جيّد، فالجميع يحبّ الستايك، خاصّة الرجال ذوو الشهية الصّحّيّة، بدأت تفكّر أنها ربّما اتّخذت الخيار الخطأ، أن ابنها ربّما غدا نباتياً، أو لا يحبّ الستايك، ولم ترد أن تبدأ معه بداية خاطئة من خلال إجباره على تناوُل ما لا يرغب فيه، وحتّى أسوأ، أن تُقدِّم له طعاماً، لا يمكنه تناوُله أو يرفض ذلك، وبالتالي، فقط لتكون في الجانب الآمن، اتّصلت بمطعم ثان، وطلبت طبقَيْن إضافيَّيْن، اللازانيا بلا لحم، والسلطة والخضروات الشتوية المَطْهُوَّة. والأمر نفسه بالنسبة إلى الشراب. تتذكّر أنه يحبّ الويسكي والنبيذ الأحمر، لكنْ، ربّما تكون قد تغيّرت تفضيلاته منذ المرّة الأخيرة التي رأته فيها، وبالتالي اشترت صندوقاً من النبيذ الأحمر والأبيض، وملأت خزانة الأشربة بمروحة واسعة من الخيارات: الويسكي، البوروبون، الفودكا، الجين، التكيلا، الراي، وثلاثة أنواع من الكونياك.

تفترض أن مايلز قابل والده، أنه أجرى الاتّصال بالمكتب صباح أمس مبكراً مثلما قال بينغ ناثان إنه سيفعل، وأن كلاهما تناولا العشاء معاً ليلة أمس. كانت تتوقّع أن يتّصل بها موريس اليوم، ويروي لها تفاصيل اللقاء، ولكنها لم تتلقّ أيّ كلمة منه بعد، ولم تجد أيّة رسالة على المجيب الآلي، أو الهاتف المحمول، على الرغم من أن مايلز لابدّ قد أخبره بأنه سيقابلها الليلة، بما أنها تكلّمت وإيّاه قبل موعد العشاء أمس، بكلمات أخرى، قبل أن يقابل والده، ومن الصعب تخيُّل ألا يكون الموضوع قد أُثير في لحظة ما من محادثتهما. مَنْ يعرف لماذا لم يكلّمها موريس؟ ربّما تكون الأمور مضت على نحو سيّئ ليلة البارحة، وما يزال معتكر المزاج غير قادر على مناقشة الأمر. أو ربّما ببساطة كان شديد الانشغال اليوم، في اليوم

Tele: @Arab_Books

الثاني من عودته إلى العمل بعد رحلة إنجلترا، وربّما علق في مشكلات المكتب، فدار النشر تمرّ بأوقات صعبة حالياً، ومن المحتمل حتّى إنه ما يزال في المكتب عند الساعة السابعة، يتناول الطعام الصيني الجاهز على العشاء، ويستعدّ لليلة عمل طويلة. ثمّ، أيضاً، ربمّا يكون أن مايلز لم يمتلك الجرأة، ولم يقم بالاتّصال. وهذا من غير المرجّح، بما أنه لم يتردّد في الاتّصال بها، وإن كان هذا هو أسبوع إصلاح ذات البَيْن، فإن والده هو المكان المنطقي للبدء، ذلك الذي سيقصده أوّلاً، بما أن موريس منخرط في مسألة تربيته أكثر بكثير منها، ومع ذلك، قد يكون هذا صحيحاً، وبينما لا يجدر بها أن تُعلم مايلز بما كان بينغ ناثان يقوم به طوال السنوات الماضية، فيُمكنها أن تسأله الليلة لتعرف إذا كان اتّصل بوالده أم لا. ولهذا السبب صرخت به عبر الهاتف أمس – من باب التضامن مع موريس. هو وويلا تحمّلا طويلاً ألم هذه المسألة، وحين رأتْه على العشاء ليلة السبت، بدا أكبر بكثير ممّا هو عليه، فشعره بات رمادياً، ووجنتاه أعجفَيْن، وعيناه يغشوهما الحزن، وفهمت أن عبء هذه المسألة قد أثّر به، والآن هي أكبر سنّاً وافتراضياً أكثر حكمة (وإن كان هذا موضع جدال، كما تظنّ)، فقد تأثّرت بالجَيَشَان العاطفي الذي أحسّت به تجاهه في المطعم تلك الليلة، الظلّ الشائخ للرجل الذي تزوّجتْه قبل زمن طويل، والد ابنها الوحيد، ومن أجل موريس، صرخت بمايلز، مُدّعية مشاركة غضب موريس ممّا فعله، محاولة أن تتصرّف كأمّ حقيقية، الأمّ المجروحة الناقمة، ولكن معظم ذلك كان تمثيلاً، تقريباً كل كلمة قالتْها كانت تمثيلاً، الشتائم والإهانات، ذلك أن الحقيقة هي أن حنقها من مايلز أقلّ بكثير من موريس، ولم تعش السنوات الماضية كلها شاعرة بالأسى حيال ما فعله – خائبة الأمل، أجل، ومُربَكَة، ولكنْ، غير شاعرة بالمرارة.

ليس من حقّها لها لوم مايلز على كلّ ما قام به، فقد خذلتْه بكونها

Tele: @Arab_Books

أمّاً متقطّعة الحضور غير كفؤة، وتعرف أنها أخفقت في هذا أكثر ممّا أخفقت في أيّ شيء آخر في حياتها، أكثر من الزواجَيْن الفاشلَيْن، وكل أخطائها وأفعالها السّيّئة، ولكنها لم تكن جاهزة للأمومة حين وُلد مايلز، كانت في السادسة والعشرين، إنما غير مستعدّة بعد، أكثر تشتّتاً من أن تُركّز على تربيته، مشغولة بالانتقال من المسرح إلى السينما، غاضبة من موريس، لأنه أقنعها بالولادة، ومكابدتها خلال الشهور السّتّة الأولى، لكي تُحقّق واجباتها، لتجد نفسها وقد ضجرت من الطفل، فثمّة القليل من البهجة في الاعتناء به، ولا حتّى متعة الإرضاع كانت كافية، ولا متعة النَّظَر إليه، ولا مشاهدته يُعاود التّبسّم لها، أمكنه التعويض عن المَلَل الخانق في المسألة برمّتها، البكاء الدائم، الغائط الأصفر السائل في الحفّاضات، التّقيّؤ، البكاء في منتصف الليل، الحرمان من النوم، التكرارات السخيفة، ثمّ جاء فيلم "الحالم البريء"، فبادرت إلى الفرار. وإذ تُراجع أفعالها الآن، تجدها لا تُغتَفَر، وحتّى لو أنها أحبّت الصبي لاحقاً، بعد الطلاق، بعد أن بدأ بالنُّمُوّ، فلم تكن جيّدة في ذلك، ظلّت تخذله، ولم تستطع حتّى أن تتذكّر حفل تخرّجه في الثانوية، بحقّ الرّبّ، ولكنْ، ما كانت نقطة التحوّل، الخطيئة التي لا تُغتفَر هي أنها لم تكن موجودة حينما كان يجدر بها ذلك، ومنذ ذلك الحين، غدت أكثر ميلاً إلى فعل الصواب، حاولت أن تُعوّض عن الخطايا كلها التي ارتكبتْها على مرّ السنين (عطلة نهاية الأسبوع الرائعة في بروفيدنس مع سايمون، ثلاثتهم معاً وكأنهم عائلة، كانت سعيدة جدّاً، وفخورة جدّاً بذلك الصبي)، ثمّ، بعد ستّة أشهر، اختفى. الأم تهرب، فيهرب الابن. ومن هنا دموعها عبر الهاتف أمس. صرخت به من أجل موريس، ولكن الدموع كانت على نفسها، والدموع روت الحقيقة. مايلز في الثامنة والعشرين الآن، أكبر ممّا كانت عليه حين ولدتْه، ولكنه ما يزال ابنها، وهي تريده أن يعود، تريد أن تبدأ القصّة من جديد.

Tele: @Arab_Books

فَرَسُ النهر المسكينة، تفكّر. سمينة جدّاً، أيّتها المرأة العزيزة، الكثير من الباوندات الزائدة على العظام الشائخة. لماذا كان عليها أن تختار ويني الآن، وليس شخصية أكثر كياسة، أكثر نحافة؟ سالومي الرشيقة على سبيل المثال. لأنها أكبر سنّاً من أن تلعب سالومي، وتوني جيلبرت طلب منها أن تلعب دور ويني. هذا ما أجده في غاية الروعة (صمت). عينان في عينيّ. لقد غيّرتْ ملابسها ثلاث مرّات منذ عودتها إلى الشّقّة، ولكنها ما تزال غير راضية عن النتائج. لكن الموعد يقترب بسرعة، وفات أوان التفكير بخيار رابع. بنطال حريري أزرق فاتح، وبلوزة حريرية بيضاء، وسترة رقيقة مسترسلة الأطراف شبه شفّافة، تصل إلى الركبَتَيْن، لكي تغطّي السمنة. الأساور في كل من المعصَمَيْن، ولكنْ، لا أقراط. المَشّاية الصينية. شعر ويني القصير، لا يمكن فعْل شيء حيال ذلك. أتضع الكثير أم القليل من الماكياج؟ أحمر الشفاه القاني قاسٍ بعض الشيء، ربمّا، خفّفيه قليلاً الآن. أتتعطّر؟ أم لا؟ لا عطر. واليدان، اليدان النحيلتان بأصابعهما البارزة أكثر ممّا ينبغي، لا شيء يمكن فعْله بهما أيضاً. قد يكون وَضْع قلادة أكثر من المطلوب، ناهيك عن أنه لن يكون ظاهراً تحت الملابس الرقيقة. ماذا بعد؟ تلميع الأظافر. طلاء أظافر ويني، لا شيء يمكن فعْله أيضاً. توتّر، توتّر، الألم القديم في الأحشاء قبل دبيب الإيميت والنملان. عينان في عينيّ. تدخل إلى غرفة النوم، لتلقي نظرة أخيرة على نفسها في المرآة. أتبدو مثل الأمّ العجوز هوبارد؟ أم مثل أليس في بلاد الأمّهات؟ في الوسط ربمّا. الفتى اللامع المبتغى. تدخل إلى المطبخ، وتسكب كأساً من النبيذ. رشفة، ثمّ اثنتان، ثمّ يُقرع الجرس. لديها الكثير لتستوعبه دفعة واحدة، الكثير من التفاصيل التي تعصف بها لحظة يُفتح الباب، الشّابّ الطويل الذي له شعر أبيه وحاجباه الكثّان، وعينا أمّه الزرقاوان الرماديتان وفمها، بات الآن مكتمل النُّمُوّ، وجهه بات أكثر جدّيّة من قبل، تفكّر، ولكنْ، أنعم، عيناه أكثر انفتاحاً، تنظران في

Tele: @Arab_Books

عينَيْها، والعناق العنيف الذي يقابلها به قبل أن يتمكّن أحدهما من قول شيء، شاعرة بقوّة ذراعَيْه وكتفَيْه عبر سترته الجلدية، ومجدّداً تتصرّف بغباء دون أن تريد ذلك، منهارة وباكية، وهي تتشبّث به، منتحبة كم هي آسفة لكل سوء التفاهم والأحزان التي جعلتْه يهرب، ولكنه يقول إن الأمر لا صلة له بها، إنها غير ملومة بالمرّة، الخطأ كله يقع على عاتقه، وهو مَنْ يعتذر.

ما عاد يُعاقر الخمرة. هذه الحقيقة الأولى التي تعلمها منه ما إن تُجفّف عينَيْها، وتقوده إلى غرفة المعيشة. لا يشرب، ولكنه ليس لديه تفضيلات حول الطعام، يسرّه تناوُل الستايك أو اللازانيا بلا لحم، أيّاً كان ما تفضّله. لماذا تشعر بكلّ هذا التّوتّر وهي معه، بهذه الاعتذارية؟ لقد اعتذرت للتّوّ، وقد اعتذر هو أيضاً، وحان الوقت للانتقال إلى أمور أكثر أهمّيّة، البدء بالتّكلّم، ولكنها تفعل حينئذ الشيء الذي وعدت نفسها بأنها لن تذكره، وهو المسرحية، تقول لماذا هي ضخمة إلى هذا الحدّ الآن، إنه ينظر إلى ويني، لا إلى ماري لي، مجرّد وَهْم، شخصية مُتخيَّلة، والصبي الذي ما عاد صبياً يبتسم لها، ويقول إنها تبدو جليلة، جليلة تردّد في سرّها، يا لها من كلمة مثيرة للاهتمام، طريقة قديمة الطرز لاستعمالها، ما عاد أحد يقول كلمة جليلة إلا إن كان يشير إلى حجمها بالطبع، امتلاؤها المستجدّ، ولكنْ، لا، يبدو أنه يطريها، وأجل، يضيف، لقد قرأ عن المسرحية، وهو يتطلّع قُدُماً لمشاهدتها. تلاحظ أنها تتحسّس سوارها بعصبية، تشعر بضيق في رئتَيْها، لا تستطيع الجلوس ساكنة. سوف أُحضر النبيذ، تقول، ولكنْ، ماذا أُحضر لكَ، مايلز؟ الماء، العصير، جعة الزنجبيل؟ بينما تعبر المساحة الواسعة المفتوحة في الشّقّة، يقف مايلز، ويتبعها، قائلاً إنه غيّر رأيه، وسوف يشرب بعض النبيذ، يريد أن يحتفل، ومَنْ يعرف إذا كان يعني ذلك؟ أم أنه توّاق لشراب فقط، لأنه متوتّر مثلها؟

Tele: @Arab_Books

يقرعان الكأسَيْن، وبينما يفعلان ذلك، تُذكّر نفسها بضرورة الحَذَر، وأن تُبقي بينغ ناثان خارج الموضوع، فعلى مايلز ألا يكتشف كم كانا يتعقّبان أثره عن كَثَب، الوظائف المختلفة في الأمكنة المختلفة على مرّ السنين، شيكاغو، نيو هامشير، أريزونا، كاليفورنيا، فلوريدا، المطاعم، الفنادق، المستودعات، اللعب مع فريق البايسبول، النسوة اللواتي جئنَ وذهبنَ، الفتاة الكوبية التي كانت معه للتوّ في نيويورك، كل الأمور التي يعرفونها عنه يجب كَبْتُها، وعليها ادّعاء الجهل، كلّما أفشى بشيء ما، ولكنها تستطيع فعْل هذا، فهو عملها، يمكنها أن تفعل ذلك حتّى وهي مترعة من السُّكْر، ومن الطريقة التي تجرّع بها مايلز الجرعات الأولى من البولي فوميه، يبدو أن الكثير من النبيذ سيُستهلك هذه الليلة.

وماذا بشأن أبيكَ؟ تسأله. هل اتّصلتَ به؟

لقد اتّصلتُ مرّتَيْن، كان في إنجلترا في المرّة الأولى. وقالوا لي إنه سيعود في الخامس من الشهر، ولكنْ، حين حاولتُ الاتّصال به البارحة، قالوا إنه عاد إلى إنجلترا لأمر طارئ.

غريب، تقول. لقد تناولتُ الغداء معه ليلة السبت، ولم يقلْ شيئاً عن العودة. لابدّ من أنه غادر يوم الأحد. غريب جدّاً.

آمل أن يكون كل شيء على ما يرام مع ويلا.

ويلا. ما الذي يجعلكَ تظنّ أنها في إنجلترا.

أعرف أنها في إنجلترا. الناس يروون لي أشياء. لديّ مصادري.

حسبتُكَ أدرتَ ظهركَ لنا. ولا خبر طوال ذلك الوقت، والآن تقول لي إنك تعرف بأخبارنا؟

Tele: @Arab_Books

إلى هذا الحدّ أو ذاك.

إذا كنتَ ما تزال تهتمّ، فلماذا غادرتَ أساساً؟

هذا هو السؤال الكبير، صح؟ (صمت وجرعة أخرى من النبيذ) لأنني حسبتُ أنكم ستكونون أفضل حالاً من دوني. جميعكم.

أو ستكون أفضل حالاً من دوننا.

ربّما.

لمَ عدتَ الآن إذن؟

لأن الظروف جاءت بي إلى نيويورك، وما إن صرتُ هنا، حتّى فهمتُ أن اللعبة قد انتهت. لقد نلتُ كفايتي.

ولكنْ، لماذا هذا الوقت كله؟ حين اختفيتَ في البداية حسبتُ أن ذلك سيكون لأسابيع، أو لبضعة أشهر. تعرف: شابّ يافع مُربَك في الظلمة، يتشاجر مع شياطينه في الخلاء، ويعود أقوى وأفضل. ولكنْ، سبع سنوات، مايلز، ربع حياتكَ. أترى كم هذا جنونيّ؟

لقد أردتُ بالفعل أن أعود إنساناً أفضل. كان هذا هدفي الأساس. أن أغدو أفضل وأقوى، أن أكون ذا قيمة، على ما أظنّ، ولكنه أمر غامض بعض الشيء. فكيف يعرف المرء متى أصبح أفضل؟ لا يُشبه ذلك الذهاب إلى الجامعة لأربع سنوات، وتسلُّم شهادة، تُثبت أنه حضر كل صفوفه. ليس من طريقة لقياس التّقدّم. لذا واصلتُ ذلك، غير عالم إذا كنتُ صرتُ أفضل أو أقوى أم لا، وبعد وقت، كففتُ عن التفكير في الهدف، وركّزتُ على الجهد (يصمت، رشفة أخرى). هل ثمّة معنى بالنسبة إليكِ لأيّ من هذا؟ لقد غدوتُ مدمناً على الجهد. فَقَدْتُ أثرَ نَفْسي. واصلتُ فعل ذلك، ولم أعد أعرف لماذا أقوم به.

Tele: @Arab_Books

يحسب والدكَ أنكَ فررتَ، بسبب محادثة، اختلستَ سماعها.

هل تصوّر ذلك؟ هذا يثير إعجابي. ولكن تلك المحادثة كانت مجرّد البداية، الدفعة الأولى. لن أنكر كم كان شعوري رهيباً حين سمعتُهما يتكلّمان عليّ على ذلك النحو، ولكنْ، بعد رحيلي، فهمتُ أنهما كانا محقَّيْن في أن يكونا قلقَيْن عليّ إلى هذا الحدّ، مُحقَّيْن في تحليلهما لنَفْسيَّتي المُدمَّرة، ولهذا السبب بقيتُ بعيداً - لأنني لم أرد أن أكون ذلك الشخص بعد الآن، وعرفتُ أنه سيتطلّبني الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أتعافى.

أأنتَ متعافٍ الآن؟

(يضحك) أشكّ في ذلك (يصمت). ولكنني لستُ بالسوء الذي كنتُ عليه في ذلك الحين. الكثير من الأمور تغيّرت، لاسيما خلال الشهور السّتّة الماضية.

كأس أخرى، مايلز؟

أجل، رجاء (يصمت)، لا يجدر بي فعل هذا. بسبب قلّة التمرين، كما تعلمين. ولكنه نبيذ رائع جدّاً، وأنا متوتّر بصورة رهيبة، رهيبة.

(مالئة الكأسَيْن) أنا أيضاً، حبيبي.

لم يكن الأمر متعلّقاً بي يوماً. آمل أن تفهمي هذا. ولكنْ، ما إن انفصلتُ عن والدي وويلا، فقد كان عليّ الانفصال عنكِ، وعن سايمون أيضاً.

الأمر كلّه يتعلّق ببوبي، صح؟

(يهزّ رأسه).

عليكَ أن تترك الأمر.

Tele: @Arab_Books

لا أستطيع.

عليكَ ذلك.

(يهزّ رأسه) الكثير من الذكريات السّيّئة.

أنتَ لم تصدمه. كان ذلك حادثاً.

كنّا نتجادل، وقد دفعتُه على الطريق، ثمّ جاءت السّيّارة بسرعة شديدة، خرجتْ من العَدَم.

دعكَ من القصّة، مايلز. كان حادثاً.

(عينان تغرورقان بالدمع. صمت لأربع ثوان. ثمّ يرنّ الجرس في الأسفل).

لابدّ من أنه الطعام (تنهض، وتمشي إلى مايلز، وتُقبّله على جبينه، ثمّ تذهب، لكي تُدخل عامل التوصيلات من المطعم مخاطبة مايلز) أيّهما تظنّ هذا؟ النباتي؟ أم المفترس؟

(يصمت طويلاً، مُجبراً نفسه على التّبسّم) كلاهما!

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

موريس هيلر

ذهب رجل الصفائح إلى إنجلترا، وعاد، وقد غيّرت تجربته هناك لون العالم. منذ عودته إلى نيويورك في الخامس والعشرين من يناير، فقد تخلّى عن صفائحه وقنانيه، لكي يكرّس نفسه لحياة من التأمّل الصافي. رجل الصفائح كاد يموت في إنجلترا. رجل الصفائح أُصيب بالتهاب رئوي، وأمضى أسبوعَيْن في المستشفى، والمرأة التي ذهب ليُنقذها من الانهيار العصبي والانتحار المحتمَل انتهى بها الأمر تُنقذه من موت شبه مؤكّد، وبفعل ذلك، أنقذت نفسها من الانهيار العصبي، ومن المحتمل أنها أنقذت زواجهما أيضاً. رجل الصفائح مسرور بكونه على قيد الحياة. رجل الصفائح يعرف أن أيّامه معدودة، وبالتالي فقد وضع جانباً سعيه وراء الصفائح والقناني، لكي يدرس الأيّام وهي تمرّ سريعاً به، يوماً بعد يوم، كل واحد أسرع من الذي قبله. بين الملاحظات التي لا تُحصى التي سجّلها في دفتر ملحوظاته التالي:

٢٥ يناير. لا نغدو أقوى مع مرور السنين. تراكم العذابات والآلام يُضعف قدرتنا على احتمال المزيد من العذابات والآلام، وبما أن العذابات والآلام حَتْمية، فحتّى النكسة الصغيرة في العمر المتأخّر يمكن أن يكون لها تأثير المأساة الكبرى التي يُعانيها المرء في شبابه. القشّة التي تكسر ظهر البعير. عضوكَ الأحمق في رحم امرأة أخرى على سبيل المثال. كانت ويلا على

Tele: @Arab_Books

شفير الانهيار قبل أن تحصل تلك المغامرة الشائنة. كانت قد عانت الكثير في حياتها، احتملت أكثر من حصّتها من الآلام، ورغم القوّة التي تتمتّع بها مثلما كان يجدر بها، فإنها ليست بنصف القوّة التي تحسب نفسها عليها. زوج متوفٍّ، ابن متوفٍّ، ابن زوج هارب، وزوج ثان خائن – زوج ثان شبه ميّت. ماذا لو أخذت المبادرة قبل سنوات حين رأيتها للمرّة الأولى في تلك الحلقة الدراسية في قاعة الفلسفة في كولومبيا، فتاة برنارد اللامعة التي دخلت إلى صفّ للطَّلَبَة المتخرّجين، ذات الوجه الجميل الرقيق واليدَيْن النحيلتَيْن؟ كان ثمّة عاطفة قوية في حينه، قبل تلك السنوات كلها، قبل كارل وماري لي، وشابّان كما كنتُما في ذلك الحين، في الحادية والعشرين، ماذا لو سعيت إليها أكثر، ماذا لو أن تودُّدكما الصغير أدّى إلى الزواج؟ النتيجة: لا زوج ميّتاً، لا ابن ميّتاً، لا ابن زوج هارب. عذابات وآلام أخرى بالطبع، ولكنْ، ليس هذه. الآن قد أعادتكَ من بين الأموات، مُجنّبة إيّاكَ الخسوف النهائي لكلّ أمل، وجسدكَ الذي ما يزال يتنفّس لابدّ من أن يُحتَسَبَ كأعظم انتصاراتها. الأمل ينتصر إذن، ولكنْ، ليس اليقين، كان ثمّة هُدنة، إعلان رغبة في السلام، ولكنْ، ليس واضحاً ما إذا كان ذلك اتّفاقاً حقيقياً بين الاثنَيْن. الفتى ما يزال عقبة. لا يمكنها المسامحة والنسيان. ولا حتّى بعد أن اتّصل وأمّه من نيويورك، ليطمئنّا عليكَ، ولا حتّى بعد أن صار الصبيّ يتّصل يومياً طوال أسبوعَيْن مستفسراً عن آخر تطوّرات صحّتكَ. سوف تبقى في إنجلترا لعطلة الفصح، وسوف لن تذهب إليها ثانية. الكثير من الوقت ضاع أصلاً، وثمّة حاجة لوجودكَ في المكتب، قبطان السفينة الغارقة عليه ألا يتخلّى عن طاقمه. ربّما ستُغيّر رأيها مع مرور الشهور. ربّما سترقّ. ولكنكَ لا تستطيع أن تتنازل عن الفتى من أجلها. ولا يمكنكَ التنازل عنها من أجله. تريد كلاهما، يجب أن تحصل على كلَيْهما، وبطريقة أو أخرى، ستفعل، حتّى ولو لم يحصل أحدهما على الآخر.

Tele: @Arab_Books

٢٦ يناير. الآن بعد أن أمضيتَ أمسيّة مع الفتى، تجد نفسكَ مُحبَطاً بصورة غريبة. الكثير من سنوات التّوقّع ربمّا، الكثير من سنوات التّخيّل كيف سيكون لَمّ الشمل، وبالتالي شعور بخيبة الأمل حين حدث ذلك أخيراً، لأن المخيّلة سلاح قويّ، ولقاءات لَمّ الشمل المُتخيَّلة التي حصلت في رأسك مرّات كثيرة على مرّ السنين كانت أغنى بالضرورة، وأكثر امتلاء وإرضاء عاطفياً من اللقاء الفعليّ. تشعر أيضاً بالاضطراب جرّاء حقيقة أنكَ لا تستطيع مَنْعَ نفسكَ من الحنق عليه. إذا أردتُما الاحتفاظ بجذوة مشتعلة، فعليكما أن تتعلّما أن تُسامحا، وتَنسيا. ولكنّ الفتى يقف منذ الآن حائلاً بينكَ وبين زوجتكَ، وما لم تتحوّل مشاعر زوجتكَ، وتسمح له بدخول عالمها مجدّداً، فالفتى سيظلّ يمثّل حاجزاً بينكما. ومع ذلك كله فقد كان لقاء عجائبياً، والفتى نادم من قلبه كله، يجب أن يكون المرء مقدوداً من الحجر حتّى لا يرغب بفَتْح صفحة جديدة. ولكنْ، سوف يتطلّب الأمر بعض الوقت قبل أن تشعرا أنتما الاثنان بالارتياح معاً، قبل أن تُعاودا الوثوق بواحدكما لآخر. جسدياً يبدو بحال جيّدة، قوي ويتمتّع بالصّحّة، مع لمعان مشجِّع في عينَيْه. عينا ماري لي، بصمة أمّه التي لا يمكن إنكارها. يقول إنه شاهد مرّتَيْن عرض الأيّام السعيدة، ويظنّ أنها رائعة في دور ويني، وحين اقترحت عليه أن تذهبا لمشاهدتها معاً – إذا كان يطيق مشاهدة المسرحية مرّة ثالثة – فقد وافق بحماسة. تكلّم مُطوّلاً حول الشّابّة التي وقع في غرامها، بيلار، بيلار هرنانديز، سانشيز غوميز، اسمها الأخير يضيع منكَ الآن، وهو يتطلّع قُدُماً لتعريفها عليكَ حين تُعاود زيارة نيويورك في أبريل. ليس لديه خطط واضحة للمستقبل. في الوقت الحالي، يعمل في متجر بينغ ناثان، ولكنْ، إذا لم يتمكّن من جَمْع ما يكفي من المال، فإنه يفكّر في العودة إلى الكُلّيّة في العام المقبل، والحصول على شهادته. ربمّا، ربمّا، هذا كله يعتمد على الظروف. لم تكن لديكَ الجرأة، لتواجهه

Tele: @Arab_Books

بالأسئلة الصعبة المتعلّقة بالمضي. لماذا فرّ على سبيل المثال؟ أو لماذا بقي متوارياً كل هذا الوقت؟ ناهيكَ عن لماذا ترك صاحبته في فلوريدا، وجاء إلى نيويورك بمفرده؟ سيأتي لاحقاً وقت طَرْح الأسئلة. الليلة الماضية كانت ببساطة الجولة الأولى، ملاكمان يستكشفان بعضهما قبل البدء في المباراة الحقيقية. تحبّه بالطبع، تحبّه من صميم قلبكَ، لكنكَ ما عدتَ تعرف كيف تفكّر به. فليُثبت نفسه كابن جدير بأبوّته.

٢٧ يناير. إذا سقطت الشركة، فسوف تُؤلّف كتاباً، تُسمّيه أربعون عاماً في الصحراء: نشر الأدب في بلد يكره الناس فيه الكُتُب. أرقام مبيعات الميلاد كانت أسوأ ممّا كنتَ تخشى، أسوأ مبيعات على الإطلاق. في المكتب، بدا الجميع قلقاً – المساعدون القُدامى، الصغار، الجميع من كبار المحرّرين إلى المبتدئين ذوي الوجوه الطفولية. كما أن منظر جسدكَ الواهن الضامر لا يوحي بدوره بالكثير من الثقة في المستقبل. ومع ذلك، فأنت سعيد بالعودة، سعيد بأن تكون في المكان الذي تحسّ بالانتماء إليه، وحتّى لو أن ألمانيا وإسرائيل قد خذلتاكَ، فإنكَ تشعر بيأس أقلّ حيال الوضع ممّا كنتَ من قبل أن تمرض. لا شيء يوازي محادثة وجيزة مع الموت، ليضع الأمور في نصابها الصحيح، وتتصوّر أنكَ لو تمكّنتَ من تجنُّب الخروج في غير الأوان من المستشفى البريطاني، فسوف تجد طريقة لتقود فيها الشركة عبر هذا الإعصار الجامح. ليس من عواصف تدوم إلى الأبد، والآن بما أنكَ عدتَ إلى إدارة الدّفّة، فإنكَ تدرك كم تحبّ دورك كمُدير، وكم منعشة كانت هذه المؤسّسة لكَ طوال تلك السنوات. ويجب أن تكون مديراً جيّداً، أو على الأقلّ مقدراً، ذلك أنك حين رجعتَ إلى العمل بالأمس، أحاطتكَ جيل هرتزوغ بذراعَيْها، وقالت: يا إلهي، موريس،

Tele: @Arab_Books

لا تفعلْ هذا ثانية، أرجوكَ، أتوسّل إليكَ، ثمّ واحداً بعد الآخر كل واحد في فريق العمل، تسعتهم، رجالاً ونساء على السواء، جاؤوا إلى مكتبكَ، وعانقوكَ، مرحّبين بعودتكَ بعد غياب طويل مُقلق. قد تكون عائلتكَ مُهدَّدة بالخراب، ولكنْ، هذه أيضاً عائلتكَ، ومهمّتكَ أن تحميهم، الكُتُب ما تزال مهمّة، والعمل الذي يقومون به مهمّ وضروري. لا ريب في أنكَ عجوز عاطفي، رجل قديم الطرز، ولكنكَ تستمتع بالسباحة عكس التيّار، كان هذا المبدأ التأسيسي للشركة قبل ثلاثة وخمسين عاماً، ولا تنتوي تغيير منهجكَ الآن. كلهم قلقون من خسارة عملهم. هذا ما تراه في عيونهم وهم يكلّمون واحدهم الآخر، لذا تدعو إلى اجتماع عامّ بعد ظهر اليوم، وتُخبرهم أن ينسوا العام ٢٠٠٨، فهو بات في عداد الماضي، وحتّى لو كان العام ٢٠٠٩ أسوأ، فلن يكون هناك تسريحات في هيلر للنشر. فكِّروا ببطولة دوري الناشرين، قلتَ. أيّ تخفيض في الفريق وسيكون مستحيلاً تكوين فريق هذا الربيع، وسجلّ دار هيلر الفخور من ٢٧ خسارة على التوالي سوف ينتهي. لا فريق كرة قَدَم هذا العام؟ هذا غير وارد.

٦ فبراير. يجب ألا يتكلّم الكتّاب البتّة إلى الصحافيين. المقابلة هي شكل أدبي وضيع، لا يخدم أيّ هدف سوى تبسيط ما لا ينبغي تبسيطه. رينزو يعرف ذلك، ولأنه رجل يتصرّف وفقاً لما يعرفه، فقد أبقى فمه مقفلاً لسنوات، ولكنْ، الليلة على العشاء، الذي انتهى قبل ساعة فحسب، أَعلمكَ أنه أمضى جزءاً من بعد الظهر متكلّماً مع آلة تسجيل، مُجيباً عن أسئلة وجّهها إليه كاتب قصص قصيرة شابّ، ينوي نشر المقابلة، ما إن يتمّ تحريرها، وأعطى رينزو موافقته الأخيرة. ظروف خاصّة، قال، حين سألته لماذا قام بها. الطَّلَب جاء من قِبَل بينغ ناثان، الذي يحدث أنه صديق

Tele: @Arab_Books

للكاتب الشّابّ، ولأن رينزو مُدرِك للدَّيْن الكبير الذي تَدين به لبينغ ناثان، فقد شعر أنه سيكون من الفظاظة أن يخذله، سيكون هذا لا يُغتفَر. بكلمات أخرى، لقد كسر رينزو صمته، بسبب صداقته لكَ، وقلتَ له كم أنتَ متأثّر بهذا وممنون، مسرور لأنه فهم كم يعني لكَ أنه يمكنه فعل شيء لبينغ. مقابلة من أجل بينغ إذن، من أجلكَ، ولكنْ، مع ضوابط معيّنة، يجب أن يقبل بها الشّابّ قبل أن يوافق رينزو على التّكلّم إليه. لا أسئلة عن حياته أو عمله، لا أسئلة في السياسة، لا أسئلة عن أيّ شيء سوى عمل الكتّاب الآخرين، الموتى، الموتى مؤخّراً الذين عرفهم رينزو، بعضهم جيّداً، وبعضهم عرضاً، والذين يريد أن يطري عملهم. لا هجوم، قال، فقط مديح. وقد قدّم للشّابّ مسبقاً قائمة بالأسماء، وطلب منه أن يختار بعضهم، خمسة أو ستّة فقط، لأن القائمة طويلة جدّاً. وليام جاديس، جوزيف هيلر، جورج بليمبتون، ليونارد مايكلز، جون غريغوري دان، ألان روب غرييه، سوزان سونتاغ، آرثر ميلر، روبرت كريلي، كنيث كوتش، وليام ستيرون، ريشارد كابوشينسي، كورت فونغوت، غرايس بايلي، نورمان مايلر، هارولد بينتر وجون أبدايك الذي توفّى الأسبوع الفائت فحسب، جيل بأكمله ذهب إلى السماء في غضون أعوام قليلة. تعرف الكثير من هؤلاء الكتّاب أيضاً، تكلّمتَ إليهم، حَكَكْتَ كتفكَ بهم، أُعجبتَ بهم، وبينما يُعدّد رينزو أسماءهم، كنتَ مذهولاً بكثرتهم، وحزن رهيب هبط عليكما الاثنان وأنتما ترفعان نخب ذِكْراهم. ولتحسين المزاج، بدأ رينزو يروي قصّة عن وليام ستيرون، نادرة صغيرة طريفة منذ سنوات طويلة، تتعلّق بمجلّة فرنسية هي لو نوفيل أوبزرفاتور، التي كانت تخطّط لإصدار عدد كامل عن أمريكا وبين المواضيع التي رغبوا في تضمينها حوار طويل بين روائيّ أمريكيّ مُسنّ وآخر شابّ. اتّصلت المجلّة بستيرون، واقترح رينزو، لكي يكون الكاتب الشّابّ الذي يرغب في التّكلّم إليه. اتّصلت صحافية برينزو الذي كان منشغلاً في كتابة

رواية في ذلك الحين (كالعادة)، وحين قال لها إنه مشغول جدّاً، بحيث لا يستطيع القبول - رغم شعوره العظيم بالإطراء لعرض ستيرون، ولكنه مشغول جدّاً - صُدمت المرأة بسبب هذا الرفض، بحيث أنها هدّدت بأن تقتل نفسها، سوف أنتحر! ولكن رينزو بالكاد ضحك، وقال لها إن أحداً لا ينتحر لسبب تافه كهذا، وإنها ستشعر بحال أفضل في الصباح. لم يكن يعرف ستيرون جيّداً، والتقاه مرّة أو اثنَتَيْن فحسب، ولكنْ، كان لديه رَقْم هاتفه، وبعد المحادثة مع المحرّرة الانتحارية اتّصل بستيرون، لكي يشكره على اقتراح اسمه، ولكنه يريده أن يعرف أنه منخرط في رواية، وقد رفض الدعوة. وأمل أن يتفهّم ستيرون. تماماً، قال ستيرون. في الحقيقة، لهذا السبب، اقترح رينزو في المقام الأوّل. لم يرد إجراء الحديث أيضاً، وكان شبه متأكّد، بل مقتنع أن رينزو سيرفض الدعوة، ويُحرّره منها. شكراً لكَ، رينزو، قال، لقد أسديتَني معروفاً. ضحك. أنت ورينزو أخذتما تضحكان من ملاحظة ستيرون، ثمّ قال رينزو: "يا له من رجل مهذّب، دمث الأخلاق جدّاً. لم يكن لديه الجرأة فحسب لكي يخذل المحرّرة، فاستعملني لأفعل ذلك نيابة عنه. في المقابل، ما كان ليحصل لو أنه وافق؟ أظنّ أنه كان سيدّعي أنه فرح جدّاً، جذل لأن الاثنَيْن مُنحا فرصة الجلوس معاً، والتّكلّم حول أوضاع العالم. هكذا كان. رجل طيّب. آخر ما كان يريده أن يجرح مشاعر أحدهم". من طيبة ستيرون، انتقل الاثنان للتّكلّم على حملة منظّمة "بن" دعماً لليو كسيابو. ثمّة عريضة كبيرة وقّعها كتّاب من أنحاء العالم، نُشرت في ٢٠ يناير، و"بن" تخطّط لتكريمه غيابياً في عشاء جمع التّبرّعات السنوي في أبريل. ستكون هناك، بالطبع، إذ إنكَ لا تُفوّت أبداً ذلك العشاء، لكن الوضع يبدو قاتماً، وأَمَلُكَ قليلٌ بأن مَنْحَ ليو جائزة في نيويورك سيكون له أيّ تأثير على وَضْعه في بجين - رجل محتجَز، ولا ريب أنه سيتحوّل قريباً إلى مُعتَقَل. بحسب رينزو ثمّة امرأة شابّة تعمل في بين تعيش في البيت

Tele: @Arab_Books

نفسه الذي يعيش فيه الصبيّ في بروكلين. عالم صغير، صح؟ أجل رينزو، عالم صغير، بكل تأكيد.

٧ فبراير. التقيتَ الفتى مرّتَيْن منذ لَمّ الشمل معه في ٢٦ يناير. المرّة الأولى ذهبتُما معاً لمشاهدة "الأيّام الحلوة" (مجاملة من ماري لو التي تركت لكما تذكَرَتَيْن على شبّاك التذاكر، شاهدتَ المسرحية بنوع من النشوة (ماري لي كانت مذهلة)، ثمّ ذهبتُما إلى غرفة تبديل الملابس بعد العرض، حيث انقضّت عليكما بقُبل وحشية جيّاشة. حماسة التمثيل أمام الجمهور مباشرة، وفرة من الأدرينايلين تجتاح جسدها، عيناها تضطرم فيهما النيران. بدا الفتى مسروراً للغاية، خاصّة لحظة عناقي ووالدته. لاحقاً أدركتُ أن هذه المرّة الأولى في حياته التي يرى فيها ذلك يحدث. ربّما رأى ذلك كعلامة على أن الحرب انتهت الآن، أن المتحاربين ألقيا أسلحتهما منذ وقت طويل، وأعادا سيفَيْهما إلى غمدَيْهما. بعد ذلك، كان العشاء مع كورنغولد ولايدي سوان في مطعم صغير في يونيون سكواير. لم يتكلّم الفتى كثيراً، لكنه كان شديد التّيقّظ. بعض الملاحظات الألمعية حول المسرحية، محلّلاً السطر الافتتاحي في المشهد الثاني، "فليحيا الضوء المقدّس"، ولماذا اختار بيكيت الإشارة إلى ميلتون في هذه المرحلة، المفارقة الساخرة لهذه الكلمات في سياق عالم من النهار الدائم، بما أن الضوء لا يمكن أن يكون مقدّساً إلا كترياق ضدّ الظلام. عينا أمّه كانتا شاخصتَيْن نحوه وهو يتكلّم، ملتمعتان إعجاباً. ماري لي، ملكة التّطرّف، سيّدة المشاعر العارية، ومع ذلك، جلستَ هناك تشاهدها بشيء من الحسد – مستمتعاً بعض الشيء طبعاً، ولكنْ، سائلاً نفسكَ لماذا تواصل

Tele: @Arab_Books

كَبْتَ مشاعركَ؟! شعرتَ براحة أكبر لحضور الفتى في المرّة الثانية. ربمّا بدأتَ تعتاد حضوره مجدّداً، ولكنكَ ما تزال غير جاهز لأن تكون دافئاً معه. اللقاء التالي كان أكثر حميمية. العشاء في جوّ جونيور الليلة من أجل الأيّام الخوالي، أنتما الاثنان فحسب، تمضغان الهمبرغر المُدهِن والبطاطا المقلية التي ترشح زيتاً، وكان أغلب حديثكما عن البايسبول، ممّا ذكّركَ بمحادثات لا تُعدّ ولا تُحصى، كنتَ أجريتَها مع والدكَ، ذلك الموضوع الشغوف، إنما الحيادي، الأرض الآمنة، لكنه حينئذ أتى على ذِكْر موت هيرب سكور، وأخبرك كم رغب في الاتّصال بكَ ذلك اليوم، والتّكلّم إليكَ حول الموضوع، ذلك الرامي الذي دمّرت حياته المهنية بالإصابة نفسها التي صرعت والدكَ، الجدّ الذي لم يلتقه، لكنه قرّر أن محادثة عبر المسافات البعيدة كانت غير مناسبة، وكم من الغريب أن يكون الاتّصال الأوّل عبر الهاتف، الاتّصالات بين بروكلين وإكستر حين كنتَ في المستشفى، وكم كان خائفاً أنه قد لا يراك ثانية. أخذتَه بعد العشاء إلى داونينغ ستريت، وكان هناك، في غرفة المعيشة في الشّقّة القديمة، أنه انهار فجأة، وبدأ ينتحب. هو وبوبي كانا يتشاجران في ذلك اليوم، قال، هناك على الطريق الملتهب قبل سنوات، وقبل أن تصل السّيّارة بلحظات دفع بوبي، دفع بوبي الأصغر منه بقوّة كافية لإسقاطه أرضاً، ولهذا السبب صدمتْه السّيّارة، وقُتل. أصغيتَ بصمت. لا تجد الكلمات. طوال السنوات الماضية لم تكن تعرف والآن هذا، السخف التّامّ للأمر، خصومة بين أخوَيْن مراهقَيْن، وكل الضرر الذي تسبّبت به تلك الدفعة. الكثير من الأشياء اتّضحتْ لكَ بعد اعتراف الفتى. كان انكفاؤه الوحشي على ذاته، الفرار من حياته، الوظائف الكادحة العقابية كنوع من التكفير، أكثر من عقد في الجحيم، بسبب لحظة غضب واحدة. أيمكن الغفران له؟ لم تستطع

Tele: @Arab_Books

الليلة النُّطق بالكلمات، ولكنْ، على الأقلّ، كان لديكَ الوعي الكافي لتأخذه بالأحضان. السؤال الأدقّ: هل ثمّة ما يجب مسامحته عليه؟ على الأرجح، لا. ومع ذلك، فيجب مسامحته.

٨ فبراير. محادثة يوم الأحد الهاتفية مع ويلا. إنها قلقة بشأن صحّتكَ، وتسألكَ عن حالكَ، وتسأل ألن يكون من الأفضل أن تترك عملها، وتأتي إلى البيت، لترعاكَ. تضحك لفكرة زوجتكَ المجتهدة الكادحة حين تقول لإدارة الجامعة: "وداعاً، أيّها الأصحاب، زوجي يعاني من ألم البطن، ويجب أن أرحل، واللعنة على الطَّلَبَة الذين أُعلّمهم، على أيّة حال، يمكنهم أن يُعلِّموا أنفسهم، ويحلّوا عني". تُقهقه ويلا حين تسرد لها هذا المشهد، وهذه هي الضحكة الأولى المجلجلة التي سمعتَها تصدر عنها منذ وقت طويل، أفضل ضحكة منذ شهور. تُخبرها عن مقابلة الفتى على العشاء ليلة أمس، لكنها لا تتجاوب، ولا تطرح أيّة أسئلة. فقط صوت صغير تُخبركَ به أنها تصغي إليكَ، ولكنْ، لا أكثر من ذلك، ومع ذلك تواصل كلامكَ مشيراً إلى أن الفتى قد تصالح مع نفسه أخيراً. صوت آخر. لا حاجة إلى القول إنكَ لا تأتي على ذِكْر الاعتراف. صمت قصير، ثمّ تخبركَ أنها أخيراً تشعر بالقوّة الكافية للعودة إلى كتابها، وهي إشارة أخرى جيّدة برأيكَ، ثمّ تقول لها إن رينزو يبلغكَ السلام، وإنكَ أنت أيضاً ترسل حبّكَ، وإنك تغطّي جسدها بألف قُبلة. تنتهي المحادثة. لم تكن بالسّيّئة على وجه العموم، ولكنْ، بعد أن تُقفل السمّاعة، تتجوّل في الشّقّة شاعراً أنكَ عالق في العراء. الصبي سأل الكثير من الأسئلة عن ويلا، ولكنك لم تجد بعد الشجاعة، لتخبره أنها قد أخرجتْه من قلبها. رجل الصفائح يرتدي الآن البزّة وربطة العنق. رجل الصفائح يذهب إلى العمل، ويُسدّد الفواتير، وقد أصبح مواطناً

Tele: @Arab_Books

نموذجياً. ولكنّ رجل الصفائح ما يزال مضروباً في رأسه، وفي الليالي التي يضيق العالم به في وجهه، ما يزال يركع على ركبتَيْه، ويعول في وجه القمر.

١٥ مارس. رأيتَ الفتى ستّ مرّات أخرى منذ آخر لقاء في ٧ فبراير. زيارة إلى مستشفى الأشياء التالفة ذات عصر سبت، حيث شاهدتَه يؤطّر الصور، وسألتَ نفسكَ إذا كان هذا كل ما يطمح إليه، إذا كان يرضيه التّنقّل من وظيفة غريبة إلى أخرى حتّى يغدو رجلاً مُسنّاً. لكنكَ لا تضغط عليه، لكي يتّخذ قرارات. تتركه وشأنه وتنتظر لترى ماذا سيحدث تالياً، مع أنكَ تأمل بينكَ وبين نفسكَ بأن يعود إلى الجامعة الخريف المقبل، وينهي شهادته، وهو أمر ما يزال يذكره من وقت لآخر. عشاء رباعي آخر مع كورنغولد ولا سوان في ليلة اثنَيْن، حين كان المسرح مُقفَلاً. ليلة إلى السينما معاً لمشاهدة تحفة بريسون القديمة "الهارب". غداء في وسط الأسبوع سبقتْه زيارة إلى المكتب، حيث أريتَه المكان، وعرّفتَه على عصبتك الصغيرة من الفرسان، والفكرة المجنونة التي جرت في رأسكَ بعد ظهر ذلك اليوم، متسائلاً إذا كان الصبيّ بذكائه واهتمامه بالكُتُب يمكن أن يجد مكاناً لنفسه في عالم النشر كموظّف في دار هيلر، على سبيل المثال، حيث يمكن أن يُتوَّج خليفة لأبيه، ولكنْ، لا يجدر به أن يستغرق في الأحلام، فالأفكار من هذا القبيل يمكن أن تزرع بذوراً سامّة في الرأس، ومن الأفضل الامتناع عن كتابة مستقبل شخص آخر، خاصّة إذا كان هذا الشخص هو ابنكَ. عشاء مع رينزو بجوار منزله في بارك سلوب، العرّاب معنوياته مرتفعة الليلة، وقد بدأ برواية جديدة، ولا مزيد من الكلام على التّهوّر والركود والنيران الخامدة. بعد ذلك الزيارة إلى البيت الذي يعيش فيه، فرصة لرؤية رباعي صانست بارك رأي العين. مكان صغير بائس، ولكنكَ استمتعتَ

Tele: @Arab_Books

بالتّعرّف إلى أصدقائه، ولاسيما بينغ، بالطبع، الذي يبدو في أحسن حال، وكذلك الفتاتان، أليس التي تعمل في منظّمة "بن"، والتي تكلّمت بحماسة بالغة على قضية ليو كسيابو، ثمّ طرحت عليكَ بضعة أسئلة استكشافية عن جيل والديكَ، شبّان وشابّات الحرب العالمية الثانية، وهناك إيلين، فتاة وديعة وجميلة أرتْكَ في وقت متأخّر من الأمسيّة دفتر إسكتشات مليء ببعض أفحش الرسومات الإيروتيكية التي رأيتَها يوماً، ممّا جعلكَ تقف وتتساءل – لبرهة فحسب – إن لم يكن في وسعكَ أن تُنقذ شركتكَ من خلال تقديم نمط جديد من كُتُب الفن البورنوغرافية. تلقّوا حتّى الآن إشعارَيْن بالإخلاء، وقد عبّرتَ عن قلقكَ من أنهم يُغامرون بحظّهم، ويمكن أن ينتهي بهم الأمر في موضع خطر، ولكنّ بينغ ضرب الطاولة بقبضته، وقال إنهم سيصمدون حتّى النهاية الصعبة. فلمَ تصرُّ على رأيكَ، بما أنه ليس من شأنكَ أن تقول لهم ماذا يفعلون، فجميعهم بالغون (إلى هذا الحدّ أو ذاك)، وهم قادرون تماماً على اتّخاذ خياراتهم حتّى لو كانت تلك القرارات خاطئة؟! ستّ مرّات إضافية، وشيئاً فشيئاً، أنت والفتى صرتُما أكثر قُرباً من أحدكما الآخر. لقد غدا منفتح القلب معكَ، وفي إحدى السهرات حين كنتَ وحدكَ معه، بعد مشاهدة فيلم بريسون على الأرجح، حكى لك القصّة الكاملة المتعلّقة بالفتاة، بيلار سانشير، ولماذا اضطرّ إلى الفرار من فلوريدا. لكي تكون صادقاً تماماً، فقد أجفلتَ حين أخبركَ كم هي يافعة، ولكنْ، بعد أن فكّرتَ لوهلة في الأمر، أدركتَ أنه من المنطقي أن يكون مُغرَماً بفتاة بهذا العمر، ذلك أن حياة الفتى قد تعطّلت، قُطعت من سياق نمُوّها الطبيعي والصحيح، وعلى الرغم من أنه يبدو رجلاً بالغاً تماماً، فإن ذاته الداخلية ما تزال عالقة في مكان ما بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. كان ثمّة لحظة في يناير الماضي حين كان خائفاً من أنه سيفقدها، كما قال لي، فقد حدث بينهما خلاف جدِّيّ، هو الأوّل بينهما،

Tele: @Arab_Books

وزعمت هي بأن الخطأ كله خطؤه، بما أنهما حين التقيا في البداية كان ما يزال يجهل مدى المكانة التي ستحتلّها في حياته، فكذب عليها بشأن عائلته، قائلاً لها إن والديه توفّيا، وإنه لا شقيق له، ولم يكن له يوماً، والآن بعد أن عاد إلى والدَيْه، فقد أراد إعلامها بالحقيقة، وحين فعل ذلك، استشاطت غضباً، لأنه كذب عليها، وأقفلت الخطّ في وجهه. تبع ذلك أسبوع من الشجارات، وكانت مُحقّة في إحساسها بالغضب، قال، فقد خذلها، وفَقَدَت ثقتها به، ولم يكن حتّى طلب منها الزواج حتّى بدأت تلين قليلاً، أن تفهم أنه لن يخذلها ثانية البتّة. الزواج! الارتباط بفتاة لم تتخرّج بعد من الثانوية! انتظر حتّى تقابلها الشهر المقبل، قال الصبي، وأجبتَ، بأكبر قدر من الهدوء، إنكَ تتطلّع قُدُماً لذلك.

٢٩ مارس. محادثة يوم الأحد الهاتفية مع ويلا. أخيراً أخبرتَها عن اعتراف الصبي، غير عارف ما إذا كان ذلك سيحلّ الأمور أم سيزيدها سوءاً. كان الأمر يفوق قدرتها على الاستيعاب دفعة واحدة، وبالتالي فإن ردّة فعلها تطوّرت عبر مراحل عدّة متفاوتة خلال الدقائق التالية. في البداية: صمت مطبق، صمت استمرّ بما فيه الكفاية حتّى تشعر بأنكَ مُرغَم على تكرار ما قلتَه لها للتّوّ. ثانياً: صوت ناعم يقول: "هذا رهيب، هذا يفوق الاحتمال، كيف يعقل أن يكون ذلك صحيحاً؟". ثالثاً: النحيب، بينما عادت بها الذاكرة إلى الطريق، وقامت بملء الأجزاء الناقصة من الصورة، متخيّلة الشجار بين الولدَيْن، وترى بوبي وقد سُحق ثانية بالسّيّارة. رابعاً: غضب مُتنامٍ: "لقد كذب علينا"، تقول "لقد خاننا بهذه الأكاذيب"، وأنت أجبتَها بالقول إنه لم يكذب، بل ببساطة لم يتكلّم، كان الإحساس بالذنب يعذّبه ويمنعه من الكلام، والعيش مع ذلك الذنب قد دمّره تقريباً. "لقد قُتل

Tele: @Arab_Books

ابني"، تقول، وتُجيبها قائلاً إنه دفعه إلى الطريق، وإن موت ابنها كان حادثة. وتواصلان أنتما الاثنان الكلام لأكثر من ساعة، ومرّة بعد أخرى، تقول لها إنك تحبّها، وإنه مهما كان قرارها أو أيّاً تكن الطريقة التي تختارها للتعامل مع الفتى، فسوف تحبّها دوماً. تنهار ثانية، وأخيراً تضع نفسها في مكان الولد، تقول لكَ أخيراً إنها تفهم كم عانى، ولكنها لا تعرف ما إذا كان التّفهّم كافياً، ليس واضحاً لها ما الذي تريد فعله، ليست متأكّدة ما إذا كانت تمتلك المقدرة على مواجهته ثانية. تحتاج إلى الوقت، تقول، المزيد من الوقت للتفكير في الأمر، وتقول لها إنه ليس من داع للعَجَلَة، وسوف لن تُجبرها قطّ على فعْل شيء، لا ترغب في فعْله. تنتهي المحادثة، ومجدّداً تشعر أنكَ عالق في وسط العَدَم. عند نهاية بعد الظهر، تبدأ بالتسليم بحقيقة أن العَدَم هو بيتكَ الآن، وهنا سوف تمضي سنوات عمركَ الأخيرة.

١٢ أبريل. تذكّركَ بشخص تعرفه، ولكنكَ لا تستطيع أن تحدّد تماماً مَنْ يكون هذا الشخص، ثمّ، بعد خمس أو ستّ دقائق من تعرُّفكَ إليها، تضحك للمرّة الأولى، وتعرف دون أدنى شكّ أن الشخص هو سوكي سوثستاين. سوكي في شعاع الشمس المتوهّج في بعد الظهر المتأخّر ذاك في شارع هيوستن قبل زهاء سبع سنوات، ضاحكة مع صديقاتها، فاتنة بذلك الفستان الأحمر الزاهي، وعد الشباب في ذروته، أجمل تجسيد له. بيلار سانشيز هي توأم سوكي روثستاين، كائن مشعّ ضئيل، يحمل شعلة الحياة في داخله، وأصلّي لكي يكون الرّبّ أكثر رأفة بها ممّا مع طفلة صديقي. وصلت من فلوريدا مساء السبت باكراً، وفي اليوم التالي، أحد الفصح، جاءت والفتى إلى الشّقّة في داونينغ ستريت. الصبي عانى مشكلة بأن يُبقي يَدَيْه بعيداً عنها، وحتّى إن جلسا جنباً إلى جنب على الكنبة

متكلّمين معكَ وأنت جالس على مقعدكَ الوثير، فقد كان يُقبِّل عنقها، ويربّت ركبتها العارية، ويضع ذراعه حول كتفَيْها. كنتَ قد رأيتَها مسبقاً بالطبع، قبل سنة في حديقة صغيرة في جنوبي فلوريدا، كنتَ شاهداً سرّيّاً على لقائهما الأوّل، حديثهما الأوّل، ولكنكَ كنتَ بعيداً عنها، حيث لم تتمكّن من النَّظَر في عينَيْها ورؤية القوّة فيهما، العينان الداكنتان الثابتتان اللتان تستوعبان كل ما حولهما، اللتان تشعّان ذلك الضوء الذي جعل الفتى يقع في غرامها. جاءا بأخبار طيّبة، قال الفتى، أفضل الأخبار، وبعد لحظة، قالا لكَ إن بيلار قُبلت في جامعة بارنارد بمنحة كاملة، وسوف تأتي للعيش في نيويورك مباشرة بعد تخرُّجها في الثانوية في يونيو. قلتَ لها إن زوجتكَ درست أيضاً في بارنارد، وإنكَ رأيتَها للمرّة الأولى حين كانت طالبة هناك، والشعلة انتقلت الآن من زوجة أب الفتى إليها. ثمّ (كدتَ تقع عن الكرسي حين سمعتَ هذا)، أعلن الفتى أنه انتسب إلى معهد الدراسات العامّة في كولومبيا، وسوف يُباشر لمرحلة الأخيرة لنيل الماجستير في الخريف. سألتَه كيف سيُسدّد النفقات، وقال إنه ادّخر بعض المال في المصرف، وسوف يغطّي بقية الكلفة من خلال قرض طلابي. تأثّرتَ أنه لم يطلب مساعدتكَ، مع أنكَ ستكون راغباً في تقديمها، ولكنكَ تعرف أنه من الأفضل لمعنوياته أن يقوم بأعباء نفسه. ومع استمرار الحديث، أدركتَ أنك تزداد سعادة، وأنكَ اليوم كنتَ أكثر سعادة ممّا كنتَ في أيّ يوم خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية، وأردتَ أن تحتسي كأساً في هذه السعادة، لكي تثمل عليها، وخطر لكَ أنه مهما كان قرار ويلا بشأن الفتى، فسوف تتمكّن من تحمُّل حياة منشطرة مع أكثر شخصَيْن، يهمّكَ أمرهما في العالم، أنك ستعيش مسرّاتكَ متى ما وجدتَ هذه المسرّات. حجزتَ طاولة للعشاء في إرفلي غن، تلك المؤسّسة الموقّرة من أيّام نيويورك القديمة، تلك التي لم تعد موجودة، ظنّاً منكَ بأن بيلار ستستمتع في

Tele: @Arab_Books

مكان كهذا، وقد استمتعتَ فعلاً، بل قالت إنها أحسّت نفسها في الجنّة، وبينما طلبتُما أن تأخذا المتبقّي من عشاء الفصح، كانت الفتاة مليئة بالأسئلة، أرادت أن تعرف كل شيء عن إدارة دار نشر، وكيف التقيتَ رينزو ميكالسون، وكيف تقرّر أن تقبل نشر كتاب، أو ترفضه، وبينما أجبتَ عن أسئلتها، فهمتَ أنها تصغي إليكَ بتركيز تامّ، وأنها لن تنسى كلمة ممّا قلتَهُ. وفي مرحلة ما، امتدّ الحديث إلى الرياضيات والعلوم، ووجدتَ نفسكَ تُصغي إلى نقاش حول الفيزياء الكَمّيّة، وهو موضوع تعترف بكل راحة أنكَ لا تفقه شيئاً فيه، ثمّ التفتت بيلار نحوكَ، وقالت: "فكِّرْ في الأمر على هذا النحو، سيّد هيلر. في الفيزياء القديمة، حاصل ضرب ثلاثة باثنَيْن يساوي ستّة، والعكس صحيح، فالافتراضان قابلان للعكس. ولكنْ، ليس في الفيزياء الكَمّيّة. فاثنان ضرب ثلاثة وثلاثة ضرب اثنان هما أمران مختلفان تماماً، افتراضان بعيدان ومنفصلان". ثمّة الكثير من الأمور في العالم لتقلق بشأنها، لكنّ حبّ الفتى لهذه الفتاة، ليس من هذه الأمور.

١٣ أبريل. تنهض صباح اليوم على الأخبار بأن مارك فدريتش قد توفيّ. فقط في الرابعة والخمسين، قُتل في المزرعة في نورثبورو ماستشوستس، عندما وقعت الجرّافة التي كان يُصلحها فوقه. أوّلاً هيرب سكور، والآن مارك فدريتش، العبقريان المعلونان اللذان أذهلا البلاد لبضعة أيّام، لبضع ثوان، ثمّ اختفيا عن الأنظار. تتذكّر لازمة والدكَ القديمة: المسكين هيرب سكور. الآن تضيف اسماً جديداً إلى قائمة الساقطين. رحم الله "الطائر"(*).

*) لقب اللاعب مارك فدريتش.

Tele: @Arab_Books

أليس برغستروم وإيلين برايس

إنه يوم الخميس، الثالث عشر من أبريل، وأليس قد أكملت خمس ساعات أخرى في مركز "بن أمريكان". وعلى خلاف روتينها الراسخ خلال الشهور العديدة الماضية، لن تُسارع بالعودة إلى البيت في صانست بارك، لكي تعمل على أطروحتها، بل هي في طريقها للقاء إيلين، التي تأخذ يوم إجازة الخميس، وكلتاهما سوف تتناولان غداء متأخّراً في بالتزار، المطعم الفرنسي في سبرينغ ستريت في سوهو، على بُعد أقلّ من دقيقَتَيْن سيراً على الأقدام من مكاتب "بن" في ٥٨٨ برودواي. بالأمس، تسلّمتُم إشعاراً جديداً من المحكمة عبر مأمور آخر من بلدية نيويورك، وبهذا يصل عدد الإشعارات إلى أربعة، وفي مطلع هذ الشهر، حين وصل الإشعار الثالث، اتّفقت وإيلين على أن الإشعار التالي سيكون الأخير، وأنهما سيُسلّمان شارة المقيمَتَيْنِ المحتلّتَيْن في تلك المرحلة، وتواصلان حياتهما، وإن بتردُّد. ولهذا اتّفقتا على الالتقاء في مانهاتن بعد ظهر اليوم – لكي تتناقشا في الأمور، وتقرّرا ماذا ستفعلان تالياً، بهدوء وتعمّق، في بيئة بعيدة عن بينغ وخطبه الحماسية العدوانية، وأيّ مكان أفضل لنقاش هادئ ومُتعمُّق من هذا المطعم الأنيق الباهظ خلال الفترة الهادئة بين الغداء والعشاء؟

جايك بات الآن خارج الصورة. المواجهة التي كانت تستعدّ لها عند اللقاء الأخير في الخامس من يناير حصلت أخيراً في وسط فبراير، والمؤلم في المحادثة الأخيرة هو مدى سرعة تأييده لرأيها بوضعهما الحالي، كم

Tele: @Arab_Books

قليلة المقاومة التي أبداها لفكرة أن يفترقا، ويمضي كلّ منهما في طريقه. ثمّة مشكلة فيه، قال، ولكنْ، صحيح أنه ما عاد يشعر بالإثارة حين يكون معها، وأنه ما عاد يتوق لرؤيتها، ولام نفسه على هذا التّحوّل في مشاعره، وبصراحة لم يستطع أن يفهم ما الذي جرى له. قال لها إنها شخص رائع، ولديها ميزات كثيرة ممتازة – الذكاء والتعاطف والحكمة – وإنه روح مخرّبة غير قادرة على أن تحبّها، بقدر ما تستحقّ. لم يستكشف المشكلة بصورة أعمق من ذلك. لم يقمْ، على سبيل المثال، بالغوص في أسباب فقدانه الاهتمام بها جنسياً، ولكن هذا سيكون كثيراً طلَبه، كما أدركتَ، ما دام قد اعترف صراحة أن هذه التغيّرات أربكتْه مثلما أربكتْها. سألتَه إذا كان فكّر يوماً في العلاج النفسي، وأجاب بالإيجاب، إنه يفكّر في الأمر، حياته كناية عن فوضى، ولا ريب في أنه يحتاج إلى مساعدة. أحسّت أليس أنه يُخبرها الحقيقة، ولكنها لم تكن متيقّنة تماماً من ذلك، وكلّما استعادت تلك المحادثة في تفكيرها الآن، تتساءل ما إذا كانت وضيعة اتّهام الذات التي اعتمدها هي الطريقة الأسهل ببساطة للخروج من العلاقة، كذبة يخفي فيها حقيقة أنه أحبّ سواها. ولكنْ، أيّ فتاة أخرى؟ لا تعرف، وخلال الشهرَيْن ونصف الشهر منذ رأتْه للمرّة الأخيرة، ولا أحد من أصدقائهما المشتركين أخبرها عن وجود شخص جديد في حياته. قد لا يكون ثمّة أحد، وإلا فإن حياته العاطفية قد أصبحت حياة سرّيّة مَحميّة من عيون الآخرين. على هذا النحو أو ذاك تشتاق إليه. الآن وقد رحل، تتذكّر اللحظات الحلوة التي عاشاها معاً، وتتجنّب تلك السّيّئة، ومن الغريب بما فيه الكفاية، فإن أكثر ما تفتقده فيه هي نوبات المرح العَرَضية التي تتدفّق منه في أوقات غير اعتيادية، تلك اللحظات التي يرمي فيها جايك باوم المتجهّم دفاعاته، ويبدأ بتقليد شخصيات فكاهية عدّة، ولاسيما تلك التي تتكلّم بلهجات أجنبية ثقيلة، روس وهنود وكوريون، وكان بصورة مفاجئة يجيد ذلك، إذ

Tele: @Arab_Books

يُحسن تقليد الأصوات، ولكنّ هذا كان جايك القديم بالطبع، جايك قبل عام من الآن، والحقيقة أنه مضى وقت طويل منذ أضحَكَها بتحويل نفسه إلى إحدى تلك الشخصيات المضحكة. ميس أليس مي، ميس أليس مي. تشكّ في أن تُقيم علاقة عاطفية أخرى في المستقبل القريب، وهذا يُقلقها، بما أنها الآن في الثلاثين، وتُرعبها فكرة مستقبل بلا أطفال.

إلا أن وزنها قد انخفض، بسبب فقدان الشهية أكثر ممّا بسبب التزام الحمية، ولكن ١٥٤ باونداً هو وزن مناسب لها، وما عادت تعدّ نفسها بقرة مُقرفة – أي كلّما فكّرت بجسدها، وهو ما يبدو أنه يحدث أقلّ الآن بعد رحيل جايك، وعدم وجود مَنْ يلمسها. تجمّدت أطروحتها زهاء الأسبوعَيْن بعد الانفصال، ولكنها لملمت زمام أمرها، واستأنفت العمل بجدّ منذ ذلك الحين، بل كانت تكدح في حقيقة الأمر، بحيث إنها تقدّمت كثيراً في الفصل الختامي، وتشعر أنها قادرة على إنهاء المسودة الأولى في غضون عشرة أيّام تقريباً. خلال السنوات الثلاث الماضية، كانت الأطروحة غاية في حدّ ذاتها، الجبل الذي انطلقت لتسلُّقه، ولكنها نادراً ما فكّرت بما سيحدث لها بعد أن تبلغ قمّة الجبل. إذاً، وعندما تفكّر فعلاً في الأمر، فإنها تفترض بداهة أن الخطوة التالية ستكون التقديم على وظيفة تعليمية في مكان ما. أليس لهذا السبب كابدت للحصول على الدكتوراه طوال السنوات الماضية؟ يعطونكِ الدكتوراه، ثمّ تذهبين، وتُعلّمين. ولكنْ، الآن بما أن النهاية باتت نصب عينَيْها، فقد بدأت تُراجع المسألة، ولم يعد جَلياً بالنسبة إليها أن التعليم هو الجواب. ما تزال ميّالة إلى التجربة، ولكنْ، بعد تجربتها الأقلّ من سعيدة كمساعدة بروفسور في العام الماضي، تتساءل ما إذا كان الكَدّ في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة ما سيكون مُرضياً كفاية بالنسبة إليها. فكّرت باحتمالات أخرى خلال الشهر الماضي أو نحوه. وظيفة أكبر وأكثر تطلّباً في "بن" على سبيل المثال. ذلك العمل قد شغلها أكثر

Tele: @Arab_Books

بكثير ممّا كانت تظنّ، ولا تريد التخلّي عنه، وهو ما ستضطرّ لفعْله إذا ما انتهى بها الأمر في قسم الآداب الإنجليزية، وهو ما سيكون على الأرجح في جامعة ما على بعد ثمانمائة ميل إلى الجنوب أو الغرب من نيويورك. هذه هي المشكلة، تقول لنفسها، وهي تفتح باب المطعم، وتدخل، ليس الوظيفة، بل مكان العمل. لا تريد أن تترك نيويورك. تريد أن تواصل العيش في هذه المدينة المتوتّرة غير القابلة للحياة قدر ما تستطيع، وبعد هذه السنوات كلها، فإن فكرة العيش في أيّ مكان آخر تكاد تُفقدها صوابها.

إيلين سبقتها إلى الوصول، وهي جالسة إلى إحدى الطاولات على الجدار الشرقي من المطعم، تشرب كأساً من النبيذ الأبيض، في انتظار وصول صديقتها. إيلين تعرف ما كان يفعله حبيب أليس السابق أكثر ممّا تعرف أليس نفسها، ولكنّها لم تقل شيئاً لها عن ذلك، لأنها وعدت بينغ بإبقاء الأمر سرّاً، وإيلين ليست ممّنْ ينكثون وعودهم. بينغ واصل التموضع لها مرّة أو اثنَتَيْن في الأسبوع خلال الأشهر الأربعة الأولى من السنة، وقد تهاوت الكثير من الجدران بينهما خلال هذا الوقت، الجدران كلّها في الواقع، وقد تشاركا أسراراً، لم يكن أيّ منهما مستعدّاً لمشاركتها مع شخص آخر. إيلين تعرف عن وَلَع بينغ بمايلز، على سبيل المثال، وتعرف بشأن قلقه حول نزعاته الذُّكُورية الأنثوية، الذُّكُورية الذُّكُورية، وشكوكه حول مَن وما هو. تعرف أنه في وقت ما من نهاية يناير، ذهب بينغ إلى شقّة جايك الصغيرة في مانهاتن، وبمساعدة كمّيّات وافرة من الكحول وضمانة بأن يتّصل برينزو ميكالسون بشأن المقابلة التي رغب جايك بشدّة إجراءها معه، تمكّن من إغواء صاحب أليس السابق للنوم معه. كانت تلك أوّل تجارب بينغ في اكتشاف الذات، وآخرها، بما أنه لم يجد إلا القليل، أو لم يجد البتّة أيّة متعة في ذراعَي باوم أو فمه أو أعضائه الخاصّة، وكان عليه الاعتراف بحَرَد بأنه وفي الوقت الذي ما يزال فيه منجذباً بشدّة إلى مايلز،

Tele: @Arab_Books

فإنه غير مهتمّ بممارسة الجنس مع الرجال، ولا حتّى مايلز. وفي المقابل، فإن جايك، بقدر ما توقّع بينغ، خاض عدداً من التجارب الجنسية المِثْلِيّة في مراهقته، وبناء على تجربته مع بينغ التي حقّقت له الكثير من المتعة، فقد أدرك أن اهتمامه بالرجال لم يتراجع مع السنوات، مثلما كان يفترض. بعد أسبوعَيْن، حين أجبرته أليس على إنهاء العلاقة، خرج بصمت من تلك العلاقة، لكي يسعى وراء ذلك الاهتمام الآخر. إيلين تعرف بهذا الشأن، لأن جايك وبينغ ما يزالان على اتّصال، وقد أخبره جايك بما كان يحدث، ومرّر بينغ هذه المعلومات لها، وإيلين آثرت الصمت. أليس لا تعرف ذلك، ولكنها أفضل حالاً بكثير من دون جايك، وإذا كان لدى إيلين أيّ فَهْم أو معرفة بالعالم، فلن يطول الوقت قبل أن تجد أليس لنفسها حبيباً آخر.

هذه إيلين الجديدة، إيلين برايس التي رمّمت مظهرها الخارجي، لكي تعكس العلاقة الجديدة التي طوّرتها مع جسدها، والتي هي نتاج العلاقة الجديدة التي طوّرتها مع قلبها، والتي بدورها نتاج العلاقة الجديدة التي طوّرتها مع ذاتها الداخلية، في أسبوع جريء حاسم في منتصف مارس، قصّت شعرها الطويل، وحوّلته قصيراً على نمط عشرينيات القرن الماضي، وتخلّصت من كل قطعة ملابس في مكتبها وخزانتها، وبدأت تضع أحمر الشفاه، وتحديد العين، وتظليل العين، والماسكرا كل مرّة تخرج فيها من البيت، لذا فإن المرأة الموصوفة في يوميات موريس هيلر على أنها وديعة، المرأة التي تُوقِظ في مَنْ يعرفها مشاعرَ العطف والحماية، لم تعد تشعّ منها هالة الضحية والشّكّ بالذات، وبينما جلست على المقعد على الجدار الشرقي من مطعم بالتازار مرتدية تنّورة قصيرة جلدية وكنزة ضيّقة من الكشمير، مرتشفة النبيذ الأبيض، ومشاهدة أليس تدخل من الباب، تلتفت رؤوس الرجال حين يمرّون بها، وهي تبتهج بالاهتمام الذي تناله، بمعرفة أنها أكثر امرأة مرغوبة في المكان. هذه الثورة في مظهرها

Tele: @Arab_Books

استلهمتها من حَدَث غير متوقّع، وقع في فبراير، قبل أسبوع فقط من إنهاء أليس وجايك علاقتهما المترنّحة عندما دخل إلى مكتب العقارات الذي تعمل فيه إيلين شابّ، ولم يكن ذلك الشّابّ سوى بنجامين صموئيلز فتى الثانوية الذي حبَّلها قبل تسع سنوات في خيمة والدَيْه الصيفية في جنوبي فيرمونت، وقد جاء يبحث عن شقّة للإيجار في بارك سلوب، أو أحد الأحياء المحاذية له، بنجامين صموئيلز البالغ من العمر ٢٥ عاماً، وقد نضج تماماً، وصار يعمل بائع هواتف خلوية في سلسلة متاجر "تي موبايل" في الجادّة السابعة، وقد ترك الجامعة، وغدا شابّاً مجرّداً من المهارات الفكرية المطلوبة للسعي وراء إحدى المهنتَيْن، الطّبّ أو القانون، التي أمل والداه بأنها ستكون قَدَرُه، ولكنه ما يزال وسيماً، بل أكثر وسامة من ذي قبل، الفتى الوسيم صاحب جسد لاعب كرة القَدَم الجميل، وقد غدا الآن رجلاً ناضجاً رائعاً. لم يعرفها في البداية، ومع أنها شكّت بأن الشّابّ عريض المنكَبَيْن الجالس قبالتها كان التجسيد الناضج للفتى الذي سلّمت له نفسها قبل سنوات طويلة، فقد انتظرت حتّى ملأ طَلَبَ قسيمة الاستئجار قبل أن تُعلن له عن هويّتها. تكلّمت بهدوء وتردّد غير واثقة ما إذا كان سيُسرّ أو ينزعج، ما إذا كان حتّى سيتذكّرها، ولكن بن صموئيلز تذكّرها فعلاً، وكان مسروراً لأنه وجدها ثانية، مسروراً جدّاً إلى درجة أنه هبّ واقفاً، والتفّ حول المكتب، وأحاطها بذراعَيْه بعناق ترحيبيّ حارّ. أمضيا فترة بعد الظهر يدوران على الشقق الفارغة معاً، وتبادلا القُبل في الشّقّة الأولى، ثمّ مارسا الحبّ في الثانية، والآن بما أنه انتقل إلى الحيّ، فهو وإيلين واصلا ممارسة الحبّ كلّ يوم تقريباً. ولهذا قصّت إيلين شعرها، لأن بن يُثار بقفا رأسها، وما إن قصّت شعرها حتّى فهمت أنه سيُثار أكثر إذا ما بدأت بارتداء ملابس مختلفة أكثر إغواء. حتّى الآن أبقت بن سرّاً عن أليس وبينغ ومايلز، لكنْ، مع الكثير من التغيّرات المفاجئة، إشعار المحكمة الرابع، الانفصال الحتمي

Tele: @Arab_Books

لزمرتهم الصغيرة، فقد قرّرت أن هذا اليوم الذي ستُخبر فيه أليس بذلك الشيء الاستثنائي الذي حدث لها.

أليس تُقبّلها على الخدّ الآن، وتبتسم ابتسامتها المعهودة، وبينما تشاهد إيلين صديقتها تُعاود الجلوس على الكرسي قبالتها، تتساءل ما إذا كانت ستتمكّن يوماً من أن تكون بارعة بما فيه الكفاية، بحيث تتمكن من التقاط الروعة الكاملة لهذه الابتسامة، التي هي أدفأ وأكثر ابتسامة مشعّة على وجه الأرض، ابتسامة تمُيِّز أليس عن كل مَنْ تعرفهم، أو عرفتهم، أو ستعرفهم حتّى نهاية حياتها.

حسناً، يا بنت، تقول أليس، أظنّ أن التجربة العظيمة قد انتهت.

بالنسبة إلينا ربمّا، ولكنْ، ليس بالنسبة إلى بينغ ومايلز.

مايلز سيعود إلى فلوريدا بعد ثلاثة أسابيع.

نسيتُ. بينغ وحده إذن. كم هذا محزن.

أفكّر بعشرة أيّام إضافية. إذا عملتُ بكدّ، فسأتمكن من إنهاء الفصل الأخير حينئذ. أهذا يناسبكِ؟ أم تُفضّلين الخروج الآن؟

لا أريد الخروج أبداً، كل ما في الأمر أنني خائفة. إذا ظهر رجال الشرطة، فسوف يرمون أشياءنا في الشارع، ويمكن أن تتحطّم الأشياء، وبينغ سيُجنّ جنونه، وكل الاحتمالات المزعجة التي تخطر بالبال. عشرة أيّام وقت طويل جدّاً، أليس. أظنّ أنه يجب أن نبدأ بالبحث عن مكان جديد غداً.

كم خياراً لديكِ؟

الكثير في السلوب، ليس الكثير في صانست بارك.

ولكنّ صانست بارك أرخص، ممّا يعني أنها أفضل.

كم يمكنكِ أن تدفعي؟

بقدر ما يتحمّل السوق.

سوف أرى القوائم بعد الغداء، وأُعلمكِ بما لدينا.

ولكنْ، ربمّا تكونين قد سئمتِ من صانست بارك. إذا أردتِ الذهاب إلى مكان آخر، لا مشكلة لديّ. ما دمتُ أستطيع دَفْع حصّتي من الإيجار، فإن أيّ مكان لا بأس به.

عزيزتي أليس ...

ماذا؟

لم أنتبه أنكِ تريدين المشاركة.

ألا تريدين ذلك؟

من حيث المبدأ بلى، ولكنْ، طرأ أمر ما، وأنا أفكّر بالخيارات الأخرى؟

خيارات؟

خيار واحد.

أوه؟

يُدعى بنجامين صموئيلز، وقد طلب مني الانتقال للعيش معه.

أيّتها الشيطانة الصغيرة. منذ متى وهذه العلاقة قائمة؟

منذ شهرَيْن.

Tele: @Arab_Books

منذ شهرَيْن؟ ما بالكِ؟ شهران، ولم تخبريني أبداً!

لم أكن واثقة بما فيه الكفاية أنني أريد أن أخبر أحداً. فكّرتُ أنها قد تكون مجرّد علاقة جنسية ستخمد قبل أن تستحقّ الذِّكْر. ولكنْ، يبدو أنها تصير أكبر. كبيرة بما فيه الكفاية، لكي أقوم بمحاولة على ما أظنّ.

أأنتِ مغرمة به؟

لا أعرف. ولكنني مجنونة به، هذا ما أعرفه. والجنس رائع تماماً.

مَنْ هو؟

إنه هو.

مَنْ هو؟

ذلك الذي من الصيف من العام ٢٠٠٠.

ذلك الرجل الذي حبَّلَكِ؟

ذلك الولد الذي حبَّلني.

إذن القصّة أخيراً وصلت إلى نهايتها ...

كان في السادسة عشرة وأنا في العشرين. الآن هو في الخامسة والعشرين وأنا في التاسعة والعشرين. تلك السنوات الأربع اليوم أقلّ أهمّيّة ممّا في ذلك الحين.

يا إلهي. حسبتُ أنه يمكن أن يكون الأب، ولكنْ، ليس الابن.

ولهذا لم أستطع ذِكْر الموضوع. كان صغيراً جدّاً، ولم أرد توريطه في المتاعب.

Tele: @Arab_Books

هل عرف يوماً بما جرى؟

ليس في حينه، لا، ولا الآن أيضاً. لا جدوى من إخباره، صح؟

في الخامسة والعشرين. وما الذي يفعله بحياته؟

ليس الكثير. لديه عمل كئيب الآن، وليس لامعاً بصورة رهيبة. ولكنه يحبّني، أليس، ولم يعاملني أحد يوماً أفضل منه. نمارس الجنس خلال فرصة الغداء كل بعد ظهر في شقّته في الشارع الخامس. وهو يَقلبني قلباً. يُغمى عليّ حين ألمس جسده. لا أستطيع الاكتفاء من جسده. أشعر أنني قد أُجنّ، ثمّ أصحو في الصباح، وألاحظ أنني سعيدة، أسعد ممّا كنتُ عليه منذ زمن طويل جدّاً.

مسرورة من أجلكِ إل.

أجل، أمور طيّبة، تحدث لي .. مَنْ كان ليحسب ذلك؟

Tele: @Arab_Books

مايلز هيلر

السبت، ٢ مايو، يقرأ في صحيفة الصباح أن جاك لوهركي توفيّ عن عمر ٨٥ عاماً. النعي القصير يستذكر نجاته العجائبية ثلاث مرّات من الموت المؤكّد – الرفاق الساقطون في معركة الثغرة، الطائرة المتحطّمة بعد الحرب، والحافلة التي سقطت في الوادي – لكنه مقال هزيل وبارد، يمرّ مرور الكرام على سيرته العابرة في الفِرَق الكبرى مع الجيانتس والفليز، ويذكر تفصيلاً واحداً، لم يكن مايلز على علْم به: في أكثر مباراة شهرة في القرن العشرين، الدورة الأخيرة لبطولة كأس العالم بين الجيانتس والدودجرز في ١٩٥١، دون مولر، لاعب الميدان الأيمن في الجيانتس، كسر كاحله وهو يجري إلى القاعدة الثالثة في الدورة الأخيرة، ولو أن الجاينتس تعادلوا بدلاً من الفوز بالمباراة مع نقطة تحقّقت بالجري النظيف إلى القاعدة في الدورة التاسعة، لتولىّ لهوركي التسديد بدلاً من مولر في الدورة التالية، ولكن برانكا رمى، وتومسون رمى، وانتهت اللعبة قبل أن يتمكّن لهوركي من وَضْع اسمه على لائحة النتائج. كان الشّابّ اليافع ويلي مايز على دكّة الانتظار، ولاكي لوهركي يقوم بالتحمية، لكي يحلّ محلّ مولر في المديان الأيمن، ثمّ ضرب تومسون الضربة الأخيرة في الموسم فوق جدار الميدان الأيسر، وفاز الجيانتس بالبطولة. ولا يأتي النَّعْي على ذِكْر حياة جاك "لاكي" لوهركي الخاصّة، ولا كلمة واحدة عن الزواج أو الأطفال أو الأحفاد، ولا معلومات حول الإنسان الذي قد يكون أحبّهم، أو أحبّوه، ببساطة الحقيقة البليدة غير المهمّة بأن قدّيس الحظّ عمل في الأمن في لوكهيد بعد تقاعده من البايسبول.

Tele: @Arab_Books

لحظة إنهائه قراءة النَّعْي اتّصل بالشّقّة في داونينغ ستريت، لكي يتأسّى ووالده حول موت الرجل الذي تكلّما عليه كثيراً خلال سنوات حظّهما الطّيّب، السنوات التي سبقت معرفة أيّ منهما عن الطُّرُق في بركشاير، السنوات التي سبقت دَفْن أحد أو فرار أحد، ووجد أن والده بالطبع قرأ الصحيفة خلال شربه قهوة الصباح، ويعرف بشأن رحيل لهوركي عن العالم. زمن رديء، يقول والده. أوّلاً فيرست هيرب في نوفمبر، ثمّ مارك فدريتش في أبريل، والآن هذا. يقول مايلز إنه يأسف، لأنهما لم يكتبا رسالة لجاك لهوركي، لكي يقولا له كم كان شخصاً مميّزاً في عائلتهما، ويقول والده أجل، كان ذلك فعْلاً غبياً. لماذا لم يفكّر في الأمر قبل سنوات؟ يجيب مايلز أن ذلك ربّما لأنهما افترضا أن الرجل سيعيش إلى الأبد، ويضحك والده، قائلاً إن جاك لهوركي لم يكن خالداً، بل محظوظاً فحسب، وحتّى لو حسباه قدّيسهما الراعي، فعليه ألا ينسى أن القدّيسين يموتون أيضاً.

أسوأ ما في الأمر بات خلفه الآن. لم يبقَ سوى عشرين يوماً قبل إطلاق سراحه من السجن، ثمّ يعود إلى فلوريدا، حتّى تُنهي بيلار الثانوية، ثمّ نيويورك ثانية، حيث سيمضيان بدايات الصيف بحثاً عن مكان يعيشان فيه في الجزء العلوي من المدينة. وفي بادرة كَرَم مذهلة، عرض عليهما والده الإقامة في داونينغ ستريت حتّى يجدا شقّة لهما، وهو ما يعني أن بيلار لن تضطرّ إلى أن تمضي ليلة أخرى في صانست بارك، وهو ما أخافها من قبل مع بدء إشعارات الإخلاء بالوصول، والآن تحوّل الأمر إلى ذُعر تامّ. كم سيمرّ من الوقت قبل أن تأتي الشرطة، وترميهما في الخارج؟ أليس وإيلين قرّرتا الرحيل، ورغم ثورة غضب بينغ حين أعلنتا قرارهما على العشاء قبل ليلَتَيْن، فقد تمسّكتا بموقفهما، ويظنّ مايلز أن موقفهما هو الموقف المنطقي الوحيد الذي يمكن اتّخاذه. سوف تتنقلان ما إن تجد إيلين لأليس بديلاً يمكنها تسديد كلفته، وهو ما من المرجّح أن يحدث

Tele: @Arab_Books

في منتصف الأسبوع المقبل، ولو كانت ظروفه مماثلة لظروفهما، لكان في طريقه إلى الخارج هو الآخر. إلا أنه لم يبقَ سوى عشرين يوماً، وفي الأثناء، عليه ألا يترك بينغ، ولا حتّى حين تتداعى مغامرتهم، ليس في حين أن بينغ بمساسّ الحاجة إلى وجوده، وبالتالي ينتوي البقاء حتّى يوم الثاني والعشرين، ويدعو الله ألا يظهر رجال الشرطة قبل ذلك الحين.

يحتاج إلى تلك العشرين يوماً، ولكنه لا يحصل عليها. يحصل على نهار وليل اليوم الثاني، ونهار وليل الثالث، وباكراً في اليوم الرابع ثمّة قرع عال على الباب. مايلز يغطّ سريعاً في النوم في غرفته في الطابق الأرضي وراء المطبخ، وبالوقت الذي يفيق به، ويعجّل بارتداء ملابسه، يكون البيت قد تعرّض للغزو. يسمع خبط خطوات ثقيلة على السلالم، يسمع بينغ يصرخ غاضباً بأعلى صوت (انزعوا أيديكم اللعينة عنّي!)، يسمع أليس تزعق بأحدهم، لكي يتراجع، ويدع حاسوبها وشأنه، ويسمع رجال شرطة يصرخون (أخلوا المكان! أخلوا المكان!)، كم عددهم لا يعرف، يظنّ أنهما اثنان، ولكنْ، يمكن أن يكونوا ثلاثة، وبالوقت الذي يفتح فيه باب غرفته، ويمشي عبر المطبخ، ويصل إلى مدخل الردهة، يكون الصخب في الأعلى قد تحوّل إلى هرج ومرج. يُلقي نظرة إلى يمينه، ويرى أن الباب الأمامي مفتوح، وهناك إيلين واقفة على الشرفة، ويدها على فمها، وأخذت تُحملق مذعورة، بل مرعوبة، ثمّ ينظر إلى يساره، شاخصاً نحو السلالم، والتي في أعلاها يرى أليس، أليس الضخمة، وهي تحاول تخليص نفسها من ذراعَي شرطي ضخم، يرى بينغ في الأعلى أيضاً وقد كُبّلت يداه بالأصفاد، وشرطيّ ضخم ثان يُمسك به من شعره بيد، ويخزه بهراوة في ظهره باليد الثانية، وما إن يهمّ بالدوران والجري من البيت، يرى الشرطي الضخم الأوّل يدفع أليس مُنزلاً إيّاها على الدرج، وأليس تتعثّر باتّجاهه، ليرتطم جانب رأسها بالعتبة الخشبية، والشرطي الضخم الذي دفعها يسارع بهبوط السّلّم، وقبل أن

Tele: @Arab_Books

يتمكّن مايلز من التفكير بما يفعله، فإنه يلكم ذلك الشرطيّ الضخم على فكّه، وبينما يسقط الشرطي من الضربة، يسارع مايلز بالجري من البيت. يجد إيلين واقفة على الشرفة، فيمسك يدها اليمنى بيسراه، ويجرّها على الدرج الأمامي معه، وكلاهما يبدأ بالجري.

ثمّة مدخل لمقبرة غرينوود على الناصية تماماً، وإلى هناك يتّجهان، غير واثقَيْن ما إذا كانا مطارَدَيْن أم لا، ولكنّ مايلز يظنّ أنه إذا كان ثمّة شرطيان داخل البيت لا ثلاثة، فالشرطي غير المصاب سوف يعتني بزميله الذي لَكَمَه على فكّه، وهو ما يعني أن أحداً لن يجري وراءهما. ومع ذلك يركضان بقدر ما يمكنهما، وحين ينقطع نَفَس إيلين، ولا تعود قادرة على المواصلة، يرتميان على العشب، لكي يرتاحا، مسندَيْن ظهرَيْهما على شاهدة رجل يُدعى تشارلز إفريت براون، ١٨٥٨ -١٩٢٧. يد مايلز تؤلمه بشدّة، ويخشى أن تكون قد كُسرت. إيلين تريد أن تصحبه إلى الطوارئ لإجراء صورة سينية، ولكن مايلز يرفض، ويقول إن هذا خطير جدّاً، وإنه عليه أن يبقى متوارياً. لقد اعتدى على شرطيّ، وهذه جريمة، اعتداء خطير، ولو تأمّل بأن يكون فكّ السافل قد تحطّم، ولو كان لا يشعر بالأسف لتحطيم وجه شخص، رمى امرأة عن السلالم، وليست إلا أليس برغستروم، أفضل امرأة في العالم، فلا ريب في أنه في مأزق خطير، أسوأ مأزق عرفه حتّى الآن. ليس بحوزته هاتفه المحمول، ولا هي أيضاً. يجلسان على العشب في المقبرة دون وسيلة للاتّصال بأحد، ولا لمعرفة إذا كان بينغ قد اعتُقل أم لا، ولا إذا كانت أليس أُصيبت أم لا، وفي الوقت الحالي، ما يزال بينغ مذهولاً، بحيث لا يستطيع أن يضع خطّة للخطوات التالية. تقول له إيلين إنها أفاقت مبكراً كالعادة، في السادسة والربع أو السادسة والنصف، وإنها كانت واقفة على الشرفة تشرب قهوتها حين وصل رجال الشرطة. كانت هي مَنْ فتحت الباب، وأدخلتهما. أيّ خيار كان أمامها سوى أن تفعل ذلك؟ صعدا إلى الأعلى،

Tele: @Arab_Books

كانا اثنَيْن، وهي بقيت على الشرفة، ولكنّ بينغ وأليس كانا يصرخان، ورجلا الشرطة كانا يصرخان، الجميع كان يصرخ. لابدّ من أن بينغ قاومهما، لابدّ من أنه بدأ القتال، ولا ريب في أن أليس كانت خائفة من أن تُطرَد قبل أن تتمكّن من جَمْع أوراقها وكُتُبها وأفلامها وحاسوبها، ذلك الذي خزَّنت فيه أطروحتها كلها، ثلاث سنوات من العمل في آلة صغيرة، ولا ريب في أن هذا سبب عراكها مع الشرطي، أطروحة أليس، طبول بينغ، وكل الرسومات خلال الشهور الخمسة الماضية، مئات ومئات الرسومات، وكلها ما تزال في البيت، الذي خُتم بالشمع الأحمر الآن بكل تأكيد، بات ممنوعاً دخوله، وكل شيء ضاع الآن إلى الأبد. تريد أن تبكي، تقول، ولكنها عاجزة عن ذلك، إنها أكثر حنقاً من أن تبكي، لم يكن من حاجة لكلّ ذلك الدَّفْع واللّكْز، لماذا لا يتصرّف رجال الشرطة كبشر، لا كحيوانات، ولا، لا يمكنها البكاء، ولو رغبت في ذلك، ولكنْ، رجاء، مايلز، عانِقْنِي، عانِقْنِي، مايلز، أحتاج إلى مَنْ يعانقني، ويحيطها مايلز بذراعَيْه، ويربّت رأسها.

يجب أن يفعلا شيئاً من أجل يده التي بدأت تنتفخ، وبدأت تبدو المنطقة المحيطة ببراجمه مزرقّة، ولو لم تكن كُسرت أيّ عظمة (اكتشفت أنه يستطيع تحريك أصابعه قليلاً من دون أن يزيد الألم)، فيجب وَضْع مكعّبات الثلج عليها لإزالة التّورّم. هيماتوما. يفكّر أن هذه الكلمة التي يبحث عنها – الانتفاخ المملوء بالدم، بحيرة صغيرة من الدم تجري تحت الجلد تماماً. يجب أن يضعا مكعّبات الثلج، ويجب أن يأكلا شيئاً ما أيضاً. لقد مضى زهاء ساعتَيْن على جلوسهما هناك، وكلاهما جائع، مع أنه من غير المؤكّد أبداً أن أيّاً منهما سيتمكّن من أكل شيء لو تواجد الطعام أمامهما. ينهضان، ويبدآن بالسير، مارين بسرعة بالأضرحة والقبور في اتّجاه وندسور تراس وبارك سلوب، مدخل الشارع ٢٥ إلى المقبرة، المخرج منها، وحين يصلان إلى الجادّة السابعة، يواصلان السير إلى الشارع السادس.

Tele: @Arab_Books

إيلين تقول لمايلز أن ينتظرها في الخارج، ثمّ تدخل إلى متجر تي موبايل لكي تُكلّم صديقها الجديد، صديقها القديم، القصّة معقّدة، وبعد دقائق قليلة، تكون تفتح باب شقّة بن صموئيلز في الشارع الخامس بين الشارع السادس والجادّة السابعة.

لا يمكنهما البقاء طويلاً هناك، تقول له، بضع ساعات فحسب، لأنها لا تريد توريط بن بهذا، ولكنْ، على الأقلّ، هو مكان يمكنهما التقاط أنفاسهما فيه حتّى يعرفا ماذا سيفعلان تالياً. يغتسلان، إيلين تعدّ لهما شطائر الجبن، ثمّ تملأ كيساً بلاستيكياً بمكعّبات الثلج، وتعطيه لمايلز. يريد أن يتّصل ببيلار، ولكن الوقت مبكر جدّاً، فهي الآن في المدرسة، ولا تفتح موبايلها الجوّال قبل أن تعود إلى الشّقّة عند الساعة الرابعة. ماذا سنفعل الآن؟ إيلين إيلين. يفكّر مايلز لوهلة، ثمّ يتذكّر أن عرّابه يعيش على مقربة من هناك، على بُعد أحياء قليلة، ولكنْ، حين يتّصل برَقْم رينزو، لا أحد يجيب، بل المجيب الآلي الذي يتكلّم إليه، ويعرف أن رينزو إمّا يعمل، وإمّا خارج المدينة، وبالتالي فإنه لا يتجشّم عناء تَرْك رسالة صوتية. لم يبقَ أحد سوى والده، ولكنْ، بقدر ما إيلين متردّدة في توريط صاحبها، فإنه متردّد في جَرّ والده إلى هذه الفوضى، والده آخر شخص في العالم يريد طَلَبَ مساعدته الآن.

وكأنها قادرة على قراءة أفكاره، تقول إيلين: يجب أن تتّصل بوالدكَ، مايلز.

يهزّ رأسه. مستحيل، يقول، لقد وضعتُ الرجل بما يكفي من المتاعب حتّى الآن.

إن لم تفعل ذلك، فأنا سأفعل.

أرجوكِ، إيلين، دعيني وشأني.

Tele: @Arab_Books

لكنّ إيلين تصرّ، وبعد دقيقة، تطلب رَقْم دار هيلر في مانهاتن. مايلز مستاء ممّا تفعله، بحيث أنه يدخل إلى المطبخ، ويقفل باب الحمّام على نفسه. لا يحتمل السماع، يرفض السماع. يفضل أن يطعن نفسه في القلب على سماع إيلين تُكلّم والده.

يمرّ الوقت، لا يعرف كم من الوقت، ثلاث دقائق، ثماني دقائق، ساعتان، ثمّ إيلين تقرع الباب، قائلة له أن يخرج وأن والده يعرف بشأن كل ما جرى في صانست بارك هذا الصباح، وأنه ينتظره على الخطّ. يفتح الباب، ويرى أن عينَي إيلين مغرورقتان بالدمع، يده اليسرى تلامس وجهها برقّة، ثمّ يدخل إلى المطبخ. صوت والده يقول: جاء تحرّيان إلى المكتب قبل زهاء ساعة. يقولان إنكَ حطّمتَ فكَّ شرطيّ. أهذا صحيح؟

لقد رمى أليس عن السّلّم، يقول مايلز، لقد فقدتُ أعصابي.

بينغ في السجن لمقاومة الاعتقال، وأليس في المستشفى تعاني من ارتجاج في المخّ.

ما مدى سوء الإصابة؟

إنها صاحية، رأسها يؤلمها، ولكنْ، ليس من ضرر دائم، سوف تخرج على الأرجح غداً صباحاً.

لتذهب إلى أين؟ ليس لديها مكان تعيش فيه. إنها مشرّدة. كلّنا مشرّدون الآن.

أريدكَ أن تُسلّم نفسكَ، مايلز.

لا مجال لذلك، سوف يسجنونني لسنوات.

Tele: @Arab_Books

ظروف مخفّفة. وحشية رجل الشرطة. الجنحة الأولى. أشكّ في أنك ستُسجن أساساً.

إنها كلمتهم ضدّ كلمتنا. سيقول الشرطي إن أليس تعثّرت وسقطت، وسوف يصدّقه المحلّفون. إننا مجرّد مُتعدّين غير شَرعيّين، مُحتلّين، متشرّدين طُفيليّين.

لا تريد أن تمضي بقية عمركَ هارباً من الشرطة، صح؟ لقد هربتَ بما فيه الكفاية. آن أوان أن تقف وتواجه الواقع مايلز، وسوف أكون إلى جانبكَ.

لا يمكنكَ. أنت قلبكَ طيّب، أبي، ولكنني وحيد في هذه المسألة.

لا، لستَ وحيداً. سوف تحصل على محامٍ. وأنا أعرف بعض المحامين الممتازين. سوف يكون كلّ شيء على ما يرام، صدِّقني.

أنا آسف، آسف جدّاً جدّاً ...

اسمعني، مايلز. الكلام عبر الهاتف لا ينفع. يجب أن نتقابل شخصياً، وجهاً لوجه. لحظة أُقفل السماعة سوف أذهب مباشرة إلى البيت. اركبْ سيّارة أجرة، ولاقني هناك بأسرع وقت ممكن، موافق؟

موافق.

وعد؟

أجل، أعدكَ.

بعد نصف ساعة، يجلس في المقعد الخلفي من سيّارة دودج في طريقه إلى داونينغ ستريت في مانهاتن. إيلين ذهبت إلى المصرف ببطاقة الصرّاف الآلي، وعادت بألف دولار نقداً، وتبادلا القُبل، وقالا وداعاً، وبينما

Tele: @Arab_Books

تتحرّك السّيّارة عبر زحمة السَّيْر نحو جسر بروكلين، يتساءل كم سيمرّ من الوقت قبل أن يرى إيلين برايس ثانية. يتمنّى لو في وسعه الذهاب إلى المستشفى لرؤية أليس، لكنه يعرف أنه لا يستطيع ذلك. يتمنّى لو بإمكانه الذهاب إلى السجن الذي أُودع فيه بينغ، ولكنه يعرف أنه لا يستطيع أيضاً. يضغط كيس الثلج على يده المنتفخة، وبينما ينظر إلى يده يفكّر بالجندي ذي اليدَيْن المبتورتَيْن، في الفيلم الذي شاهده وأليس وبيلار في الشتاء الماضي، الجنديّ الشّابّ العائد إلى الديار من الحرب، غير القادر على انتزاع ملابسه والإيواء إلى السرير دون مساعدة والده، ويشعر أنه أصبح ذلك الفتى الآن، الذي لا يمكنه فعْل شيء دون مساعدة والده، فتى بلا يدَيْن، فتى يجب أن يكون بلا يَدَيْن، فتى لم تجلب له يداه سوى المشكلات، يداه اللاكمتان الغاضبتان، يداه الدافعتان الغاضبتان، ثمّ يتذكّر اسم الجنديّ، هومر، هومر كذا، هومر كما الشاعر هومر، الذي كتب المشهد عن أوديسيوس وتلاماخوس، الأب والابن وقد اجتمعا بعد سنوات طويلة، على نحو ما اجتمع ووالده، واسم هومر يجعله يفكّر في البيت، كما بكلمة مشرّد، كلهم مشرّدون الآن، قال ذلك لوالده عبر الهاتف، أليس وبينغ مشرّدان، وهو مشرّد، والأناس في فلوريدا الذي عاشوا في البيوت التي قام بتنظيفها مشرّدون، وحدها بيلار لم تكن متشرّدة، إنه منزلها الآن، وبلكمة واحدة، دمّر كل شيء، لن يحصلا على حياتهما معاً في نيويورك، لم يعد لهما مستقبل، وحتّى لو فرّ إلى فلوريدا، لكي يكون معها الآن، فلن يكون أمل لهما، ولو بقي في نيويورك وقاتل في المحكمة، فسوف لن يكون أمل لهما، لقد خذل والده، وخذل بيلار، وخذل الجميع، وبينما تعبر السّيّارة جسر بروكلين، ينظر إلى المباني المتراصّة على الضّفّة الأخرى من نهر إيست، يفكّر بالمباني المفقودة، المباني المنهارة والمحترقة التي لم تعد موجودة، المباني المبتورة والأيدي المبتورة، ويتساءل إذا كان يستأهل

Tele: @Arab_Books

الأمر التّأمّل بالمستقبل، في حين ليس من مستقبل، ومن الآن فصاعداً، يقول لنفسه، سوف يكفّ عن الرجاء بأيّ شيء، ويعيش اللحظة فحسب، هذه اللحظة، هذه اللحظة العابرة، الآن الذي هو هنا، ثمّ ليس هنا، الآن الذي ذهب إلى الأبد.

Tele: @Arab_Books

تمت

23/9/2017

Telegram: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

بول أوستر: ولد عام ١٩٤٧، وهو روائي، وناقد، وشاعر، ومترجم، وسينارست ومخرج وممثل ومنتج سينمائي. يعيش حالياً في بروكلين في نيويورك.

أوستر هو من أبرز الشخصيات في الأدب الأمريكي والعالمي المعاصر. يُنسب إلى أدب ما بعد الحداثوية.

اثنا عشر كتاباً لأوستر كانت الكتب الأكثر مبيعاً في العالم. كما أن كتبه تُرجمت لأكثر من ثلاثين لغة.

منشورات المتوسط

يحمل «صانست بارك»، وهو حيٌّ حقيقيّ في بروكلين بولاية نيويورك الأمريكية، إشارة محورية إلى ما يريد بول أوستر قوله في هذه الرواية. فهذا الحيّ يضمّ عالَمَيْن متناقضَيْن كل التناقض، ظاهرياً على الأقلّ. مقبرة غرينوود الذي يرسمها الكاتب كمدينة موازية، تضمّ عبر مساحات شاسعة من الأرض آلاف الذين عاشوا أو مرّوا في المدينة، وبعضهم نجوم سياسة وأدب وعلم وفنّ، وفي الوقت نفسه، تضمّ ذلك البيت المتهالك الذي سيضمّ مجموعة من الشباب الرافض معظمه لما آلت إليه الأمور في الولايات المتّحدة الأمريكية، والباحث عن هويّته الفردية والجماعية في خضمّ التحوّلات التي تشهدها البلاد، ولاسيما الأزمة الاقتصادية الخانقة التي ألقت بظلالها الثقيلة بداية من العام الذي تبدأ به أحداث الرواية، أي العام ٢٠٠٨.

Arab_Books

ISBN 978-88-99687-82-3
9 788899 687823
المتوسط